المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم الدعوة الثقافة الإسلامية



الشيخ محمد المبارك وجهوده الفكرية والثقافية

(دراسة تحليلية)

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الثقافة الإسلامية

إعداد الطالبة :

غزيل بنت شاهر عوده الدعدي

(٤٢٧٨٠١٢٧)

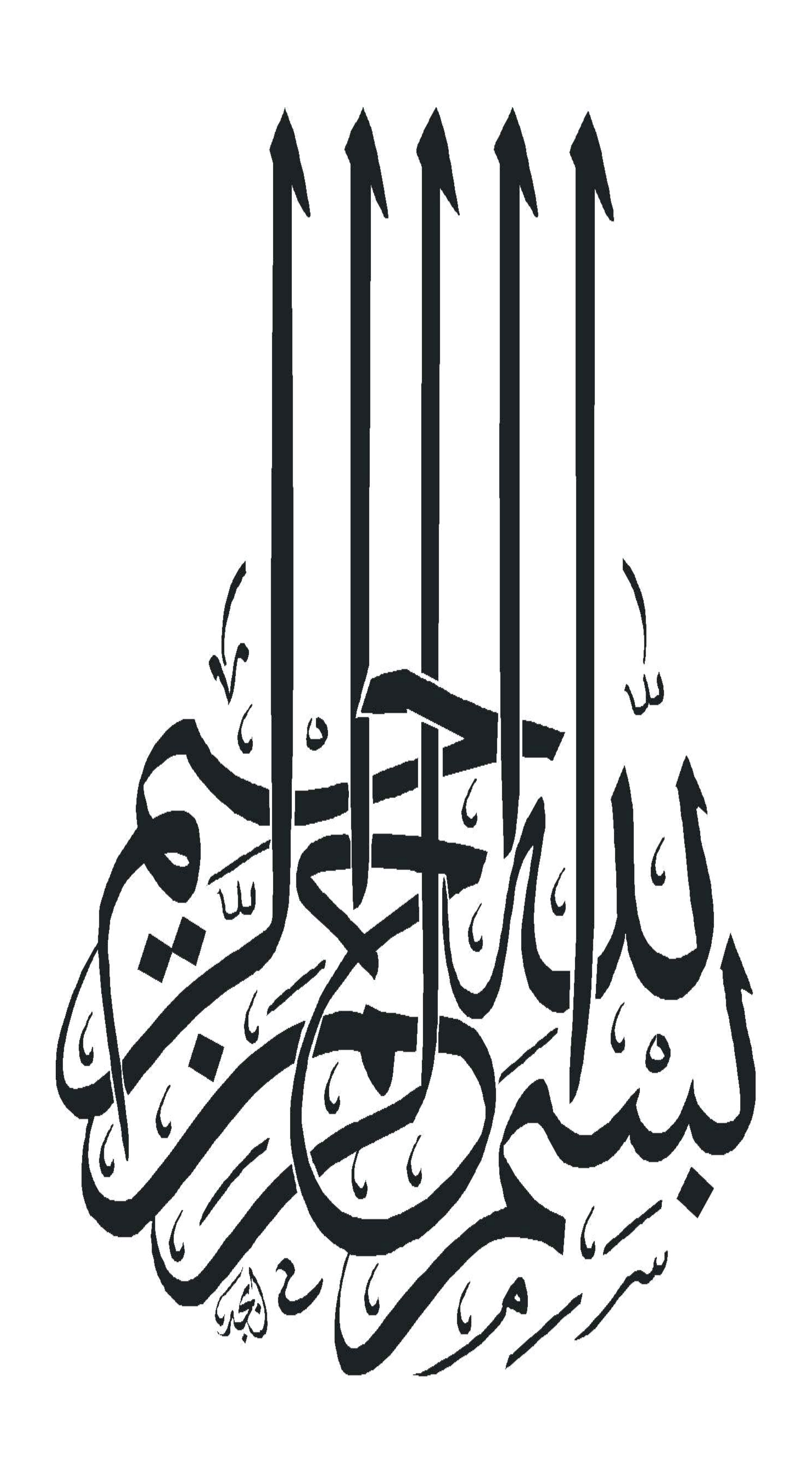
إشراف فضيلة الدكتور :

عبد الله بن محمد الرميان

عميد كلية الدعوة وأصول الدين

العام الجامعي :

١٤٣٠ هـ - ١٤٣١ هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد

لقد قيض الله -عز وجل- لدينه عباداً جعل همهم حفظ هذا الدين، والذود عن حماه، وخصهم بالعلم، والفهم عن سائر العباد، وكان من هؤلاء العلماء الشيخ محمد المبارك -رحمه الله-، والذي قد اخترته عنواناً لهذه الدراسة، التي عنوانها: الشيخ محمد المبارك، وجهوده الفكرية، والثقافية، وذلك؛ لنيل درجة الماجستير في الثقافة الإسلامية.

وقد اشتملت هذه الدراسة على أربعة فصول:

الفصل الأول: تكلمت فيه عن عصر الشيخ المبارك، وبينتُ الحالة السياسية والثقافية في بلاد الشام في ذلك الوقت، وتكلمت عن حياته من خلال بيان مولده، ونشأته وأسرته، وشيوخه وتلاميذه، وأهم آثاره العلمية ومؤلفاته.

الفصل الثاني: عن جهوده في مجال الفكر والدعوة، فبينتُ أهم جهوده تجاه قضايا الأمة الإسلامية، والمجتمع المسلم، وجهوده في مواجهة الغزو الفكري، وجهوده في الدعوة، وفي العقيدة الإسلامية وتوضيحها.

الفصل الثالث: عن جهوده الثقافية، حيث بينتُ أهم جهوده في مجال اللغة والأدب، وفي مجال التربية والتعليم، كذلك جهوده تجاه الاقتصاد الإسلامي، وأهم مشاركاته العلمية في ميدان المؤتمرات والندوات والمحاضرات.

الفصل الرابع: بينت فيه أثر جهود الشيخ في مجال الفكر، والثقافة، والدعوة، ثم ختمتُ هذه الدراسة بأهم النتائج التي منها: عدم تأثر الشيخ -رحمه الله- بالحضارة الغربية التي عاش في أجوائها في بلاده، ثم تلقى علومها في بلاد الغرب أنفسهم، وعلى يد علمائها، وذلك لشدة الحصانة الدينية، والثقافية التي كان يملكها - رحمه الله -، أنه - رحمه الله - أفنى حياته في خدمة الإسلام واللغة العربية، ومحاربة المذاهب الهدامة. وصلى الله وسلم على نبينا وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحثة/ غزيل بنت شاهر الدعدي

In the name of God, merciful, compassionate

Research Summary

Many thanks to God, who directed us to Islam, and we wouldn't have been done that but of Him, and may prayers and peace be upon the most honorable prophet and messenger, our prophet Mohammed, and upon his all companions, and after that:-
God has facilitated for his religious some servant people whom their only concern is this religious, defending its territories, , and that whom he allocated with science and perception among all the worshippers, among those scientists was Sheikh Mohammed Al-Mubarak, may God place his mercy on him, whom I have chosen him as a title for my humble thesis which was named:(The Cultural and Intellectual efforts of Sheikh Mohammed Al-Mubarak) for a master thesis in Islam culture.
TheResearch consists of four chapters:
First chapter: I spoke about the era of Skeikh Mohammed Al-Mubarak, and I have explained the political and cultural situation in Shaam country at the time, I spoke of his life through stating his birth, his grow up, family, his Sheikhs and students, and his most scientific works, and his writings as well.
Second chapter: About his efforts in the field of thinking and Dawaa, I explained his most efforts of the issues of Islamic nation and the Muslim community, his efforts in facing and fighting the intellectual invasion, his efforts in Dawaa, and in explaining of Islamic religious and faith.
Third chapter: about his cultural efforts, where I explained his most important efforts in the scope of language and literature, and in the scope of teaching and education, also in his efforts in the field of Islamic economy, his most important scientific contribution in conferences, seminars and lectures.
Fourth chapter: I explained the effect of Sheikh effort in the field of thinking, culture and Dawaa, then I concluded this study with the most conclusions and results such as: how the Sheikh (may God rest his soul) did not influenced by the western civilization where he live its atmospheres in his own country, then he received his sciences in the western countries itself, on the hands of its scientists because of the religious and cultural immunity he owns (may God rest his soul). He dedicated his entire life in serving Islam and Arabic language, and in fighting against destructive, subversive doctrines, and may God place his prayers and peace on our prophet Mohammed, and on his companions as well.

المقدمة

الحمد لله مجزل العطاء ومسبغ النعم والمنن، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عالم السر والعلن، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الأمين المؤتمن، دلَّ أمته على كلِّ خير، وحذرها من الشرور والفتن، ما ظهر منها وما بطن، صلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله ذوي الشرف، والذكر الحسن، وأصحابه الذين ساروا إلى ربهم على أهدى سبيل وأبين سنن، ومن تبعهم بإحسان إلى آخر الزمن.

وبعد: فإن من امتنان الله -عز وجل- على هذه الأمة أن أرسل إليها أفضل الرسل وأنصحهم لأمته، فقد أعلى راية الإسلام وجاهد في الله حق جهاده إلى أن انتقل إلى جوار ربه، فقيض الله لدينه ولأمته من بعده مشاعل الهدى، من صحابته الكرام الذين حملوا هم الدعوة وبلّغوها ودافعوا عنها، وبينوا مسالكها، بل استماتوا في سبيلها.

فمع تباعد الزمن، وكثرة الفتن، والركون إلى الراحة والدعة، أخذت الغفلة تدب في قلوب أهل الإسلام، فتربص به المتربصون ونال منه الحاقدون، وأصبح الإسلام في أشد الحاجة إلى من يرفع رايته؛ لترفرف، وتعود إلى سابق عهدها، وحسبي أن الإسلام لا يزال بخير كما أخبر بذلك الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأن الخير في هذه الأمة إلى قيام الساعة، فجنود الإسلام من أهل العلم لا يزالون أقوياء سيوفهم صارمة على أعدائهم، وجهودهم متوالية في كل عصر؛ بحيث نجد لهذا الدين من ينصره، فهذه صفوف أهل العلم والخير، والصلاح سلسلة متصلة حلقاتها من عهده -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا، وستستمر بإذن الله إلى قيام الساعة، فمن بين هذه الصفوف نختار نجماً قد لمع، حيث بذل حياته في سبيل الدعوة والعلم، فكان جديراً بأن يظهر في سماء العلم والعلماء، هو الداعية والمفكر الإسلامي الشيخ/ محمد المبارك، الذي اتخذته موضوعاً لدراستي التي عنوانها " الشيخ محمد المبارك وجهوده الفكرية والثقافية"....

أسباب اختيار الموضوع:

١- إظهار أعلام الإسلام الذين نصروا الدين، وأعلوا راية الحق، حيث إن هناك كثيراً من الشخصيات الإسلامية قد جاهدت من أجل الإسلام، وأبناء الإسلام، ولكنها لم تأخذ حقها في الظهور.

٢- إن دراسة جهود المبارك -رحمه الله- تعتبر من الأهمية بمكان؛ لأنه من الذين وقفوا على واقع الغرب وولجوا إلى صميم الثقافة، والفكر الغربي، واستطاع أن يكشف زيفه، ويبين خطره على الإسلام؛ فكان حرياً بأن يُدرس منهجه، وتُظهر جهوده.

٣- كثرة مؤلفاته -رحمه الله- وما تحمله من غزارة، وتنوع في المادة العلمية، حيث تطرق من خلالها إلى كثير من القضايا الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي.

٤- لم أجد دراسة وافية عن جهود هذا الداعية الذي قدم للأمة ما يستحق عليه الشكر والثناء، وخاصة من الناحية التي درستها، إلا بعض الدراسات التي سوف أبينها.

الدراسات السابقة :

ليس هناك دراسات سابقة لهذا الموضوع، إلا بعض الكتب التي كتبت في جوانب محدودة من حياته رحمه الله وذلك باختصار وشكل عام، أو تناولت جزءا يسيرا من حياته، ومشاركاته العلمية عمومًا.

لذلك جاءت دراستي هذه الأولى من نوعها في دراسة جهود هذا الداعية وإظهار منهجه في كثير من المجالات الفكرية والثقافية والدعوية من خلال دراسة مؤلفاته رحمه الله.

أهداف البحث :

١. التعريف بحياة المبارك – رحمه الله – ومدى تأثير هذه النشأة والتربية الإسلامية التي عاشها في أسرته ومجتمعه على خط سيره.

٢. إبراز أهم القضايا الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي التي تطرق الشيخ المبارك في كثير من مؤلفاته إلى معالجتها مثل: قضية المرأة والتعليم ، والتيارات الفكرية

٣. التعريف بأهم مؤلفات الشيخ المبارك التي خدم من خلالها الإسلام، وسعى إلى تكوين امة قوية مترابطة، ومجتمع لينتهج الشريعة ويجعلها دستورًا لحياته.

٤. إيجاد دراسة وافية عن جهوده – رحمه الله – في مجال الفكر والثقافة، حيث إن هذه الدراسة التي خلصت إليها جديدة في هذا الموضوع، بالنسبة للجهة التي بحثتها.

التعريف بمصطلحات البحث :

*** الفكر والثقافة**

أولاً : تعريف الفكر :

الفكر في اللغة العربية : " الفاء والكاف والراء تردد القلب في شيء، يقال، تفكر إذا ردد القلب معتبرًا " [١] .

وجاء أيضًا تعريف الفكر في الصحاح والقاموس : " هو عمل العقل أو الخاطر في شيء ، والتفكر التأمل " [٢] .

الفكر في المصطلح الفكري والفلسفي هو : الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات ، أي: النظر والتأمل والتدبر والاستنباط والحكم[٣] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٢٤٦).

(٢) مادة فكر.

(٣) حقيقة الفكر الإسلامي ص ١٠، د. عبدالرحمن الزنيدي.

ثانيًا: الثقافة :

الثقافة في اللغة : هي : ثقف ثقفًا : صار حذفًا فطنًا، فهو ثَقِف .

والثقافة : العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذف فيها[(1)].

أما الثقافة في الاصطلاح فهي:

إذا كان اللفظ مطلق (ثقافة) " يراد به الأخذ من كل علمٍ بطرف"[(2)].

ويراد به " أسلوب الحياة السائد في مجتمع بشري"[(3)].

الثقافة في الاصطلاح:

أما إذا أضيفت إلى الأمة فهي تراث تلك الأمة الحضاري والفكري في جميع جوانبه النظرية، والعلمية، الذي تمتاز به الأمة، وهذا التراث الذي يشكل ثقافة الأمة متداخل ، مترابط يشكل إطارًا ومحيطًا يحكم الأفراد والأسر والمجتمع في كل أمة"[(4)].

الصعوبات التي واجهتني :

ليس هناك صعوبة إذا كان لدى الإنسان إصرار، وعزيمة مستمدة من الله -عز وجل-، إلا أن البحث عن بعض مؤلفات الشيخ المبارك قد استغرق مني الكثير من الوقت والجهد، فلم أستطع الحصول عليها رغم البحث الجاد،

---

(١) انظر: المعجم الوسيط مادة ثقف ص٩٨، لسان العرب، ص٣٤٠.

(٢) نحو ثقافة إسلامية أصيلة، أ.د عمر سليمان الأشقر، ص٢٠، الطبعة الثاني عشرة بدون

(٣) الموسوعة العربية الميسرة، ص٥٨١، بدون ذكر دار النشر والطبعة.

(٤) نحو ثقافة إسلامية أصيلة، ص٢٢-٢٣.

والمستمر عنها حتى لدى أسرة الشيخ أنفسهم، والمقربين إليه. فأتمنى ألا يكون عدم وجودها قد أخل بهذه الدراسة.

منهج البحث:

يتلخص منهجي في هذه الدراسة في الآتي:

١- جمعتُ أولاً ما استطعت جمعه من مؤلفات الشيخ المبارك، -رحمه الله-، ثم استخلصت المادة العلمية التي أسعى إليها، وقسمتها إلى فصول ومباحث.

٢- عرضت جهود الشيخ المبارك وبينتها في كل مجال كتبتُ فيه عنه.

٣- في بعض المواقف أستشهد على ما كتبه الشيخ، بأقوال من كتب في هذا المجال حتى لو كان من المعاصرين، والقصد من ذلك تأكيد كلامه -رحمه الله- وتأييده، وقد بينتُ مصادر تلك النقولات ومؤلفيها.

٤- بينتُ بعض المصطلحات والمفردات اللغوية من كتب اللغة.

٥- التزمت بتوثيق المصدر الذي أخذت منه المعلومة، سواء أكان كتاباً أم مقالاً أم رسالة، ممن لهم صلة بالشيخ المبارك -رحمه الله-.

٦- عند توثيق المصدر في الهامش، اذكر المرجع ثم المؤلف ثم الصفحة وذلك عند كتابة المرجع للمرة الأولى، ثم بعد ذلك أكتفي بإسم المرجع والصفحة.

٧- حرصتُ على استقاء المعلومات من المصادر الأصلية، ولكن طبيعة البحث تتطلب مني الرجوع إلى المراجع الحديثة.

٨- الاستشهاد بالآيات القرآنية الهدف منه تدعيم الموضوع الذي أكتب حوله، وفي بعض المواطن أفسر الآية القرآنية من كتب التفسير المعتمدة، من أجل إيضاح الموضوع الذي أستشهد بها عليه، ثم حرصت على عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها من الآيات والسور.

٩- بالنسبة للأحاديث الشريفة الواردة في البحث فإن منهجي في تخريجها كالتالي:

أ- إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بتخريجه منهما، أو من أحدهما.

ب- إذا لم أجده في الصحيحين، أخرجه من كتب السنة الأخرى حسب الإمكان والقدرة، ثم أبين الحكم على الحديث.

ج- ثم أعزو الأحاديث إلى مصادرها، مع ذكر الكتاب، والباب، ورقم الحديث، والجزء، والصفحة.

١٠- ترجمت لبعض أعلام الرسالة الذين رأيت في ترجمتهم إثراء للبحث وذلك لصلتهم بموضوع البحث.

خطة البحث:

سرت في هذا البحث على الخطة التالية:

قسمت الموضوع إلى مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة.

شملت المقدمة: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة له، ومنهج البحث، ثم الخطة التي سرت عليها.

أما الفصل الأول: فيشمل عصر الشيخ وحياته، وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: عصره.

المبحث الثاني: حياته وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مولده ونشأته.

المطلب الثاني: شيوخه وتلاميذه.

المطلب الثالث: آثاره العلمية ومؤلفاته.

المطلب الرابع: وفاته.

الفصل الثاني: يشمل منهجه وجهوده في مجال الفكر والدعوة، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: منهجه وجهوده تجاه نصرة العقيدة الإسلامية، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: الدعوة إلى الإيمان بالله.

المطلب الثاني: صفات الكون من خلال القرآن.

المطلب الثالث: صفات الإنسان من خلال القرآن.

المطلب الرابع: طريقة القرآن في دعوة الإنسان إلى الإيمان بالله.

المطلب الخامس: الإيمان بالنبوة.

المطلب السادس: الإيمان بالحياة الآخرة.

المبحث الثاني: جهوده وإسهاماته تجاه قضايا الأمة والمجتمع المسلم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اهتمامه بقضايا الأمة الكبرى

المطلب الثاني: دعوة الشيخ إلى الوحدة الإسلامية، وتقوية الروابط بين المجتمعات.

المطلب الثالث :عوامل تكوين الأمة والمجتمع المسلم المعاصر

المبحث الثالث: منهجه وجهوده في مواجهة الغزو الفكري، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ظهور الغزو الفكري.

المطلب الثاني: آثار الغزو الفكري.

المطلب الثالث: علاج هذا الغزو.

المبحث الرابع: منهجه وجهوده في مجال الدعوة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أهمية الدعوة في حياته -رحمه الله.

المطلب الثاني: جهوده العملية في الدعوة.

الفصل الثالث: يشمل منهجه وجهوده الثقافية، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: منهجه وجهوده في مجال الفقه والأدب. وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: معنى علم اللغة وفوائده.

المطلب الثاني: التبدلات الصوتية.

المطلب الثالث: عناصر الكلمة العربية.

المطلب الرابع: مراحل الوعي اللغوي.

المطلب الخامس: خصائص الكلمة العربية.

المطلب السادس: أثر العربية في اللغات الأخرى، وتأثرها بها.

المطلب السابع: الدراسة الأدبية لبعض آيات الكتاب.

المطلب الثامن: فن القصص عند الجاحظ.

المبحث الثاني: منهجه وجهوده تجاه التربية والتعليم. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ماهية التربية وغايتها.

المطلب الثاني: أطوار التعليم بعد القرون الأولى.

المطلب الثالث: أهداف الدراسات الإسلامية في الجامعات العربية.

المبحث الثالث: منهجه وجهوده في مجال الاقتصاد الإسلامي، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: العمل.

المطلب الثاني: الملكية.

المطلب الثالث: تدخل الدولة في المجال الاقتصادي.

المطلب الرابع: التكامل الاجتماعي.

المبحث الرابع: جهوده ومشاركاته العلمية في مجال المؤتمرات، والندوات، والمحاضرات.

الفصل الرابع: يشمل أثر جهود الشيخ في المسيرة الفكرية والثقافية في العصر الحاضر.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأثر الفكري.

المبحث الثاني: الأثر الثقافي.

المبحث الثالث: الأثر الدعوي.

الخاتمة: استعرضت فيها أهم النتائج التي توصلتُ إليها من خلال البحث.

الفهارس: وقد ذيلتُ هذه الرسالة بفهارس تفصيلية. على النحو التالي:

أ- فهرس الآيات القرآنية.

ب- فهرس الأحاديث النبوية.

ج- فهرس الأعلام.

د- فهرس المصادر والمراجع.

هـ- فهرس الموضوعات.

شكر وتقدير

الشكر لله من قبل ومن بعد، الذي منَّ علي بالهداية والتوفيق، والرعاية والتسديد، حتى أتممت هذا البحث، وأنا في أتم الصحة والعافية، ثم الشكر لوالديَّ الحبيبين، اللذين لم يألوا جهداً في سبيل رعايتي وتعليمي، ونصحي وتوجيهي، فجزاهما الله خير الجزاء، وأمد الله عمرهما في طاعته.

كما أتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان لأستاذي الفاضل الدكتور/ عبد الله بن محمد الرميان، المشرف على هذه الرسالة، والذي لم يدخر جهداً في سبيل نصحي وتوجيهي، فقد بذل الكثير من وقته، وصبر على الكثير من العناء في سبيل إنجاز هذا الموضوع؛ فأسأل الله من فضله وجوده أن يجزيه خير الجزاء، ويسدد على طريق الخير خطاه.

والشكر موصول لجامعة أم القرى، ممثلة في كلية الدعوة وأصول الدين، التي أتاحت لي فرصة مواصلة الدراسة في قسم الدراسات العليا.

كما أشكر جميع المكتبات والقائمين عليها، سواء في جامعة أم القرى ممثلة في المكتبة المركزية، أو مكتبة الحرم المكي الشريف، أو مكتبة الملك فهد الوطنية، فقد أعانتني بعد الله على إتمام بحثي حيث وجدت فيها ما أحتاج إليه من مراجع.

وإن نسيت فلن أنسى أن أشكر زوجي "أبو عايش" الذي لم يدخر جهدًا ولا مالاً في سبيل مساعدتي، وكان قمة في الصبر والتحمل، كما أشكر إخوتي الذين كانوا سندي في هذا البحث، وخاصة أبا امتنان، ولا يفوتني أن أكرر شكري واعتزازي لكل من مد يد العون من نصح وتوجيه، وإرشاد، وكل من خصني بدعوة صالحة في ظهر الغيب.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الأول

عصره وحياته .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : عصره .

المبحث الثاني : حياته .

المبحث الأول : عصره :

لقد تعرض العالم الإسلامي منذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) لغزو عسكري أوربي غاشم يواكبه غزو فكري اغتصب الأرض، وأفسد الفكر، وحاول اغتيال دين هذه الأمة الذي هو خير الأديان، ورد الأمة إلى دياجي الكفر والظلام بعد أن من الله عليها بنعمة الإيمان، قال تعالى:﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[1].

واستمر ذلك الغزو على بلاد المسلمين إلى القرن الثاني عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) حيث عظم شأنه واستفحل وسقطت أكثر الدول الإسلامية تحت سيطرته، "ولم يكن هدف الاستعمار في نشر حضارته هو تمدين البلد التي استعمرها كما كان يتشدق به ويزعمه، ولكنه كان يقصد بذلك إزالة الحواجز التي تقوم بينه وبين هذه الشعوب، وهي حواجز تهدد مصالحه الاقتصادية وتجعل مهمة حراستها والمحافظة عليها صعبة غير مأمونة العواقب" [2].

واجتاح المستعمر البلاد الإسلامية بقيادة أوربا، حيث عمدت أوروبا إلى تجزئة الشعوب الإسلامية وتفتيتها، للقضاء على وحدتها فقسموها وشجعوا النعرات الطائفية، وأثاروا المشكلات حول الحدود؛ وذلك ليُشغل المسلمون بأنفسهم عن مقاومته. فتم تقسيم

---

(١) سورة البقرة آية: ٢١٧.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية؛ د. محمد محمد حسين ص٤٦، دار الرسالة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤١٣هـ.

العالم الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية بين دول التحالف في معاهدة سايكس بيكو[1] سنه ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، وأهم ما تضمنته[2]:

١. أن يكون جنوب العراق لبريطانيا.

٢. أن يكون لبنان والساحل الشمالي من سورية لفرنسا.

٣. أن تكون الاستانة والمضائق لروسيا.

٤. وأصبحت فلسطين وطناً قومياً لليهود بعد وعد بلفور.

٥. أن تكون الأماكن المقدسة (الحجاز) والجزيرة العربية ضمن حكومة إسلامية مستقلة.

٦. تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية، ونقلها من دولة ذات طابع إسلامي إلى دولة غربية الطابع.

فعاث المستعمر في بلاد المسلمين فساداً، وسيطرت فرنسا على سورية ولبنان وهو ما يهمنا لأن سورية تعتبر بلدة المنشأ لشيخنا الفاضل[3].

فبعد أن استولت على سورية قامت بتجزئتها إلى (لبنان، ودولة الدروز، ودولة العلويين، ولواء الإسكندرونه، ودمشق، وحلب) [4]. فقضت على سيادة الدولة المستقلة وعلى الحكم الوطني بها، وأثارت النعرات الطائفية والقبلية بين السكان، وأنزلت العلم العربي

---

(١) سايكس بيكو: معاهدة سرية بين بريطانيا وفرنسا بشأن تقسيم الولايات العثمانية في الشرق الأوسط بينهما. ينسب إسمها إلى مارك سايكس البريطاني وجورج بيكو الفرنسي – ثم التوقيع خلال شهر مارس ١٩١٦م. (القاموس السياسي: احمد عطية الله دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨م، ص٦٠٨-٦٠٩.

(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي، الواقع والتحديات. أ.د. عفاف سيد صبرة ود. مصطفى محمد الحناوي ص١١-١٢، مكتبة الرشد ، المملكة العربية السعودية ، ط:١ ، ١٤٢٤هـ، وحاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، د. جميل عبدالله محمد المصري، ص١٢٣ ، مكتبة العبيكان ، الرياض، ط:١، ٧، ١٤٠٥هـ، ١٤٢٣هـ.

(٣) انظر :حاضر العالم الإ سلامي الواقع والتحديات ص١١-١٢،وحاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصره ص١٢٣.

(٤) المرجع نفسه ص١٤٣ .

ورفعت مكانه العلم الفرنسي، ونزعت سلاح الأهالي، وفرضت اللغة والثقافة الفرنسية في المحاكم والإدارات، وأهملت اللغة العربية، وربطت الاقتصاد السوري بالفرنسي وحاربت الصناعات الوطنية، بينما شجعت صناعتها ومنتجاتها.

"لم يستسلم الشعب العربي في سورية لهذه التدابير، فقامت هنا وهناك بعض الحركات المسلحة إيذاناً بذلك الرفض وتعبيراً عن سخط الشعب على السياسة الفرنسية الغاشمة"[1].

فواصل الشعب السوري ثوراته ضد الفرنسيين، وتابع مسيرة كفاحه، إلا أن القوات الفرنسية لم تدخر جهداً في قمع هذه الحركات، حيث استخدمت ضدهم أبشع وسائل القمع تارة، وتارة أخرى تتبع معهم سياسة المصالحة والوعود الكاذبة لكسب الوقت، واستمر ذلك الوضع إلى عهد الاستقلال، بعد أن أيدت بريطانيا سورية في مطالبتها بالجلاء الفرنسي عن أراضيها، وذلك خدمة لمصالحها وتحقيقاً لأهدافها الإستراتيجية في المنطقة، فتسلمت الحكومة الوطنية زمام الأمور وسعت إلى إصلاح ما أفسده المستعمر.

وفي ظل تلك الظروف السياسية والفكرية المتوترة في العالم الإسلامي ولد الشيخ محمد المبارك في سورية، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى نشأ وشب.

وكانت كل تلك الأحداث على مرأى ومسمع منه رحمه الله، لأنه عاش في أجوائها، فكان لها أعظم الأثر في شخصيته مما حدا به إلى العمل في المجال السياسي في وقت مبكر من حياته وهو لا يزال طالباً، فشارك في الجهاد الوطني ضد المستعمر الفرنسي حتى الاستقلال، ودخل السجن مرتين قبل الاستقلال وبعده. كذلك شارك في عدد من

---

(١) انظر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر. الشيخ محمود شاكر، د. إسماعيل أحمد ياغي، ص١٣٢، مكتبة العبيكان،الرياض ط:١٤١٩،٩،٥٢.

الانتخابات نيابة عن دمشق ، وتقلد أعمال الوزارة عدة مرات، فكانت السياسة له وسيلة لخدمة الإسلام، ولم تكن هدفاً يسعى إلى تحقيقه والفوز به.

فقد خلف المستعمر بالإضافة إلى الفساد السياسي فساداً فكرياً شاسعاً كان أخطره محاربة الدين، واللغة العربية، وجعل لغة المستعمر (اللغة الفرنسية) هي اللغة الأم، وذلك "بغية إبعاد شعوب هذه البلاد عن مصادر الشريعة الإسلامية، وفي مقدمتها القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ثم كتب التفسير والفقه، ومن ورائها سائر كتب العلوم الإسلامية والعربية؛ وذلك في خطتها لمحاربة الإسلام وهدم وحدة المسلمين" [1].

فأقصتْ الدين عن مناهج التعليم والتربية وجعلته تابعاً وليس أساساً فيها؛ "لأنه أدرك أعداء الإسلام أن الشعوب الإسلامية مادامت على صلة وثيقة باللغة العربية فإنها ستظل مرتبطة بالإسلام وبالقرآن، وستظل متمسكة بفكرة الوحدة الإسلامية الكبرى، ومن أجل ذلك أخذ أعداء الإسلام يوجهون مختلف القوى، ويتابعون ألون الجهود، ويتخذون شتى الوسائل الممكنة لهم لصد الشعوب الإسلامية عن اللغة العربية"[2].

فسعت جاهدة إلى نشر العامية وجعلها لغة التأليف والكتابة، وطبعت مناهج التعليم بالطابع العلماني؛ مما نتج عنه مئات من أبناء المسلمين تنكرت للإسلام وأهله واتهمتهم بالتخلف والرجعية وأفسدت وسائل الإعلام.

وأخرجت المرأة من بيتها وجعلتها سلعة رخيصة ممتهنة، وأخذت تجاهد بالنفس والنفيس والمكر والدهاء لإفساد العقائد والأخلاق والطعن في مقومات هذه الأمة وتقطيع الروابط التي تربط بين أبنائها وشعوبها وجعلها لقمة سائغة في أفواه المستعمرين والغاصبين.

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة. عبدالرحمن الميداني ص٣٥٤، دار القلم، دمشق، ط:٨، ١٤٢٠هـ.

(٢) المرجع نفسه ص٣٥٣ ــ ٣٥٤.

وكل هذه الأسباب لا يخفى تأثيرها على الشيخ المبارك حيث صمد في وجه المستعمر، وشارك في العديد من الميادين التي تخدم وطنه، وألف الكتب التي تعين أبناء أمته على فهم واقعهم، ومشاركة العديد من علماء عصره الذين تقع عليهم مسؤولية حماية الإسلام والدفاع عنه.

ورغم كل ما حدث لهذا الدين الإسلامي ولغته العربية إلا أنه لا يزال صامداً أمام كل القوى التدميرية فقد تكفل الله بحفظهما ، حيث قيل: "إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي للمغرب هي اللغة العربية فيه التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا"[1].

ولا تزال هذه الأمة خير الأمم ودينها خير الأديان قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[2].

فكانت هذه الجوانب من أقوى العوامل في التأثير في حياة الشيخ المبارك – رحمه الله– .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة ، ص١٨٨.

(٢) سورة آل عمران آية ١١٠.

المبحث الثاني : حياته .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : مولده ونشأته .

المطلب الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المطلب الثالث : آثاره العلمية ومؤلفاته .

المطلب الرابع : وفاته .

المطلب الأول : مولده ونشأته وأسرته :

هو " أبو هاشم" محمد بن عبد القادر بن محمد المبارك سياسي سوري ولد بدمشق، نشأ وتربى في أكناف أسرة معروفة بالعلم والتقوى والصلاح، أبوه عبد القادر المبارك.

يقول عن نفسه: "اسمي الذي سماني به والدي - رحمه الله - محمد، ولقب أسرتنا منذ أكثر من قرن على الأقل المبارك ، وقد كناني بأبي هاشم. وكان يرى ذلك عادة عربية مستحسنه لما فيها من إشعار بالرجولة.

ولدتُ بدمشق عام ١٩١٢م في دار ملاصقة للمدرسة العادلية التي هي اليوم مقر للمجمع العلمي العربي، وقد أصبحت هذه الدار نفسها ملحقة بالمجمع، وهي في حي قريب من الجامع الأموي، ثم سكنا منزلاً آخر أقرب إليه في جهته الشرقية وكنت أتردد مع أقراني من أحداث الحي على الجامع في أكثر أوقات فراغنا للصلاة والفسحة في رحابه الواسعة، ولحضور الدروس الدينية التي كانت لها حلقات كثيرة بعد أكثر الصلوات الخمس"[(١)].

فماذا نتوسم في ذلك الفتى الذي نشأ في رحاب المسجد، وتقلب في ساحاته يسمع الأذان ويشهد الصلاة، وينضم إلى حلقات العلم التي تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة، وفي أسرة أساسها العلم والتقوى والصلاح، ثم إنَّ أبوه عبد القادر المبارك عالماً ضليعاً في علوم اللغة والأدب، حيث دّرسها في دمشق في ثانويتها الوحيدة وكان مشهوداً له بالعلم والتقوى والصلاح.

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم، لمحمد المجذوب ، ص٢٢٩. دار الاعتصام، ط: ٣ بدون ذكر تاريخ الطبعة.

يقول فيه الشيخ علي الطنطاوي: "ما اجتمع تحت قبة السماء في وقت واحد أعلم باللغة من عبد القادر المبارك ومحمد الجندي" (1).

يقول محمد المبارك عن نفسه: "البيئة التي نشأتُ فيها بيئة محافظه على الأخلاق الإسلامية الموروثة، تحيا في جو الإسلام وتراثه، وتعتز به سواء في ذلك الأسرة التي انحدرت أو الحي الذي نشأت فيه، وكانت دار والدي مرتاداً للعلماء الوافدين من أرجاء البلاد الشامية والعربية، وكنت دائم الحضور لتلك اللقاءات والندوات، وقد استفدت كثيراً من مكتبة جدي، ثم والدي رحمهم الله، وكنت مكلفاً بتزويدها بالمطبوعات الجديدة وتصنيفها كلما اختل ترتيبها"(2).

فقد عاش طفولته في أجواء المجتمع الإسلامي المحافظ في مدينة دمشق، ونهل من الثقافتين في ذلك العصر وهي، الثقافة الحديثة التي كانت في المدارس الحكومية الابتدائية والثانوية والتي أُقتبست من المنهج الفرنسي وغُطت بالستار العربي، كما نهل من حلقات العلم التي كانت على أيدي المشايخ والعلماء، وأهمهم الشيخ محمد بدر الدين الحسني – رحمه الله- مفتي الديار الشامية في عهده، فقد درس على يديه، ونهل من معين علمه كثيراً من العلوم الإسلامية في التفسير والحديث وأصول الفقه والنحو والصرف والمنطق والحساب والجبر والهندسة والفلك، كما درس على يد والده رحمه الله، الذي كان أشهر علماء اللغة في بلاد الشام، شرح المعلقات، ولامية العرب، والمقصورة الدريدية، ومقامات الحريري وكثيراً من المذاكرات العلمية المتنوعة (3).

---

(1) مجلة الفيصل العدد ٦٢ شعبان ١٤٠٢هـ

(2) علماء ومفكرون عرفتهم، ص٢٣١.

(3) انظر الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، لمحمد المبارك، ص٢٠ ــ ٢١، دار الفكر، بيروت ط: ٢، ٣، ١٣٨٩هـ، ١٣٩٣هـ.

يقول المبارك – رحمه الله- عن والده: "كان أثره في حياتي وتكويني الفكري والثقافي كبيراً، وكان في بيت والدي مكتبة كبيرة أصلها لجدي الشيخ محمد المبارك، وكان من علماء دمشق وشيوخها وقد تفرد بينهم باللغة والأدب ونظم الشعر، وله رسائل أدبية مطبوعة وشرح لعشر من مقامات الحريري إلى أن يقول: "وأصل أسرتنا القريب من الجزائر هاجر منها والد جدي إثر الاحتلال الفرنسي حوالي سنة ١٨٤٥م على رأس قافلة كبيرة من الجزائريين الذين كانوا ملتفين حوله"[١].

أسرته :

لقد تربى الشيخ محمد المبارك- رحمه الله – في أسرة كما بينا مشهورة بالتقوى والصلاح، وربى أبناءه على ذلك، فقد تزوج زوجته الحلبية من عائلة آل البيانوني المعروفة بالعلم والصلاح وهي أم أبنائه الخمسة: ولدين وثلاث بنات، ويعتبر جداً لستة أولاد من بنتيه المتزوجتين [٢]. "الإناث الثلاث هن الكبريات ثم الطبيب الدكتور هاشم ثم المهندس الدكتور صالح، والجميع على قيد الحياة – حفظهم الله –" [٣].

ويقول عن أسرته: "كانت حياتي الزوجية سعيدة لما بيننا جميعا أنا وزوجتي وأولادي وأصهاري من انسجام في العقيدة والأخلاق وسائر مذاهب الحياة، ذلك أننا جميعاً نؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً مقترناً بالحب له، والعمل في سبيله والدعوة إليه، ونعتقد أنه السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية، وأن ما سواه من الأديان والمذاهب لا يصلح للإنسانية، بل إن فهمنا للإسلام، أنا وأسرتي جميعاً التي أعددتها، فهم واحد قوامه الرجوع إلى الكتاب والسنة وما استنبط منهما فحسب"[٤].

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم، ص٢٣٠.

(٢) محمد المبارك العالم والمفكر والداعية، حسني أدهم جرار، ص٢٥.

(٣) رسالة من د/ مازن المبارك بتاريخ ٢٩ شوال ١٤٣٠هـ.

(٤) علماء ومفكرون عرفتهم ص٢٣.

لقد تربى محمد المبارك – رحمه الله- بين ثمانية من الإخوة خمسة من الذكور وثلاث من الإناث فهو الأخ الأكبر لهم ثم يليه[1]:

١. (ممدوح): وقد عمل موظفاً في وزارة المواصلات ثم اتجه إلى ممارسة الأعمال الحرة.

٢. (عدنان): وتخرج من كلية الحقوق بدمشق وعمل في مجال المصارف والبنوك في سورية والجزائر.

٣. (هاني): تخرج من كلية الآداب بدمشق وعمل أستاذاً للتاريخ في مدارس سورية الثانوية.

٤. الدكتور (مازن): عمل أستاذاً للغة في كل من جامعة دمشق وقطر والرياض والإمارات.

٥. (عبد الهادي): وتخرج أيضاً من كلية الحقوق بدمشق، وعمل في مجال الإذاعة في سورية، ثم في الإمارات، وقد توفي أربعة منهم – رحمهم الله- وبقي على قيد الحياة مازن، وعبدالهادي – حفظهم الله-.

أما أخواته الإناث فهن:

١. سعاد.

٢. نزيهة: تخرجت أيضاً من كلية الحقوق ودرَّست التربية الإسلامية في ثانويات دمشق

٣. وجيهة: درَّست اللغة العربية في ثانويات دمشق.

وقد توفيت الكبرى – رحمها الله – ، وما زالت اثنتان على قيد الحياة – حفظهم الله –.

---

(١) رسالة من د / مازن المبارك في ٢٩ /١٠/ ١٤٣٠هـ.

المطلب الثاني: شيوخه وتلاميذه :

كانت حياته العلمية تسير في خطين عن طريق المدارس النظامية في الصباح، والحلقات في المساء على يد العلماء والمشايخ الذين تأثر بهم في مسيرته العلمية؛ فكان منهم من تعلم منه مشافهة، ومنهم من تعلم منه بواسطة مؤلفاته وكتبه، فأول المعلمين له:

١. والده: الشيخ عبد القادر[١] – رحمه الله – (١٢٩٥-١٣٦٤هـ) (١٨٧٨-١٩٤٥م)

هو عبد القادر بن محمد المبارك، الجزائري الدمشقي، أديب، لغوي، ولد بدمشق، ودرس على والده وبعض الشيوخ، امتهن التعليم ففتح مدرسة خاصة، ثم عين أستاذاً للعربية والدين في مدرسة السلطانية الأولى بدمشق، وانتخب عضواً للمجمع العلمي العربي، من آثاره: فرائد الأدبيات العربية، شرح المقصورة الدريدية في اللغة في مجلد ضخم، أنشودة الألباب في عالم الأسباب.

وكان هو المعلم الأول للشيخ محمد المبارك حيث درس على يديه مختلف الدراسات الإسلامية والأحوال الشخصية والسيرة النبوية، وله أثر كبير في توجيهه وتكوين شخصيته العلمية والاجتماعية، فكان بالنسبة له مرشداً مربياً، وأستاذاً معلمًا، ووالداً علمه الحرية الشخصية؛ فكثيراً ما يختلفان في الرأي ويتناقشان بحرية.

كان –رحمه الله– تعجبه الرجولة ويكره الضعف والتخنث، جواداً كريماً يكره البخل، وكانت له وجاهة وزعامة لقوة شخصيته، كثير المخالطة لمختلف الطبقات ومتحدثاً بارعاً في المجالس[٢].

---

(١) معجم المؤلفين. عمر رضا كحالة ص٣٠١-٣٠٢، مكتبة المثنى، لبنان، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان بدون ذكر الطبعة.

(٢) انظر: علماء ومفكرون عرفتهم ص٢٣٨.

يقول عنه أنور الجندي: "كان والده عبد القادر المبارك علامة دمشق وأحد أعمدة فكرها الإسلامي الحديث في حلقة طاهر الجزائري، وكان لهذا البيت المبارك اهتمامه وولاؤه وشغفه باللغة العربية، وقد تتلمذ العلامة (محمد المبارك) لثلاثة من النوابغ: والده، والشيخ سليم الجندي، ومحدث الشام محمد بدر الدين(1).

٢- العلامة الكبير الشيخ محمد بدر الدين الحسني (ت ١٣٥٤هـ) هو: محمد بن يوسف المغربي المراكشي السبتي، الدمشقي، الحسني (بدر الدين) محدث، مفسر، متكلم، منطقي، نحوي، رياضي، بياني مشارك في علوم النحو، أصله من محلة ورياد العروس بمراكش، ولد في دمشق في دار والده قرب مدرسة دار الحديث الأشرفية عام (١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م) توفي والده وعمره ١٢ عاماً فجلس في غرفة والده وبدأ يدرس ويطالع على طريقة والده. تعلم على يد الشيخ أبي الخير الخطيب فحفظ القرآن وأتمه، وحفظ متون العلوم على اختلافها، وحفظ الأحاديث بأسانيدها والصحيحين وغيرها من الكتب الحديثية الأربعة الأخرى، لم يكتف بعلوم الشريعة واللغة بل قرأ وأقرأ العلوم الكونية على طريقة المسلمين العرب من فلك وزيج واصطرلاب وحساب وهندسة وجبر وفلسفة، وقد توفي عام (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م).

محدث الديار الشامية في عصره ، أوسع أهل زمانه علماً بعلوم الدين في جميع مجالاتها وفروعها من تفسير وحديث ومصطلح ورياضيات وهندسة وعلم الكلام والفرائض وغيرها (2).

يقول عنه محمد المبارك: "وكان لشيخنا العظيم العلامة الكبير الصالح التقي المتعبد الشيخ بدر الدين الشهير بالحسني محدث الديار الشامية في عصره أثر عميق في طراز

---

(١) مجلة البنوك الإسلامية، العدد ٢١ صفر ١٤٠٢هـ.

(٢) انظر: معجم المؤلفين . لعمر رضا كحالة ص١٣٩، وانظر :كتاب المحدث الأكبر وإمام العصر الشيخ محمد بدر الدين الحسني للأستاذ محمد صالح الفرفور أحد تلامذة المترجم له.ص٣٣-٣٤.دار الفرفور، دمشق، ط:١، ١٤٢١هـ .

حياته الفريد من نوعه وفي سمته وتقواه وانكبابه على العلم واطلاعه على العلوم بل الثقافة الإسلامية بجميع فروعها، وكانت له بي عناية خاصة في تعليمي وتوجيهي وكانت له في توجيهي مرام بعيدة، وكان من جملتها توجيهي بطريقة غير مباشرة لتعلم اللغة الأجنبية وتشجيعي على السفر إلى أوربا للتعلم، ولم يكن ذلك مألوفاً من أمثاله من علماء العصر، وكان أكثر دهره صائماً قلما يتكلم إلا بعلم أو ذكر، يمنع الناس من القيام له وتقبيل يده ويغضب من ذلك، وكان يعلن في دروسه فرضية الجهاد لإخراج الأجنبي الكافر المستعمر، وكان على صلة مستمرة مع الثائرين على فرنسا في سوريه" [1].

وقد لازمه - محمد المبارك - منذ نهاية الدراسة الابتدائية حتى نهاية الدراسة الجامعية، وبين ذلك فترة انقطاع قصيرة، درس على يديه كثيراً من العلوم بعضها في دروس عامة، وبعضها في دروس خاصة بعدد معين من طلاب العلم، وفي بعض الدروس يكون منفرداً مع الشيخ، وكان يحمل له المحبة والتقدير، ورغم ذلك لم يقلده في جميع آرائه، وعندما توفي الشيخ كان شديد التأثر لموته شديد البكاء عليه لم يبك على أحد قط بكاءه على شيخه ومعلمه، رحمه الله.

٣- الأمير شكيب أرسلان -رحمه الله-[2]،(١٢٨٦-١٣٦٦)- (١٨٦٩-١٩٤٦م) هومؤرخ، سياسي، ولد في الشويفات بلبنان، ونشأ بها، ودخل مدرسة الحكمة ببيروت، وانتقل منها إلى المدرسة السلطانية، وحضر دروس مجلة الأحكام العدلية على محمد عبده المصري، ولازمه في مجالسه الخاصة، له عدة أعمال حكومية، كما أنه انتخب بالمجمع العلمي العربي بدمشق بعد الحرب العالمية الثانية، وله عدة رحلات تنقل خلالها بين الحجاز، واليمن، والمغرب، وأوربا وأمريكا، توفي ببيروت، ودفن بالشويفات، من

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم، ص٢٣٢ ــــ ٢٣٩.

(٢) انظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحاله ص٣٠٤-٣٠٥).

تصانيفه: الحلل الهندسية، لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم، وغزوات العرب في فرنسا، وغيرها.

وكان له أثر كبير في نفس المبارك بمؤلفاته وبما نشره في الدعوة إلى الوحدة الوطنية، والتحرر من الاستعمار، وبما كونه من وعي لدى الشباب الإسلامي بمدى الخطر المحيط بالأمة الإسلامية فجعلهم متيقظين لما يدور حولهم من مشكلات وقضايا إسلامية معاصرة، وقوّى الشعور لديهم بالانتماء إلى الأمة الإسلامية، والبعد عن القوميات، والوطنيات التي كانت رائجة في ذلك الوقت.

وكان الأمير شكيب أرسلان مطارداً من قبل الاستعمار، بل من أبناء وطنه الذين أحلوا الوطنية محل الإسلام، وقد التقى المبارك بالأمير شكيب في باريس عندما ابتعث للدارسة هناك [1].

٤- مرسيه وماسينيون اللذان يعدّان من كبار أساتذة الأدب الفرنسي يومئذ، حيث درس على يديهم الأدب الفرنسي وعصوره وفنونه وأعلامه، واستطاع من خلالهم الولوج إلى صميم الثقافة الفرنسية، والأدب الفرنسي.

مرسيه (١٨٧٤-١٩٥٦) هو مستشرق فرنسي، اهتم خصوصا باللغة البربرية، واللهجة العربية المغربية،عين ناظرا لمدرسة تلمسان، فمكنه هذا المنصب من الاتصال بالمعلمين العرب ، كذلك عين في مدرسة الدراسات العليا الملحقة بالسربون ، قام في مطلع شبابه بترجمة "ديوان أوس بن حجر التميمي" إلى الفرنسية وله دراسات ومحاظرات جُمعت بعد وفاته في مجلد وأهمها: العبادة في الإسلام، أصول النثر الأدبي العربي، الإسلام والحياة المدنية،المعاجم العربية وغيرها .

---

(١) انظر: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٢٣٩.

ماسيونيون(١٩٦٢-١٨٨٣م) مستشرق فرنسي عظيم امتاز بنفوذ النظرة، وعمق الاستبطان، والقدرة على استنباط التيارات المستورة وراء المذاهب الظاهرة، والأفكار السطحية عني بالآثار الإسلامية ، واستهل بها نشاطه العلمي ، كما درس اللغة العربية في المدرسة الوطنيه للغات الشرقية،وقرأ بعض الأشعار العربية ، كتب رسالتين :عذاب الحلاج ، وشهيد التصوف في الإسلام [1].

٥- ومن الذين أثروا في توجيهه الفكري من القدماء ولكنهم لا يعتبرون من شيوخه، ابن تيمية، ومن بعده تلميذه ابن قيم الجوزية حيث وقع على بعض مؤلفاتهم مثل كتاب (الحسبة) و(الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) وكتاب (إعلام الموقعين) لابن القيم وهذه الكتب لها صلة بالعلوم الحقوقية، فأعجب بها، وفتحت أمامه آفاقاً جديدة، وكشفت له عن جوانب من عظمة التشريع الإسلامي، وإبداع الفقهاء والمفكرين المسلمين، واطّلع أيضاً على رسائل ابن تيمية حيث كانت متوفرة في مكتبة جده، وأيضاً كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ، فأعجب به وبما في هذا الكتاب من نقاش بين الصوفيين والسلفيين، فأخذ يقرأ الجديد من الكتب في هذا المجال، فتولد لدية ميل وحب لمدرسة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وأعجب بسعة علمهم، و مستوى تفكيرهم، وبعد آفاقهم واستنتاجاتهم، وحسن فهمهم للنصوص[2].

ويقول المبارك عن مدى تأثير ابن تيمية عليه: "إن تأثير ابن تيمية كان واضحاً في تحرري من كثير من الأخطاء التي كانت شائعة في البيئة التي نشأت فيها، وقويت عندي ملكة الرجوع إلى الدليل من الكتاب والسنة، وكنت بدأت بسلوك هذا الطريق إثر مطالعتي الكثيرة لكتاب (بداية المجتهد) لابن رشد، وكتاب (الموافقات) للشاطبي، ولم يعد

---

(١) انظر : موسوعة المستشرقين ، د.عبد الرحمن بدوي ،ص٥٤٧ وص٥٣٣،دار العلم للملايين،ط:٣، ١٩٩٣ م

(٢) انظر: علماء ومفكرون عرفتهم ، ص٢٣٩ - ٢٤٠.

احترامي لشيخي ووالدي، رحمهما الله، ومحبتي لهما بمانعين لي من مخالفتهما في الرأي حينما يتضح لي الدليل الشرعي والعقلي"[1].

تلاميذه :

لقد كان -رحمه الله- يعجبه الشباب الدؤوب المتحمس للعلم، فكان يوليهم رعايته، ولا يدخر عنهم شيئاً، ويرى فيهم أمل الإسلام البعيد، والمنقذ الذي ينقذ هذه الأمة، وينجيها من وعثاء الطريق، والنبتةَ الطيبة التي تثمر بعد حين[2].

فبحكم أنه -رحمه الله - بدأ حياته العلمية أستاذاً في المدارس الرسمية التي تولى التدريس فيها سواء في سورية أو خارجها، مثل: السودان - والمملكة العربية السعودية – ومصر، فتلاميذه أكثر من أن نحصيهم، ولكن نذكر منهم: [3]

١) د. محمد لطفي الصباغ: قضى في التعليم أربعين سنة، منها أربع سنوات في كلية اللغة العربية والشريعة، ثم انتقل إلى جامعة الملك سعود، وقضى في التعليم فيها ستاً وثلاثين سنة، ودرّس علوم القرآن والحديث، ثم درّس في بعض السنوات النحو، وعلم المكتبة، وعلوماً أخرى.

٢) الأستاذ سليم البرادعي: عمل في الحرس الوطني في الرياض وحصل على الجنسية السعودية بالتجنس.

٣) الأستاذ عبدالقدوس ابو صالح : ولد في سوريه (مدينة حلب) سنة **١٩٣٢**هـ، وأتم دراسته الأولية فيها وتخرج من جامعة دمشق وحصل منها على لسانس في الآداب، ودبلوم في التربية، وليسانس في الحقوق، تابع دراسته العليا في كلية الآداب بجامعة القاهرة، ونال درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى، عمل مدرسا في سوريان ثم انتقل

(١) المرجع نفسه، ص٢٤٠.

(٢) مجلة الفيصل، العدد ٦٢ شعبان ١٤٠٢هـ.

(٣) رسالة من د. محمد لطفي الصباغ في ١٤٣١/٥/٢٤هـ، و رسالة من الأستاذ ابراهيم الحاج علي.

إلى كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وأستاذا للدراسات العليا بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، واستاذا للدراسات العليا في قسم الادب، وعضوا في المجلس العلمي للجامعة، اشرف وناقش الكثير من الرسائل ثم انتقل إلى كلية المعلمين بالرياض وهو الآن مستشارا غير متفرغ في جامعة الأمير سلطان بالرياض، ورئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

٤) د. نجاح العطار: هي أول امرأة نائب رئيس جمهورية في الوطن العربي كانت وزيرة الثقافة السورية، انشأت مركز للدراسات الاستراتيجية والإقليمية بعد تركها الوزارة بتكليف من بشار الأسد.

٥) الأستاذ: إبراهيم الحاج علي، حصل على الماجستير قبل عشرين عاماً في النحو وإعراب القرآن.

٦) د. مصطفى جطل: حاصل على الدكتوراه في النحو من جامعة دمشق.

٧) عبدالله العبود: حاصل على الليسانس من جامعة دمشق.

المطلب الثالث : آثاره العلمية ومؤلفاته :

آثاره العلمية:

بعد أن عاد المبارك – رحمه الله – من بعثته إلى باريس وأنهى الدراسة في جامعتها عُيِّنَ مُدرِّساً للغة العربية في ثانوية حلب في عام ١٩٣٨ – ١٩٣٩م ثم انتقل إلى دمشق ودرَّس في ثانويتها الأدب العربي، والأخلاق، والمنطق، والنصوص، والفلسفة ، بالإضافة إلى نشاطه في الدعوة، وإلقاء المحاضرات العامة.

وبعد إجلاء جيش الاستعمار من سورية عام ١٩٤٥ بدأ الحكم الوطني، وحدث في وزارة المعارف تنظيمات وتغييرات، كان منها إحداث لجنة فنيه عليا في الوزارة يكون أعضاؤها من مختلف التخصصات يقومون بوضع خطط للمناهج، فعُيِّن المبارك في هذه

اللجنة، كما أصبح مفتشاً اختصاصياً لمادتي اللغة العربية، والدين، وكُلف بوضع مناهج لهاتين المادتين وأُقرت هذه المناهج كما وصفها.

وفي عام ١٩٤٦م أقصي المبارك عن التفتيش، واقتصر عمله على عضوية اللجنة الفنية، لما كان يقوم به من دعوة في المناطق التي يزورها للتفتيش وما يلقيه من محاضرات عامة تعرِّف بالإسلام، وواقع المسلمين.

وقد عمل -رحمه الله- في السياسة إلا أن العمل في مجال السياسة لم يثنه عن مواصلة التدريس، فعاد إليه في أوائل عام ١٩٤٨م، فكلف بتدريس مادة فقه اللغة، والدراسات القرآنية في جامعة دمشق، واستمر على ذلك نحواً من عشر سنوات انقطع خلالها، ثم عاد للتدريس حتى عام ١٩٦٦م.

وفي عام ١٩٥٤ – ١٩٥٥ أسست كلية الشريعة في جامعة دمشق، وذلك تنفيذاً للدستور الذي نص على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع، وبسبب سابقته التعليمية عُين أستاذاً في الكلية، وشارك في وضع خطتها ومناهجها مثل (نظام الإسلام)، و (حاضر العالم الإسلامي)، ودرَّس فيها عدة مواد مثل: فقه اللغة، ونظام الإسلام والعقيدة، وعلم الاجتماع، ثم عُين رئيس قسم العقائد والأديان بعد إنشاء الأقسام، ثم عميداً لها من عام ١٩٥٨ حتى عام ١٩٦٤م.

ثم بعد ذلك انتدب من جامعة دمشق إلى جامعة أم درمان في السودان تلبية لطلب مديرها، وقدم استقالته من جامعة دمشق، وعمل في السودان من عام ١٩٦٦م -١٩٦٩م أستاذاً ومشاركاً في التخطيط، ورئيساً لقسم الدراسات الإسلامية كما شارك في التدريس في كلية الحقوق في جامعة الخرطوم من خلال تدريس مادة السياسة الشرعية.

ثم بعد ذلك في عام ١٩٦٩م اقترح عليه (وزير المعارف)[1] في ذلك الوقت في المملكة العربية السعودية العمل فيها، فقبل المبارك بهذا الاقتراح، وأقام في مكة المكرمة، فعين أستاذاً ورئيساً لقسم الشريعة والدراسات الإسلامية في كلية الشريعة بمكة المكرمة.

وكان من قبل قد شارك في وضع خطة لهذه الكلية وكلية التربية، وأحدث تغييراً في بناء الكليتين من حيث الأقسام عندما اقترح أن ينتقل قسم التاريخ واللغة العربية من كلية التربية إلى كلية الشريعة وأن يكون من الكليتين جامعة تسمى جامعة أم القرى فعمل باقتراحه، واستمر عمله في هذه الكلية أربع سنوات، عين بعدها أستاذاً باحثاً ومستشاراً في جامعة الملك عبدالعزيز بجده.

كما أن له مشاركات في التخطيط الجامعي في أربع بلدان عربية وإسلامية وهي: سورية – المملكة العربية السعودية – السودان – مصر – وخاصة ما يتعلق بالمواد الإسلامية حيث اقترح في تدريسها اقتراحات جديدة أُخذ بأكثرها مما أدى إلى التنسيق بين جامعات هذه البلدان من حيث الدراسة الإسلامية ومناهجها.

أما بالنسبة للمواد التي درَّسها في الجامعات والمعاهد العليا فهي كما يلي:

١. الأدب العربي: درَّسه في دار المعلمين العليا بدمشق، وقبله في ثانوية دمشق.

٢. فقه اللغة: درَّسه في قسم اللغة العربية في كلية الآداب بدمشق، وفي معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة.

٣. علوم القرآن ودراسة النصوص القرآنية؛ في كلية الآداب وكلية الشريعة بدمشق.

٤. نظام الإسلام: في كلية الشريعة بدمشق ، وكليات أم درمان وجامعة مكة وجامعة الملك عبدالعزيز.

٥. العقيدة: كلية الشريعة بدمشق.

---

(١) وكان آنذاك الملك فهد رحمه الله حيث إنه تقلد وزارة المعارف في عام(١٣٧٣هـ - ١٣٨٠هـ).

٦. علم الاجتماع: كلية الشريعة بدمشق، وكلية البنات بجامعة أم درمان الإسلامية.

٧. المجتمع الإسلامي المعاصر: في كليتي الشريعة والتربية بمكة، وفي كلية الاقتصاد بجدة.

٨. السياسة الشرعية: في كلية الحقوق بجامعة الخرطوم.

٩. النصوص الفرنسية: في كلية الآداب بقسم اللغة العربية بجامعة دمشق، بالإضافة إلى مواد باللغة العربية، كالمنطق والأخلاق والترجمة[1].

مؤلفاته:

تنوعت مابين كتب وبحوث علمية في مجالات العربية، والأدب، والإسلاميات، والدراسات الاجتماعية؛ فعالجت كثيراً من قضايا المسلمين وواقعهم.

فقد كتب في مجال البحوث العلمية في وقت مبكر وبحث في التجارب العلمية عند المسلمين ونشر نصاً لتجربة أبي الريحان البيروني في الكثافة، وبحث في تاريخ الرياضيات عند المسلمين ونشر فيه بحثاً، اما في مجال التأليف العلمي فقد ألف العديد من الكتب ناقش خلالها كثيرًا من القضايا الإسلامية المتنوعة.

وسأذكر هنا مؤلفاته مرتبة على حروف المعجم مع الإشارة باختصار إلى أهم الموضوعات فيها:

١) آراء ابن تيمية في الدولة ومدى تدخلها في المجال الاقتصادي:

ويعتبر هذا الكتاب عرضاً وتحليلاً لنظرات ابن تيمية في "موقف الإسلام من الدولة ووظائفها، ومدى تدخلها في المجال الاقتصادي"، وقد طبع في دار الفكر الطبعة الأولى عام ١٩٦٠م، وكان تحت مسمى: "الدولة عند ابن تيمية"، والطبعة الثانية في عام ١٩٦٧م تحت مسمى" الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية". والطبعة الثالثة في عام

---

(١) انظر: علماء ومفكرون عرفتهم، لمحمد مجذوب، ص٢٤٦-٢٥٣.

١٩٧٠م وجعل عنوانه في الطبعة الأخيرة "آراء ابن تيمية في الدولة، ومدى تدخلها في المجال الاقتصادي" ويقع في ١٦٠ صفحة.

٢) الأمة العربية في معركة تحقيق الذات:

جعل كتابه هذا في قسمين، تحدث في القسم الأول: عن بحث نظري في القوميات، وأنها حقيقة قائمة وواقع، وبين الصلة بينها وبين الإنسانية، ثم طبق هذه الحقائق، فطرح مسائلها على الصعيد العربي ، وبين كذلك بعض التيارات الفكرية في البلاد العربية.

والقسم الثاني: تحدث عن الأمة العربية الإسلامية وصلتها الوثيقة بالرسالة المحمدية ، وبدين الله الخالد، والإنكار على الذين يريدون أن يفصلوا بين تاريخ العرب والإسلام.

وتضمن أيضاً هذا الكتاب بعض الأبحاث التي تحدثت عن موضوع الكتاب نفسه، ولكن في تواريخ مختلفة، وهذا الكتاب من منشورات مؤسسة المطبوعات العربية بدمشق طبع في ٩/ ٦/ ١٣٧٥هـ، وقد طبعته دار الفكر ثلاث طبعات، ويقع في ٢١٤ صفحة تقريبًا.

٣) الأمة والعوامل المكونة لها:

ويعد هذا الكتاب متمماً لنظرية الكتاب السابق (الأمة العربية في معركة تحقيق الذات)، فبين المقصود بالمجتمع العربي والعالم الإسلامي - من خلال الموقع - والسكان - وما يجاوره من عوالم أخرى، وما بينها وبينه من صلات، ثم بين مدلول الأمة القومية، وعوامل تكوين الأمة، وطبع هذا الكتاب بدار الفكر بدمشق طبعتين ، ويقع في ٩٤صفحة تقريبًا .

٤) الثقافة الإسلامية، المستوى الثالث:

وهذا كتاب اشترك في تأليفه مع الشيخ عدد من الأساتذة، منهم: الشيخ محمد الغزالي، ود. مصطفى عبدالواحد، وراجعة وأشرف على طباعته د. محمد إبراهيم علي،

والدكتور/ حسين حامد حسان، وهو مقرر كمتطلب جامعي في جامعة أم القرى، وجامعة الملك عبدالعزيز منذ ما يزيد على ثلاثين سنة، وقد درسه آلاف الطلاب خلال هذه السنوات.

وقد عرضوا فيه موضوعات ثقافية في الاقتصاد والسياسة، وللشيخ المبارك فصلان في هذا الكتاب، تحدث في الجزء الأول عن الاقتصاد، فبّين الأسس العقدية والأخلاقية التي يقوم عليها هذا النظام الإسلامي والعمل في الإسلام والملكية وواجباتها، ودور الدولة في المجال الاقتصادي والتكافل الاجتماعي، ثم أفرد هذا الجزء فى كتاب خاص أسماه "نظام الإسلام الاقتصادي، مبادئ وقواعد عامة" وهو حلقة من سلسلة كتب نظام الإسلام التي تعرف بالإسلام من جوانب متعددة، وقد طبع في دار الفكر ببيروت، ويقع فى ١٥٨صفحة، أما الجزء الثاني الذي كتب فيه الشيخ فكان عن السياسة والحكم في الإسلام، وفصّل في كل ماله علاقة بالحكم من حاكم ومحكومين ودولة، وقد أفرد أيضاً ما كتبه في هذا الكتاب بكتاب خاص أسماه "نظام الإسلام، الحكم والدولة" من مطبوعات دار الفكر ويقع في ١٤٤صفحة.

٥) الثقافة الإسلامية، المستوى الرابع:

وهذا أيضاً كتاب أشترك في تأليفه مع الشيخ عددًا من الأساتذة وهم: الشيخ محمد قطب، والأستاذ مصطفى كامل، وهو متطلب جامعي في جامعة أم القرى، وجامعة الملك عبد العزيز، منذ ما يزيد على ثلاثين سنة أيضاً، وقد درسه آلاف الطلاب خلال هذه السنوات.

وقد تحدث الشيخ في الجزء المخصص له عن دراسة المجتمع الإسلامي المعاصر، وتعتبر دراسة شاملة دون تخصيص، درس فيها قضاياه العامة والظواهر الاجتماعية المشتركة، وقد أفرد ما كتبه أيضاً في هذا الكتاب في كتاب

خاص أسماه "المجتمع الإسلامي المعاصر" وهو من مطبوعات دار الفكر في بيروت، ويقع في ١٢٩ صفحة.

٦) العقيدة في القرآن الكريم:

وهو بحث مبتكر في نهج القرآن الكريم في عرض العقيدة، وأساليبه في الدعوة إلى الإيمان بها، ويتضمن نظرة الإسلام العامة إلى الوجود، مستخلصة من الكتاب الكريم.

وقد وضَّح من خلال هذا الكتاب بعض الحقائق التي تضمنها القرآن الكريم، وخرج من خلال هذه الحقائق بفكرة شاملة عن نظرة الإسلام إلى الوجود.

وعرض العقيدة وبينها كما جاءت في كتاب الله من خلال الدعوة إلى الإيمان بالله، وطرح من خلال ذلك قضيتين، هما بداية الخلق، وتنظيم الكون وفق سنن الله فجاءت آيات الكتاب شاملة ومفصلة في هذه القضايا.

كذلك عرض الحقائق الإلهية في الدعوة إلى الإيمان بالله وبين مسالكها واستشهد على ذلك بكثير من آيات الكتاب، وطبع في دار الفكر ببيروت ويقع في ٤٥صفحة.

٧) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية:

وبين من خلال هذا الكتاب حال جيل الأمة منذ الحرب العالمية الأولى وتعاقب التيارات الفكرية عليها، حيث وجدت في العالم الإسلامي مرتعاً خصباً لبث جذورها متسللة إلى حياة أمتنا تسلل الطعام إلى البطون الجائعة التي لا تفكر في نوع طعامها.

كذلك بين مقاييس الحضارة الإسلامية ودوافعها، ونقائص الحضارة الحديثة، ودور الحضارة الإسلامية، ثم بين أزمة مجتمعنا التي تكمن في تغير معالم الإسلام وتطور المجتمع تطوراً يخالف الإسلام، وبين عناصر تكوين الحضارة الحديثة.

وقد جاء هذا الكتاب مشتملاً على عدة أبحاث تجمعها فكرة واحدة وهي ذاتية الإسلام، وقد بيّن كل بحث في كتابه الخاص به حيث أفرد لكل بحث كتاباً خاصاً تكلمت عنه في مكانه. وطبع في دار الفكر مرتين ويقع في ٢٠٣ صفحة تقريبًا.

٨) المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي، واقعها وعلاجها:

عرض من خلال هذا الكتاب واقع الثقافة في البلاد الإسلامية، والأمور التي تكتنف هذا النظام وتقف في طريقه، حيث يسيطر عليه تفكير غير إسلامي ونزعات فكرية تخالف التفكير الإسلامي والثقافة الإسلامية، مما كان له وقعه على التعليم والثقافة في البلاد الإسلامية حيث أصبح التعليم فيها مزدوجاً، تعليم ديني، وآخر مدني، وللثقافة مصدران، مصدر قديم، ومصدر حديث، ثم طرح الحلول لمثل هذه المشكلات الثقافية. وتمت طباعة هذا الكتاب في دار الفكر في بيروت، ويقع في ٢٩ صفحة.

٩) بين الثقافتين الغربية والإسلامية:

يضم هذا الكتاب أربعة مباحث متصلة الموضوعات، وقد تكلم في المبحث الأول منها، عن نظام التعليم الإسلامي الموروث، وبين الأُطُر التي مر بها هذا النظام وواقعه، والعلاقة بينه وبين النظام الحديث، وما آل إليه هذا النظام الإسلامي بعد تلك التأثيرات الحديثة عليه.

المبحث الثاني: عن تأثير الثقافة الغربية على الفكر الإسلامي المعاصر، حيث بين وضع العالم الإسلامي الثقافي قبل الالتقاء بالثقافة الغربية، وما آل إليه الفكر الإسلامي من انحطاط وركود، بعد مقابلته للثقافة الغربية وهي في أوج قوتها.

أما المبحث الثالث: فهو بعنوان: نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع. بيّن من خلاله بعض العلوم التي ليست من اختصاص علم الاجتماع إنما أقحمت فيه، ثم اقترح أسساً وقواعد لعلم اجتماع جديد في إطار التصور الإسلامي.

والمبحث الرابع: عن واقع الدراسات الإسلامية في الجامعات العربية ويعتبر شاملاً لبحوث الكتاب وقد بيّن أهداف هذه الدراسة وبين خططها ومناهجها، وقد طبع هذا الكتاب في دار الفك مرتين٠ ويقع في ٢٠٤صفحة تقريبًا.

١٠) دراسة أدبية لنصوص من القرآن الكريم:

يعد هذا الكتاب من أحدث الدراسات في تحليل النصوص، وقد جاء نتيجة لخبرة صاحبه الطويلة في تدريس النصوص القرآنية في كلية الآداب ولتمرسه في اللغة، فعمد فيه إلى دراسة الجملة والآية القرآنية من وجهين ، من ناحية النظم والتركيب اللغوي ، ومن ناحية التركيب الفني، فتناول عدة آيات من سورة العاديات والحاقة والنحل، وبيَّن العبر في سورة يوسف،

فدرسها وبين المعنى الإجمالي أولاً، ثم بيَّن الأفكار الواردة في النص، وخصائصه الفكرية وما فيها من ترابط، ثم بدأ بالتحليل الأدبي للآيات، وكان يسمى هذا الكتاب في طبعاته القديمة (من منهل الأدب الخالد)، ثم تغير اسمه فيما تلتها من طبعات إلى (دراسة أدبية لنصوص من القرآن)، وطبع في دار الفكر مرتين ويقع في ١٥٧صفحة تقريبًا.

١١) ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد:

بيَّن من خلاله المراحل التي مر بها الإسلام في العصر الحديث والنواحي التي تميزت بها أوربا بعد التقائنا بها، والأفكار التي حاولت بثها فينا، وبيَّن خصائص الإسلام التي تميز بها عن الأنظمة الأخرى والمشكلات الجديدة التي تواجه الإسلام، ثم توصل إلى أن المخرج من ذلك هو الرجوع بالإسلام إلى مصادره الأصلية، والتخلي عن كثير من الأفكار الغربية التي استسلمنا لها وجعلناها من ضروريات الحياة، وقد طبع هذا الكتاب في دار الفكر ببيروت ويقع في ٤٨صفحة.

١٢) عبقرية اللغة العربية:

وقد كتب هذا البحث بعد أن رُغِبَ من قبل بعض أعضاء النادي العربي بدمشق في إلقاء محاضرة في عبقرية اللغة العربية بالنسبة للأمة العربية، وبيَّن العناصر التي هي قوام الكلمة العربية إذا اجتمعت فبين كل ما في الكلمة من مادة ومعانٍ، وطبع هذا الكتاب في دار الفكر ويقع في ٣١صفحة.

١٣) فقه اللغة وخصائص العربية:

جاء هذا الكتاب نتيجة صحبته الطويلة – رحمه الله- مع اللغة العربية، حيث تلقى علومها منذ نعومة أظفاره، وعندما طلبت منه كلية الآداب في عام ١٩٤٩م تدريس فقه اللغة فيها واتى ذلك رغبةً قديمةً لديه، فجاء كتابه هذا بعد أن رأى أن مباحث فقه اللغة تعد من أهم المباحث العلمية التي لا تزال تشع آفاقها وتتجدد نظراتها في اللغات الأجنبية، فاقتصر في أبحاث كتابه على ما يتعلق بالكلمة المفردة دون التراكيب، لأن البحث في الكلمات المفردة يؤلف القسم الأكبر من علم فقه اللغة، ويهتم به الباحثون، فجاء كتابه خاصاً به لم يقلد فيه أحداً إلا ما كان في المسائل العامة بين اللغات، ولم يعمد فيه إلى حشد الشواهد الكثيرة من المصادر العربية القديمة، وإنما اكتفى بما احتاج إليه للاستشهاد، ولم ينظر فيه إلى العربية في عصر واحد، إنما في عدة عصور، فاستشهد بأمثلة من العصر الحديث والجاهلي وصدر الإسلام، والعباسي، وسار في بحثه على طريقة المقارنة، والموازنة بين العربية، واللغات الحديثة [1].

وقد طبعته دار الفكر ببيروت خمس طبعات، ويقع في ٣٣٩ صفحة تقريبًا.

---

(١) انظر: فقه اللغة وخصائص العربية. محمد المبارك ص١٢ ــ ١٣.دار الفكر،بيروت،ط:٥، ١٣٩٢ه.

١٤) القصص في كتاب البخلاء للجاحظ:

وكان السبب الرئيسي الذي دفعه إلى الكتابة في مثل هذه الموضوعات كما ذكر – رحمه الله – ما رآه أثناء دراسته في جامعة السوربون في باريس من الاهتمام بدراسة الأدب الفرنسي، ودراسة آثار أدبائهم على طلاب شهادة الأدب الفرنسي مثل:" ديدرو" الكاتب الفرنسي المشهور، و"موباسان" القصصي الكبير، مما ولد الرغبة لديه – رحمه الله – في ضرورة العناية ببعض نواحي أدبنا العربي ولاسيما الفن القصصي، فوقع اختياره على الجاحظ، حيث درس آثاره ووجد فيه أديباً يستحق أن يضعه في مرتبة الأدباء العالميين ويُنظر إلى آثاره الأدبية والفكرية من الزاوية الإنسانية [1].

فجاء هذا الكتاب مشتملاً على عدد من النصوص المختارة من كتاب البخلاء للجاحظ، حلل منها نصين تحليلاً أدبياً، ثم بين خصائص فن الجاحظ القصصي من حيث الموضوع والأسلوب، وبين قيمة كتاب البخلاء للجاحظ في تاريخ الأدب، وقد طبع في دار الفكر، ويقع في ٧٥ صفحة.

١٥) مذكرات في الثقافة الإسلامية:

ويعد هذا البحث إجابة لعدد من الأسئلة التي وضعها الكاتب على بساط البحث لينطلق من اجابات هذه الأمثلة إلى بحث موضوع الثقافة الإسلامية كمشكلة قائمة، بعد أن بيّن مفهومها، وأبعادها ومصادرها المعاصرة، والعناصر التي تكونت منها. وتمت طباعته في دار الفكر ويقع في ٣٧صفحة .

١٦) نحو إنسانية سعيدة:

يعتبر هذا الكتاب إسهاماً منه في علاج القلق، والخوف الذي أصاب البشرية وخاصة في العصر الحديث، نتيجة لاتخاذ الإنسان الحياة المادية، بشهواتها وملذاتها ورفاهيتها، هدفاً

---

(١) انظر فن القصص في كتاب البخلاء، للجاحظ، محمد المبارك ص٣.دار الفكر،ط:٣، ١٣٩٤ه.

وغاية يجري نحوها، فسعى من خلاله إلى إقامة أساس روحي لبناء الحضارة المادية الحديثة، التي كانت مكاسبها العلمية والعملية من نعم الله على الإنسان، والتي أصبحت بدون هذا الأساس الروحي بلاءً وسبب دمار، فبين من خلاله مبادئ وأسس الحياة الإنسانية ومصير البشرية، ومسؤوليتها، وآثار العقيدة في نفوس أصحابها، وخصائصها، ومميزاتها، وما يشوبها من شوائب والعقائد الفاسدة، ثم تطرق إلى العبادة، ومفهومها ومقاييس التقوى في الإسلام.

وقد طبع كتابه هذا طبعتين، الأولى في دار الفكر بدمشق عام ١٣٨١هـ ١٩٦١م، والطبعة الثانية في دار الفكر ببيروت عام ١٣٨٩هـ ١٩٧٠م ، ويقع في ٢٠٤صفحة تقريبًا.

١٧) نحو وعي إسلامي جديد:

قد بيّن هذا الكتاب ما أصاب الإسلام من انحطاط وركود وضعف قبيل الالتقاء بالحضارة الأوربية، وما أصابه بعدها من تفكك وضعف أدى إلى غزو أوربي سياسي وفكري.

ونتج بعد ذلك مرحلة جديدة هي مرحلة الوعي الذاتي حيث بدأت أمتنا تستفيق من سباتها، ولن يكتمل لها ذلك الوعي إلا بالعودة إلى إسلامها وفهمه من ينابيعه الأصلية ليعود إسلامنا قوياً كما في سابق عصره، وقد طبع في دار الفكر ويقع في ٣٥صفحة.

١٨) نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث:

عرض- رحمه الله- من خلال هذا الكتاب واقع الإسلام في مراحله الأولى قبل الغزو الحديث، كيف بدأ مزدهراً قوياً عدة قرون، ثم تراجع حيث مرحلة الركود العلمي والاهتمام بالجزئيات تفكيراً وعملاً، ثم مرحلة الغزو الأوربي للمسلمين أرضاً ومجتمعاً وحضارة، ثم طرح حلولاً لهذه المشكلة لعلنا نصل من خلالها إلى بناء جديد لكياننا. وبين

أن القرآن انطلق في دعوته من منطلقين: الكون، والإنسان، واستشهد بآيات من الكتاب العزيز، ثم بين عناصر الدعوة الإسلامية.

وهو من طباعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م ، ويقع في ٤٣ صفحة.

١٩) نظام الإسلام، العقيدة والعبادة:

أراد من كتابه عرض الإسلام عرضاً شاملاً أخذاً من مصادره الأصيلة: القرآن والسنة دون تدخل الآراء الشخصية، فعرض العقيدة من حيث معالمها الكبرى ولم يتطرق إلى جزئياتها حيث إنها تتصل بجميع أجزاء النظام الإسلامي، وهي الكلية الأساسية في بنائه، فهي مرتبطة بالله الخالق والكون والإنسان والنبوة. واستشهد على ذلك بآيات الكتاب التي تظهر هذه الحقائق، حيث ان العبادة هي التي تذكر الإنسان بموقفه الحقيقي من الوجود فبين معناها ووظائفها وأقسامها وخصائصها ومزاياها، وقد طبع في دار الفكر ببيروت ويقع في ١٩١صفحة.

٢٠) نظرة الإسلام العامة إلى الوجود وأثرها في الحضارة:

بين من خلال هذا الكتاب أن مما يتميز به الإسلام أن له إلى الوجود نظرة شاملة، تنبثق عنها جميع اتجاهاته وقواعد سلوكه، ولا يمكن أن تفهم احكامه الجزئية، إلا إذا عرفت نظرته العامة ، التي هي في الواقع الاساس الاعتقادي في الإسلام، وهي في حاجة لأن تعرض عرضا جديد شاملا، ونحن اليوم في حاجة إلى هذه النظرة، لأنها تؤلف الأساس من تفكيرنا، والجوهر من تراثنا، والعنصر الخالد من رسالة امتنا، كذلك هذه النظرة الكاملة تفسح المجال للإرتقاء العقلي، والتطور المادي، ولا تغفل العنصر الروحي في الإنسان،وقد حاول المبارك –رحمه الله إستخراج هذه النظرة الواضحة للوجود من خلال ما ورد في آيات الكتاب مبتدأ بالإنسان نفسه، وما يحيط به من واقع الكون والطبيعة.

المطلب الرابع : وفاته :

كـان يـرحمـه الله في أواخر حـياته يعمل في جـامعة المـلك عـبدالعزيز بجدة، وبقي في هذا العمل حـتـى وافتـه المنية في المديـنـة المنورة حيث كان زائـرا لها ، وتوفي بها رحمه الله في صبـيحة يوم الخمـيس الموافق ٧/ ٢/ ١٤٠٢هـ، ٣/ ١٢/ ١٩٨١م بالسكـتـة القلبـية وهو في طريقه إلى الطبـيـب مع أحد إخـوته، بـعـد وقـت قصـير من عـبارة قالها وهو يمر من أمام مقـبرة البـقـيع : "هنـيـئاً لمن يدفـن فـي البـقـيع" ولعله قد صدق الله فـصـدقه، وخـتـمت بذلك حـياته الـتـي أمـضـاها مـجـاهداً في سبـيل رفع راية الإسـلام، وإعـداد أجـيـال إسلامـيـة قادرة علـى إعـادة بـنـاء الأمة الإسلامية من جـديـد[1].

ولقد كان لوفاته -رحمه الله- وقع كبير في قلوب أهله ومحبيه، فكتبوا عنه بدموعهم قبل أقلامهم، ومن هؤلاء:-

الأستاذ محمد المجذوب الذي كتب كلمة بعنوان في ذمة الله يا أبا هاشم[2]، فقال:

انتقل رحمه الله – من جدة بعد إلقائه، آخر محاضراته على طلبته، في جامعة الملك عبدالعزيز، إلى بلد الحبيب صلى الله عليه وسلم، ليظفر هو ومن معه من أسرته، يحضهم من نفحاته، على دأبه في مثل هذه الأيام من كل عام.

ويشاء الحكيم أن يختم تلك السيرة المباركة بالنهاية التي ما برح الكثير من إخوانه يتلهفون إلى مثلها: صلاة العشرات من آلاف المؤمنين على جنازته عقيب صلاة الجمعة، ثم مواراته تراب البقيع مع ثلة من صحابة رسول الله وأهل بيته الطاهرين، وما أسعدها

---

(١) انظر: محمد المبارك العالم والمفكر والداعية، لحسني أدهم جرار، ص٣٣. نقلاً عن رسالة من الشيخ مـــصطفى الزرقا في ٦/٣/١٩٩٧م، ومجلة الفيصل العدد ٦٢ شعبان ١٤٠٢هــ ص٧١.

(٢) علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب ص٣٣٧.

من نهاية حظي بها، حيث استقر في نهاية مطافه بمدينة سيد الخلق، التي طالما عبقت بأنفاس نبيه.

وكان لثقافته العميقة – رحمه الله – في كلا الميادين القديمة والحديثة مجالها الملائم ، فإذا هو ينتقل من تصحيح مسيرة التدريس ، إلى تقويم الاتجاه في تخطيط المناهج الأساسية، وما هي إلا خطوة أخرى حتى أصبحت هذه المناهج ذات التأثير الهام في عقلية الجيل، وفي مشاعره، حتى تجاوز ذلك التأثير نطاق سوريا إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وما لبث أن فسح له الطريق إلى المجلس النيابي، فاختير بين المفضلين من ممثلي دمشق، في الانتخابات حيث برزت مداركه السياسية، القائمة على الوعي العميق لمشكلات العالم الإسلامي كله.

ثم بعد ذلك شغل منصب الوزارة فأدارها بجدارة أكدت مكانته الفكرية والعلمية، في العالم الإسلامي بأسره، وقد أسهم في تثبيت هذه المنزلة له، استقامته الخلقية، وتواضعه الذي لم تغيره المناصب.

ولم يكن رجال العلم في سوريا أقل تقديرا لهذا المفكر من عامة الشعب الذي تخيره لنيابته، ومن قادة السياسة الذين أوسدوا إليه مناصب الوزارة ، فإذا هم يحتفلون به عضوا عاملا في مجتمعهم العلمي العربي في عاصمة الشام، ليخاطب جمهور العلماء من على منبره، كما يخاطب السياسيين من على منبر النيابة، والمثقفين وعامة الناس من خلال مؤلفاته وندواته ومقالاته.

كذلك كان – يرحمه الله – أحد الأعضاء الأولين في المجلس الاستشاري في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وإن له الأثر المحمود في تركيز مناهجها على وجه يليق بجامعة تحتل المكان المتقدم بين جامعات العالم الإسلامي

فلا جرم أن يكون الرزء بأبى هاشم كبيرا في قلوب عارفيه ومحبيه من هذه الجامعة، وان يمتد الأسى عليه إلى سائر الجامعات التي أسهم في خدمتها، وإنه من المتعذر على الراصد لنشاط هذا الفقيدان يقصر وضع الكارثة به على الوسط الجامعي وحده بل امتد إلى أولئك الذين ألف حب الإسلام والعربية بينه وبينهم، فهم يحبونه بحبهم للإسلام، ويحبونه بحبهم للغة القرآن العظيم التي شرفها الله بكتابه.

ولقد كان المصاب يابى هاشم فاجعة أي فاجعة، ولا سيما في هذه الأيام التي اتسعت خلالها حلبة النضال في معركة الإسلام، وإنما يفتقد النور عند اشتداد الظلام [1] .

رثاه الشاعر ضياء الدين الصابوني في قصيدة بعنوان: رثاء المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ:محمد المبارك[2] : وقد أثبتها حسني أدهم جرار، فجاءت على النحو التالي:

"ما للمصائب قد أثارت مهجتي ... وغزت فؤادي الصلب كي أتزلزلا

إن النوائب لا تفل من الذي ... اتخذ التصبر حلية وتجملا

أبكي الشمائل والفضائل والنهى ... أبكي الأخوة والوداد الأكملا

أمسِ اجتمعنا واللقاءُ مبارك ... وكأنما كان الوداع معجلا

فلقد عرفتك مخلصاً متواضعاً ... ولقد عرفتك في المكارم أولا

قد كنتَ في فقه اللغات مجدِّدا ... بل كنت للمستشرقين الموئلا

أنا لا أصدق هل قضى أستاذنا ... أم أن هذا الأمر كان تخيلا

أمبارك والفضل فيك سجية ... ما كنتَ للطلاب إلا مشعلا

ما كنت للإخوان إلا روضة ... ما كنت إلا في الشدائد معقلا

جاهدت فى الإسلام حق جهاده ... ودعوت للإصلاح تبقى الأفضلا

(١) انظر: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٣٣٧.

(٢) محمد المبارك العالم والمفكر والداعية، ص١٨٨. وكانت هذه القصيدة بتاريخ: ١٤٠٢/٢/٧هـ.

أبكيك من قلبي وأعلم أنه ... لن ترجع الأحزان ما قد سجلا

ماذا يفيد الحزن أو يجدي الأسى ... فاصبر على حكم القضاء تجملا

فدع التفجع والتحسر والأسى ... وتذرعنْ بالصبر كن متجملا

فالصبر أحزم للنفوس ومعقل ... والله يجزي الصابرين تفضلا

وإذا قضى الرحمن ما من مهرب ... أوفى بك الصبر الجميل وأكملا

ما مات من ترك المفاخر بعده ... أبداً ولا نال العلا من أهملا

راض الصعاب بهمة جبارة ... وحلا له مر الحياة وما حلا

الموت غاية كل حي فاعتبر ... ومصير كل العالمين إلى البلى

كل يؤمل أن تطول حياته ... وقضاء ربك نافذ لن يهملا

ولطالما يبغي زيارة طيبة ... فإذا به نال الذي قد أملا

لا راعنا فيك الزمان فأنتم ... أمل الشباب إذا القضاء تنزلا

فاهنأ أخي بجيرة محمودةٍ ... جُعلت لكم جنات عدنٍ منزلا"

وبعد هذه المرحلة من العطاء ، والتضحية والفداء، يقف هذا الداعية – رحمه الله – في محطته الأخيرة ويسلم الروح إلى باريها، بعد أن خلف وراءه ثروة علمية شاهدةٌ له إلى يوم الدين، شاهدة له بالخير والتقوى، شاهدة له بالفوز والفلاح.

فنسأله سبحانه أن يجعل قبره روضة من رياض الجنة ومنزلته في أعلى عليين، ويحشر مع النبيين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا.

الفصل الثاني

منهجه وجهوده في مجال الفكر والدعوة

ويشتمل على أربعة مبحث :

المبحث الأول :

منهجه وجهوده تجاه العقيدة الإسلامية.

المبحث الثاني :

جهوده وإسهاماته تجاه قضايا الأمة والمجتمع المسلم.

المبحث الثالث :

منهجه وجهوده في مواجهة الغزو الفكري.

المبحث الرابع:

منهجه وجهوده في مجال الدعوة .

المبحث الأول :

منهجه وجهوده تجاه العقيدة الإسلامية.

وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول : الدعوة إلى الإيمان بالله .

المطلب الثاني : صفات الكون من خلال القرآن الكريم .

المطلب الثالث : صفات الإنسان من خلال القرآن الكريم .

المطلب الرابع : طريق القرآن في دعوة الإنسان للإيمان بالله .

المطلب الخامس : الإيمان بالأنبياء .

المطلب السادس : الإيمان بالحياة الآخرة .

علم العقيدة من أشرف العلوم وأجلِّها وأهمها، وخاصة عندما توافق هذه العقيدة الفطر القويمة، والعقول السليمة وتخلو من التناقض واللبس والغموض.

ويرى المبارك -رحمه الله- أنه رغم ما توصلت إليه الإنسانية في العصر الحاضر من تقدم في جميع مرافق الحياة، وخاصة في المجالات العلمية والصناعية، وبالرغم مما بلغه الإنسان من الرفاهية ورغد العيش إلا أنه لم يحقق الطمأنينة والسعادة التي ينشدها؛ لأنه محتاج إلى مكمل لهذه السعادة، فرغم هذا التقدم العلمي والصناعي فإن البشر يحتاجون إلى العقيدة القرآنية المتضمنة للإيمان بالحقائق الكبرى التي هي وراء الحقائق الكونية، والتي تكمل نقصها، وتضع الإنسان معها على قاعدة سليمة يرتكز عليها ويطمئن إليها[1].

وقد اهتم بها -رحمه الله- أيما اهتمام، وأولاها من العناية الشيء الكثير، لأنه أيقن أنها اللبنة الأساسية التي يقوم عليها الدين، فدعا إليها، من خلال مؤلفاته ونادى بضرورة عرضها مع ثبات مضمونها بما يتوافق مع أساليب عصرنا وتفكيرنا، وبما يتوافق مع مشكلات هذا العصر وقضاياه لكي تقف هذه العقيدة الإسلامية في وجه العقائد الجديدة والمستحدثة. نتيجة لاصطدام العقيدة الإسلامية، بفلسفات وثقافات وعقائد أخرى فاسدة، ونشوء نوع من الصراع بينهما، مما أدى بدوره إلى خلط كثير من الناس بين مبادئ العقيدة، وأسلوب عرضها، فلم يفرقوا بين عقيدة خالدة وأسلوب زمني عارض قابل للتبديل والتغيير.

أما عن منهجه رحمه الله لنصرة العقيدة الإسلامية: فإنه اتجه إلى القرآن الكريم ينهل منه العقيدة، ويلتمس الإيمان من ينبوعه الأصلي حيث وجد فيه مجالاً أرحب وأفقاً أوسع ومادة أخصب، ونوراً أبعد، وأسلوباً أكثر تنوعاً وحيوية، وأشد صلة بحياة الإنسان

(١) انظر: العقيدة في القرآن الكريم، محمد المبارك، ص٤، دار الفكر، بدون ذكر الطبعة.

وعواطفه فسلك أسلوباً جديداً في عرض العقيدة الإسلامية، وذلك بعد العودة إلى القرآن واستخراج عناصر هذه العقيدة وأسس الإيمان لمعرفة أساليب القرآن الحية والمتنوعة في إيصال الإنسان إلى الإيمان الذي يعيش فيه، حتى تكون هذه العقيدة أساساً فكرياً ومذهبياً لجميع فروع الثقافة الفكرية في المجتمع الإسلامي؛ لتعود الفعالية والحياة إلى الثقافة الإسلامية، وتقوم بدورها الحضاري.

أما عن أهم جهوده -رحمه الله- تجاه هذه العقيدة فقد بين لنا ما دعت إليه آيات الكتاب من حقائق توصل إلى الإيمان بالله تعالى وقسمها إلى:

أ- حقائق كبرى: دعت آيات الكتاب إلى الإيمان بها وهي الإيمان بالله، والإيمان بالأنبياء، والإيمان بالحياة الآخرة.

ب- حقائق ليست مقصودة لذاتها إنما هي وسيلة تدل على الحقائق الكبرى وتابعة لها وتشتمل على مشاهد الكون بكل أنواعها.

وقد بين -رحمه الله- أنه عند الجمع بين هذين النوعين من الحقائق فإننا نخرج بفكرة شاملة وهي وجود الخالق سبحانه وتعالى، ووجود العالم المخلوق (الكون والإنسان)، ووجود الصلة بين الخالق والكون، وبين الخالق والإنسان، وبين الكون والإنسان، وسوف نعرض لتفاصيل ذلك من خلال الصفحات التالية.

المطلب الأول : الدعوة إلى الإيمان بالله :

يذكر المبارك -رحمه الله- أن كثيراً من آيات الكتاب تدعو إلى الإيمان بالله، منطلقة من الإنسان نفسه، ومن الكون الذي يعيش فيه، فتناولت هذه الآيات أولاً قضية بداية الخلق أو النشأة الأولى كما يسميها القرآن، وثانياً قضية تنظيم الكون وربط أجزائه بعضها ببعض ليصل إلى خالق هذا الكون ومبدعه[1].

---

(١) انظر: العقيدة في القرآن، ص١١.

وقد يتناول القرآن أولاً قضية بداية الخلق وفصَّل فيها في آيات عدة؛ وذلك لأنها تعتبر من أقوى الأدلة على وجوده سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [١] وبعد أن استعرض وفصّل أجزاء الكون وما فيه من آيات، وكما جاء في الآيات التي تسبق هذه الآية، يذكره بعدها بالموجد والخالق لكل ما يراه في هذا الكون[٢].

وقد جاء عند السعدي في تفسيره لهذه الآية "فتعرفون أن المنفرد بالخلق، أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته"[٣].

ومن الآيات الدالة على الخلق قوله تعالى: ومن آيته إذا يشاء قدير ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [٤].

يقول ابن كثير في تفسير الآية "من آياته الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر"[٥]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [٦].

فكل ما ذرأ وخلق وأوجد في هذا الكون دال دلالة قاطعة على وجوده سبحانه، فكل ذي لب سيهتدي من خلال هذه الآيات إلى وجود موجد وخالق لها.

---

(١) سورة النحل آية (١٧).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٩-٢٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٣٩٠.

(٤) سورة الشورى آية (٢٩).

(٥) تفسير القرآن العظيم ، ص٥٠٥.

(٦) سورة البقرة آية (١٦٤)

أما الأمر الثاني الذي ينطلق بنا القرآن منه ليوصلنا إلى الخالق فهو تنظيم هذا الكون وربط أجزائه بعضها ببعض وفقاً لسنن وخطط إلهية، واستدل على ذلك بعدة آيات منها قوله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾[1].[2]

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية "الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم"[3].

وقال تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾[5]

ويبين لنا أيضاً -رحمه الله- أن في هذه الآيات، التي يلفت القرآن فيها نظر الإنسان إلى ما في الكون من حسن تدبير ودقة تنظيم، إشارةً إلى عدة خصائص كل منها توصل الإنسان إلى الخالق المقدر منها، فيذكرها على النحو التالي:

أ-خلق الكثرة من الوحدة والوحدة من الكثرة كما في الآيات التالية:

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[7].

---

(١) سورة فاطر آية (١٣).

(٢) انظر العقيدة في القرآن، ص١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ص٢٨٠.

(٤) سورة الزمر ة اية (٥)

(٥) سورة الأنعام اية(٩٥)

(٦) سورة النحل الآية (٦٦)

(٧) سورة النور الآية (٤٥)

ب- الخلق عن طريق النمو الذاتي كخلق الإنسان قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1]

ج- الخلق المنتقل من طور إلى طور بانتظام واطراد. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾[2] وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[3]

د- ترتب أمر على آخر أو حدوث أمر عقب حدوث أمر آخر بانتظام مستمر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾[4] وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[5] [6]

فكثيرة هي الآيات التي تدل على تنظيم الخالق لهذا الكون وربط بعضه ببعض. والمتأمل في هذا النظام وهذا الترتيب على تلك الصورة يدرك أن وراء هذه الدقة من هو أعظم منها، ووراء هذا الصنع صانعاً دقيقاً جليلاً.

أما طريقة نداء القرآن للإنسان، لكي يؤمن بالله وبالحياة الآخرة، فكانت تبدأ بالكون، ويقول المبارك عن هذه الطريقة: "ولكن القرآن الكريم حين خاطب الإنسان ودعاه إلى هذا الإيمان انطلق به من الكون الذي يعيش فيه ومن نفسه.

---

(١) سورة النحل الآية (٧٨)

(٢) سورة الحج الآية (٥)

(٣) سورة الروم الآية (٥٤)

(٤) سورة النبأالآية (١٤)

(٥) سورة النمل الآية (٦٠) .

(٦) انظر: العقيدة في القرآن الكريم، ص٢٤-٢٦.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [1]. ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْـَٔافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [2].

ولذلك تكرر في القرآن الكلام عن الإنسان نفسه، والكلام عن الكون ومشاهده على أنهما طريق للوصول إلى ما وراءهما. ولذلك كان لابد لنا من السير في هذا الطريق نفسه، ولابد لنا من معرفة موقع الكون والإنسان في عرض القرآن الكريم، والنظرة التي يوحي بها، ويوجه إليها في هذا المجال، لما لها من نتائج هامة في تكوين العقلية الإسلامية" [3].

المطلب الثاني: صفات الكون من خلال القرآن الكريم :

إن هذا الكون وما يشتمل عليه من سماء وأرض ونجوم وجبال،وبحار وأنهار وليل ونهار لم يوجد نفسه،ولم يوجد عبثاً إنما أوجده الله الذي قصد هذا الإيجاد، وجعله مسخراً للإنسان وميداناً لنشاطه يستخدم فيه طاقته وإمكاناته للانتفاع به، وهذه المنفعة ستؤول في النهاية إلى تحقيق عبادة الله وإقامة شرائعه في مجتمع الإنسان ، فقد استعرض القرآن من خلال آياته هذا الكون وما يتصف به من صفات تدل على بديع صنع الخالق عز وجل،فذكر لنا المبارك -رحمه الله- هذه الصفات التي وردت في كتاب الله على النحو التالي :[4]

١) الشمول:

حيث رأى أن آيات الكتاب تعرض الكون شاملاً بكل ما فيه على وجه العموم، ولا تقتصر على منطقة معينة أو جزء محدد من هذا الكون، واستشهد بآيات عدة تعرض

---

(٣) سورة الذاريات آية (٢٠- ٢١).

(٤) سورة فصلت آية (٥٣).

(٣) نظام الإسلام العقيدة والعبادة، محمد المبارك، ص ٣٦- ٣٧، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط: ٤، ١٣٩٥هـ.

(٤) انظر نظام الإسلام العقيدة والعبادة. ص٣٨ ـــ ٤٤ وانظر: العقيدة في القران الكريم ص١٢ ـــ ١٧ .

الكون أحياناً مفصلاً بكل ما فيه من سماء وأرض وشمس وقمر وكواكب وبحار ونبات وإنسان وحيوان، كما في أوائل آيات سورة النحل، وتعرضه أحياناً بإيجاز شامل وتعبير جامع كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

وتعرض أحياناً أخرى مشاهد معينة من هذا الكون، وتشير إلى جانب العظمة في خلقه وإبداعه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

وقد تجمع بين الشمول والتفصيل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3]

٢) الحركة والجريان والتبدل:

يمتاز هذا الكون بالحركة والجريان والتبديل والتغيير، حيث تجري فيه من المتغيرات والأحداث ما تجعله يتبدل ويتغير وذلك بحكمة منه سبحانه. قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف آية (١٨٥).

(٢) سورة الزمر آية (٢١).

(٣) سورة البقرة اية (١٦٤)

(٤) سورة يس آية (٣٧- ٤٠).

وقد جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآيات "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار" من الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار، هذا بظلامه، وهذا بضيائه، وجعلهما يتعاقبان يجيء هذا فيذهب هذا ، فيذهب هذا ويجيء هذا" (١). "وقرأ ابن مسعود وابن عباس "والشمس تجري لا مستقر لها" أي لا قرار لها ولا سكون بل هي سائرة ليلاً ونهاراً لاتفتر" (٢) .

٣) الانتظام:

حوادث الكون يرتبط بعضها ببعض بانتظام واطراد، فالشمس تظهر في النهار، والنجوم والقمر في الليل، والماء ينزل من السماء ويجري في الأرض، وذلك بتقدير العزيز الحكيم بحيث لا يطغى شيء في هذا الكون على شيء. كذلك يرى المبارك – رحمه الله –أن القرآن ينبهنا إلى ما في هذه السنن المطّردة في حوادث الكون والقوانين المنتظمة في الطبيعة من صفات كيفية كاختلاف الألوان والأشكال والتشابه وعدم التشابه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (٣). وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤)
وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ (٥)

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ص٣١٢

(٢) المرجع نفسه، ص٣١٤.

(٣) سورة فاطر آية (٢٧).

(٤)سورة الأنعام اية(٩٩)

(٥) سورة المؤمنون اية(١٨)

٤) الكمية:

إن القرآن إذ يعرض الطبيعة في هذا الانسجام والانتظام والإحكام يشير إلى فكرة الكمية، ويلفت النظر إلى ما في الطبيعة من مقادير محسوبة ونسب رياضية قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا﴾ (٣)

٥) التصنيف:

عرضت آيات الكتاب الطبيعة مصنفة في أنواع مختلفة تشترك في صفات تجمعها، وتفترق في أخرى تميزها، وأن في هذا الكون أصنافاً وأنواعاً متعددة من مخلوقات الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (٤).

وقد قال مجاهد في تفسير هذه الآية "أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال قتادة الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة" (٥). وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦)

---

(١) سورة الرعد آية (٨).

(٢) سورة الحجر اية(١٩)

(٣) سورة الإسراء (١٢)

(٤) سورة الأنعام آية (٣٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ص١٧٣.

(٦) سورة النور اية (٤٥)

٦) معقولية الكون:

حيث جعل القرآن هذا الكون موضوعاً للتفكير ومسرحاً للتأمل، واستعمل الحواس، ليدركه بعقله، ويصل إلى كثير من حقائقه.

فهذا الكون الذي خلقه الله سبحانه وأبدع خلقه هو مناط للتفكير، والتأمل والتدبر في ملكوت الله، حيث إن الله ذكر صفاته وكررها في كثير من آيات الكتاب المبين، من أجل دعوة الإنسان إلى التفكر في مجرى حوادثه، ليقوده ذلك التامل والتفكير إلى وجود الخالق والمدبر لهذا الكون بهذه الطريقة العجيبة التي نراها.

وبعد أن أثبتت لنا آيات الكتاب ما يتصف به هذا الكون وما يدور في أفلاكه، ينبغي أن نؤمن بحقيقة هذه الآيات ولا يقف إيمان المؤمن عند هذه المحسوسات التي يشاهدها في الكون؛ إنما يتعداها إلى الإيمان بخالق هذه الطبيعة والمتصرف فيها كيف يشاء، وأن هذا الكون دليل قاطع على وجوده سبحانه وتعالى.

إن صلة الله عز وجل بهذا الكون صلة وثيقة حيث إنه سبحانه موجده، ومبدعه وقائم عليه، ويبين المبارك -رحمه الله- أن الله في العقيدة الإسلامية بالنسبة إلى الكون خالق لأصل وجوده ومقدر لسننه ونظامه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ وما دام هو الخالق له فهو المالك له والمتصرف به والقادر على توسيعه وزيادته ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وعلى إبادته وفنائه، وما دام هو الموجد لسننه وقوانينه فهو كذلك الحاكم ببقائه كذلك واستمراره والقادر على إلغائه وتبديله ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. فالناظر إلى الكون يرى أنه منتظم لا فوضى فيه، ولكن انتظامه مرتبط بإرادة الله وقدرته، واستمرار هذا النظام منوط كذلك بمشيئة الله العليا، فكل تعليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعليل ناقص، لأن القانون واقع يحتاج إلى تعليل، وليس القانون موجداً للحادثة من العدم ولا يتصف بالوعي

الهادف، وكل افتراض لقوة كامنة أو خفية إن صح فهو ناقص يحتاج إلى تعليل هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة. ولذلك كان الإيمان بالله الخالق متمماً ومكملاً لنظرتنا إلى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور ومن سنن وقوانين، فهي محتاجة إلى وجوده مفتقرة إلى استمراره وإمداده وعنايته، مؤتمرة في مسيرها وكيانها بأمره ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1].

المطلب الثالث: صفات الإنسان من خلال القرآن :

بما إن الإنسان أحد مخلوقات هذا الكون فهو يشارك هذه المخلوقات في بعض الصفات، ويتفرد عنها بصفات خاصة؛ فيرى المبارك أن الله عز وجل خص الإنسان بصفات ذكرها في كتابه، فبين لنا -رحمه الله- هذه الصفات كما جاءت:

١) يشارك التراب في أصل خلقته وعناصر تركيبه وتكوينه، فقد أثبتت الدراسات العلمية أن هناك توافقاً وتطابقاً بين تركيب جسم الإنسان وبين أجزاء التراب. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[2]. وقال تعالى: والله خلقكم من تراب إلى على الله يسير ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[3].

٢) أنه يشارك النبات في كثير من الصفات وله صلة به حيث يشاركه في النمو. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[4].

---

(١) انظر :نظام الإسلام العقيدة وا لعبادة، ص٥١-٥٢.

(٢) سورة الروم آية (٢٠).

(٣) سورة فاطر آية (١١)

(٤) سورة نوح آية (١٧).

٣) كذلك يشارك الحيوان في كثير من الصفات مثل التناسل، النمو، حاجته إلى الطعام، والشراب، فهو نوع من أنواع الحيوان. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [(١)].

قال مجاهد في تفسير هذه الآية (أمم أمثالكم) أصناف مصنفة تعرف بأسمائها[(٢)].

وقال السدّي: (أمم أمثالكم) أي خلق مثلكم[(٣)].

وقال الزجاج (أمم أمثالكم) في الخلق، والرزق، والموت، والبعث، والاقتصاص[(٤)].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [(٥)]

٤) يتميز كذلك بجانب روحي، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [(٦)]. فهذه الروح جعلت له قدراً من التكريم حيث إن الله أسجد له ملائكته، وكذلك مع هذه الروح جعل الله عزوجل له عقلا مميزًا، وفكرا نيرًا، وخلقا سويا سما بها عن سائر المخلوقات قال تعالى: (الذي خلقك فسواك فعدلك).

ومع وجود عنصر العقل والروح أصبح مكلفاً، وكانت حياته اختباراً وابتلاء؛ ومن هنا كان الإنسان الطبيعي السوي غير الشاذ هو الذي تنمو فيه كل عناصر تكوينه: من تركيبه وغذائه، إلى غرائزه باعتباره حيواناً، إلى حواسه وعقله، إلى روحه السامية؛ فلا يطغى جانب على جانب، ولا يعنى بجانب ويهمل الآخر، على أن تكون هذه العناصر أو الجوانب مرتبة بترتيبها المتصاعد في الترابية، فالحيوانية، فالعقلية، فالروحية، وذلك هو

---

(١) سورة الأنعام آية (٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم ص١٧.

(٣) المرجع السابق ص١٧.

(٤) فتح القدير ص٦٤٤ .

(٥) سورة النور آية (٤٥)

(٦) سورة الحجر آية (٢٩)

الإنسان الكامل، وهو الذي تكمل فيه الجوانب كلها، ولكن الترابية فيه خادمة للحيوانية، وحيوانيته خادمة لعقله، وعقله خادم لروحه، وعلى هذه النظرة يبني الإسلام نظامه الأخلاقي والتربوي [(1)].

أما عن صلة الإنسان بالكون فتظهر هذه الصلة في كثير من آيات الكتاب. وقد بين المبارك هذه الصلة من خلال وصف آيات الكتاب المبين في نقطتين :

١- صلة الاستثمار والانتفاع والتسخير لمنافعه ومصالحه.

٢- صلة الاعتبار والتأمل والتفكير في الكون وما فيه.

فصلة الانتفاع والتسخير والاستثمار يوضحها القرآن الكريم حيث لا يذكر جزءاً من هذا الكون إلا ويشير إلى ما فيه لهذا الإنسان من منافع. قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(2)]. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [(3)].

أما صلة الاعتبار والتأمل والتفكير فنجد آيات الكتاب تدعو الإنسان إلى التأمل والتفكير إما بالإشارة أو القول الصريح. أما بالإشارة فقد قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [(4)].

---

(١) انظر: نظام الإسلام العقيدة والعبادة ص ٥٦ .، وانظر: العقيدة في القرآن ص ١٧-١٩.

(٢) سورة النحل آية (٥-٧)

(٣) سورة النحل آية (١٤)

(٤) سورة الجاثية آية (١٢) .

وأما القول الصريح في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.[2]

كذلك يرى المبارك –رحمه الله– أنه وإن كان يراد من هذه الآيات الاعتبار والاهتداء إلى الخالق سبحانه وتعالى إلا أنه في أثنائها إشارة إلى حوادث هذا الكون وانتظام أجزائه.

كذلك يؤيد هذا الاتجاه في جعل الكون محلاً للتفكير، واستخراج حقائقه عن طريق الحواس والعقل السنة النبوية حيث هناك أحاديث تؤيد ذلك ومنها حديث تأبير النخل. (عن موسى بن طلحة عن أبيه، قال: مررت مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بقوم على رؤوس النخل. فقال: "ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلقحونه. يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح. فقال –رسول الله صلى الله عليه وسلم–: "ما أظن يغني ذلك شيئاً " قال: فأخبِرُوا بذلك فتركوه. فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: "إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظناً. فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً، فخذوا به. فإني لن أكذب على الله عز وجل"[3].

فيبين المبارك - رحمه الله - أن الواضح من هذا الحديث أن أمور الزراعة وما يشبهها من الأمور الكونية، والأعمال المتعلقة بالطبيعة موكول أمرها إلى الإنسان، إلى تجربته وعقله، وهذا توجيه جديد في تاريخ الإنسانية وتاريخ الدين نفسه، ولا شك أن هذا الاتجاه في جعل شؤون الطبيعة ومعرفة حقائقها ومعالجة صناعتها وزراعتها موكولاً إلى عقل الإنسان

---

(١) سورة السجدة آية (٢٧)

(٢) انظر: نظام الإسلام العقيدة والعبادة ص٥٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من معايش الدنيا على سبيل الرأي، (٦٠٦) برقم (٢٣٦١).

وتجربته اتجاه عظيم جداً وله نتائج وآثار عظيمة. وقد كان له فعلاً في تاريخ الحضارة الإسلامية، ثم تاريخ الحضارة الإنسانية عامة، أكبر النتائج. فالإسلام هو الذي شق الطريق وفتح هذا الباب، سواءٌ نظرنا إلى الأديان السابقة أم إلى الفلسفات ومناهج التفكير. وليست الحضارة الحديثة ومكاسبها الكبيرة في كشف آفاق كثيرة من الطبيعة واستثمار هذه المكتشفات من المخترعات النافعة إلا نتيجة مباشرة لهذا الاتجاه، وإتماماً للطريق التي سارت فيها الحضارة الإسلامية في مجال النظر إلى الطبيعة والبحث فيها. والمخطط لهذا الاتجاه والفاتح لهذا الطريق هو ما تضمنه القرآن وأيدته السنة من موقف الإنسان أمام هذا الكون وتحديد صلته به في إطار نظرة الإسلام العامة إلى الوجود[1].

وبذلك يتجلى لنا استخلاف الله عز وجل للإنسان في هذه الأرض، وإعطائه القدرة على استثمارها، والانتفاع بما فيها، والنظر والتأمل والتفكير في حوادثها وسننها وأسرارها حتى يستطيع أن يسخر هذا الكون لخدمته، وذلك بعد تسخير الله -عز وجل له -.

فبعد أن بينا الصلة بين الإنسان والكون الذي يعيش فيه نريد أن نبين الصلة بين الناس وبين خالق هذا الكون وموجده.

فعندما دعا الله عز وجل إلى التفكر في هذا الكون والتأمل في ملكوت السموات والأرض لم يجعل العقل يقف عند هذا الحد من التأمل ويكتفي به، بل تعدى ذلك إلى التفكير في خالق هذا الكون، وصانع هذه المعجزات، ومدبر هذا النظام على تلك الهيئة من الدقة وجمال التصوير، فكلما زاد التأمل وطال التفكير زاد الاهتداء إلى هذا الخالق، فكانت الصلة به أقوى والارتباط به أشد، فصلة الإنسان بخالقه هي صلة الضعيف

---

(١) انظر :نظام الإسلام العقيد والعبادة ، ص ٦٣- ٦٤.

بالقوي الذي يحتاج إلى هذه الصلة في كل حين ليستمد منها القوة، فهي صلة ليست ككل الصلات بل تفوقها وتتعداها.

ويبين- رحمه الله- أن صلة الإنسان بالله هي نهاية جميع الصلات، والغاية التي ترتقي إليها فهي أعلى منها جميعاً، فصلة الإنسان بأهله وأسرته وعشيرته وقومه وبني جنسه من البشر، وبماله ومسلكه المادي والمعنوي، إن هذه الصلات كلها مخلوقة لله متفرعة عن الصلة به؛ لذلك كانت الصلة بالله هي العليا من هذه الصلات وهي الحاكمة عليها دون أن تلغيها. لذلك كانت الصلة بالله صلة فريدة من نوعها لا تشابهها ولا تماثلها صلة أخرى فهي صلة عبودية وليست كذلك الصلات الأخرى[1].

كذلك يضع المبارك -رحمه الله- معانٍ متعددة لهذه الصلة بين الإنسان وخالقه هي:

١-الاعتراف بالخالق سبحانه وتعالى، فهو المبدع الذي كل شيء بيده وتحت قبضته لا يتم أمر في هذا الكون إلا بحكمته ويستشعر الإنسان عظمة هذا الخالق وقوته وسعة ملكه فيكون اعتماده القلبي عليه واستعانته به.

٢-الاعتراف بعظيم قدرة الله وعظيم سلطانه وقوته، مما يولد لديه الخوف منه وطاعته والخضوع له والرضا بما قسم وبما حكم.

٣-الاعتراف بنعمه وخيراته وأفضاله التي لا تعد ولا تحصى، ومقابلة ذلك بالشكر والحفظ لهذه النعم لتدوم.

٤-الشعور بمدى رحمة الله بمخلوقاته، ومحاولة التعرض لهذه الرحمة والتأمل في نيلها بطاعة الله والأعمال الصالحة.

٥-استشعار الإنسان بمسؤوليته أمام الله وأنه مسؤول عن كل ما يقوم به من خير وشر وصغير وكبير قال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾[2].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص ٦٦.

(٢) سورة القمر آية (٥٣).

٦-التوجه إليه بالدعاء والاستغفار والتوبة، وحصر هذا الدعاء به سبحانه، وعدم إشراك معه غيره. قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[(١)].

٧-حب الله عز وجل فهو مصدر الوجود والنعم والرحمة، وجعل محبته تفوق كل محبة، وفوق محبة الناس والمال والولد.

٨-التفكر في آيات الله وتذكره في كل وقت واستحضار صفاته، فذلك من أعظم الصلة بين الإنسان وربه[(٢)].

المطلب الرابع : طريق القرآن في دعوة الإنسان للإيمان بالله :

يتخذ القرآن عدة طرق ليصل بالإنسان إلى الإيمان بالله: وتتلخص هذه الطرق في الآتي:

أ-يبين المبارك -رحمه الله- أن أول هذه الطرق يظهر من خلال آيات الكتاب التي يخاطب الله عز وجل تارة بها عقل الإنسان فيقنعه ويقدم له الدليل عليها بأسلوب جذاب، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[(٣)][(٤)].

---

(١) سورة الجن آية (١٨).

(٢) انظر: نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ص٦٣-٦٤.

(٣) سورة الواقعة الآية (٥٧- ٧٤).

(٤) انظر: العقيدة في القرآن الكريم، ص٣١

وقد جاء في تفسير هذه الآيات أن الله ذكر فيها أربعة أدلة كونية تدل على قدرته ووحدانيته:[1]

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ البرهان الأول.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ البرهان الثاني.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ البرهان الثالث.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ البرهان الرابع.

فتارة أخرى يستخدم سبحانه وتعالى أسلوب الأسئلة والإجابة عنها ليقنع الإنسان بالدليل القاطع مما لا يدع مجالاً للشك لديه، وغيرها كثير من آيات الكتاب التي تسلك هذا الطريق لتصل بالإنسان إلى الإيمان بالله.

أ-الأسلوب الآخر، مخاطبته بالأسلوب المنطقي الذي يمتزج بالأسلوب العاطفي ويستثيره عن طريق منافعه ومصالحه وحاجاته وملذاته، وعن طريق قضاياه ومشكلاته وذلك ليثير اهتمامه ويعطشه إلى معرفة الحقيقة[2].

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝٨١ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٢ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[3].

---

(١) انظر: التفسير الواضح الميسر، محمد علي الصابوني، ص١٣٦٣، دار الأفق للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ط: ١؛ ١٤٢٢هـ.

(٢) انظر: العقيدة في القرآن الكريم، ص٣٥.

(٣) سورة النحل آية (٨٠- ٨٣).

وذكر -رحمه الله- أن القرآن أخذ الإنسان من مواطن اهتمامه في هذا الكون ومظان منفعته، ونقله منها إلى الخالق المنعم، فأكسبه بذلك القناعة بمنطق العقل، والشعور بصلته بالمنعم ليخامر إيمانه النفس فكراً وعاطفة[1].

ب-كذلك القضايا الاجتماعية وصل الإنسان من خلالها إلى الإيمان بالله، وفي مقدمة هذه القضايا تحرير الإنسان من العبودية للبشر في المجالين السياسي والاقتصادي، حيث وردت آيات عدة في كتاب الله تنفي الألوهية عن البشر وتقرها لله سبحانه. وذلك في مثل قصة فرعون الذي قال﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾[2].قال تعالى:﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3] وأيضاً التحرر من العبودية للبشر في المجال الديني حيث بينت آيات الكتاب ما تدعو إليه من عقيدة صحيحة وأن ما سواها من عقائد باطلة، حيث استعرضت آيات الكتاب اليهودية والنصرانية والوثنية والدهرية، فناقشهم القرآن وبين العقيدة الصحيحة من بينها ورد على كثير من أفكار أهل الشرك والمدّعين على الله بغير علم . قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4]كذلك المقارنة بين العقيدة الصحيحة والعقائد الأخرى حيث ناقش القرآن أصحاب هذه العقائد ليبرز بذلك العقيدة الصحيحة التي يقبلها العقل السليم والمنطق

---

(١) انظر: المرجع السابق ، ص ٣٦- ٣٧.

(٢) سورة القصص آية (٣٨).

(٣) سورة القصص اية (٨٨).

(٤) سورة التوبة اية (٣١).

السديد حيث رد القرآن على كثير من أفكارهم قال تعالى ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ رداً على اليهود الذين زعموا أن الله قد استراح بعد خلق السموات والأرض في اليوم السابع، وكثيرٌ الأمثلة على ذلك [1].

المطلب الخامس : الإيمان بالأنبياء :

معنى النبي في اللغة:

النبي في اللغة: ما ارتفع من الأرض.

والنّبيّ: العَلَم من أعلام الأرض التي يُهتدى بها، وقال بعضهم: ومنه اشتقاق النبيّ لأنه أرفع خلق الله، وذلك لأنه يُهتدى به، والنَّبيُّ هو الذي أنبأ عن الله[2].

أما الأنبياء (جمع نبي ويمد مهموزاً فيقال نبيء كما هي قراءة ورش عن نافع في جميع القرآن)[3].

معنى النبي في الاصطلاح:

النبي في الاصطلاح: (ذكر من بني آدم أوحى الله تعالى إليه بأمر فإن أمر بتبليغه إلى الناس فهو نبي ورسول، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي غير رسول وبهذا يظهر الفرق بين كل من النبي والرسول، وهو أن الرسول من أمر بإبلاغ ما أوحي إليه، والنبي من أوحي إليه بشيء ولم يؤمر بإبلاغه لاختصاصه به دون غيره من الناس؛ وعليه فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً) [4].

أما المبارك فقد عرف الأنبياء بأنهم (أفراد من البشر هداهم الله إلى الصراط المستقيم واصطفاهم واختارهم وأرسلهم لهداية الناس وليكونوا لهم قدوة،فقد ورد في القرآن:

---

(١) انظر :العقيدة في القرآن الكريم، ص٣٧-٣٨.

(٢) انظر :لسان العرب مادة نبا ص٣٠.

(٣) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، ص٢٩٦.

(٤) المرجع السابق، ص٢٩٦.

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [1] [2]
وعليه فإن الرسل هم المخبرون عن عالم الغيب الذي لا تدركه الأبصار، فيوصلون الحقائق التي قد يصل العقل أو يقصر عن الوصول إليها، فمن خلالهم نهتدي إلى الخالق سبحانه وتعالى، ونؤمن به فهم المبلغون لهذا الدين والداعون إليه، قال تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [3]. قد خصهم الله عز وجل بوظائف يقومون بها دون غيرهم؛ لأن الله قد اختارهم لهذه الوظائف، فيبين المبارك -رحمه الله-

أهم وظائف الرسل -عليهم الصلاة والسلام-:

١- تحرير البشر من عبادة الطبيعة إلى عبادة الله وحده. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [4]. فلو لم يكن هناك أنبياء لظل الإنسان يتخبط في هذه الحياة دون مرشد.

٢- الإخبار عن الحقائق الأخروية، مثل مسؤولية الإنسان أمام الله في الحياة الآخرة. قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [5].

٣- هداية الناس إلى طريق الخير وتحذيرهم من الشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور في الإيمان والعقيدة والأخلاق والسلوك.

---

(١)سورة الحج اية (٧٠) .

(٢) نظام الإسلام العقيدة والعبادة ص٩١ .

(٣) سورة النساء آية (١٦٥).

(٤) سورة الأنبياء آية (٢٥).

(٥) سورة الزمر آية (٧١).

فهم بشر ولكن الله عز وجل عصمهم، فقد جعلهم الله أحد الطريقين التي تصل بالإنسان إلى معرفة حقائق الوجود، وذلك بعد طريق العقل الذي يدرك به العالم المحسوس عن طريق التفكر والتأمل.

فجعل الرسل طريقاً ثانياً للوصول إلى حقائق العالم الغيبي، ولكن مهمة هؤلاء الأنبياء لا تغني عن تطور ذلك العقل ولا تقدم العلم؛ لأن العقل يبقى طريقاً للتصديق والاقتناع وأداةً للتحقيق والمراقبة.

وطريق هؤلاء الرسل في الوصول إلى عالم الغيب، كما ذكر المبارك رحمه الله هي الطريق التي عبّر عنها القرآن بالوحي، وهذا أبلغ تعبير لأن الناس لا يستطيعون أن يدركوا حقيقة هذه العملية الروحية التي تتصل بعالم الغيب.

فمعنى الوحي كما ذكر علماء اللغة : (الإعلام الخفي السريع) فهو ليس كما يظن السطحيون أنه من نوع الخواطر النفسية والإلهامات الفكرية، بل هو حادثة روحية من نوع خاص لا نستطيع إدراك كنهها، ولكننا نرى أثرها ونتائجها، وقد دلت عليها آيات الكتاب وأحاديث المصطفى -صلى الله عليه وسلم- . قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [1] [2]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [3] .

---

(١) سورة الشورى آية (٥١- ٥٢)..

(٢) انظر: نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ص٩٠-١٠٢

(٣)سورة الشعراء اية (١٩٢ــ١٩٣)

أما الأحاديث في الوحي فهي: عن عائشة -رضي الله عنها- أن الحارث بن هشام سأل الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ قال: (أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس وهو أشد عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول) قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[1].

فرسل الله الذين أختارهم الله عز وجل وخصهم بوحيه يتصفون بصفات ودلائل تدل على صدقهم، **فذكر المبارك – رحمه الله- دلائل صدقهم وهي:**

١-أن يكون الناقل صحيح العقل سليم التفكير بعيداً عن التوهم والتخيل والتخريف.

٢-أن يكون معروفاً بالصدق والأمانة في نقل الأخبار وحسن السيرة، ولو عارض ذلك مصالحه ومنافعه كما كان النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي كان يعرف قبل البعثة بالصدق والأمانة حتى لقب بالصادق بالأمين .

٣-وأيضاً من دلالة صدق الأنبياء "المعجزة"، حيث إن الله عز وجل أيدهم بها وأطلعهم على ما لم يبلغه أبناء عصرهم من أسرار هذا الكون، وحوادثه الجارية على سننها الطبيعية، ولكنها خافية على غيرهم من البشر، فهذه المعجزة ممكنه عقلاً، وتصلح أن تكون دليلاً على صدق اتصال بعض البشر بالقدرة الخالقة المهيمنة، وحجةً على الناس لتصديق ما يقولون ودليلاً على النبوة، والرسالة. ومن ذلك ما أيد به موسى -علية الصلاة والسلام- من معجزة العصا ومن معجزة يده التي تخرج بيضاء للناظرين، وما أيد الله به عيسى -علية الصلاة والسلام- في أنه يبرئ الأكمه والأبرص ويُحيى الموتى، وما أيد به يحيى -علية الصلاة والسلام-

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي: برقم(٢)، وبرقم (٢٩٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب عرق النبي صلى الله عليه وسلم في البرد وحين يأتيه الوحي: (٦٠٠) برقم (٢٣٣٣).

حين تكلم في المهد، وما أيد به محمداً -صلى الله علية وسلم- من نبع الماء بين أصابعه، وإشباع العدد الكبير من الناس من طعام قليل، وحادثة الإسراء إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء وغيرها من المعجزات .

فإذا صدّق الإنسان بهذه الدلائل، وعلم أن هؤلاء الأنبياء الذين هم قدوة البشر، رسل الله ومبلغون لأمره، ومخبرون عنه، وقنعت عقولهم بنبوتهم واتصالهم بالله كانت الثقة بما قالوا أوثق من استنتاجات العقل، ولو كان العقل هو الذي أرشد إليه ودل عليه.

ويبين -رحمه الله- أن هناك نتائج للإيمان والتصديق بالنبوة:

أولاً: الإيمان بما يخبر به النبي من غيبيات، أي من موجودات أو حوادث مغيبة عنا، لبعدها في الزمان وحصولها في المستقبل كأحداث القيامة والحياة الآخرة، أو لخفائها عن إدراكنا كالملائكة والجن؛ وإنما يأتي البحث العقلي بعد الإيمان بها لا قبله؛ لأن الإيمان بها استند إلى قناعة العقل بالنبوة أي بطريق الإخبار الإلهي لمن اصطفاهم الله رسلاً للتبليغ.

ثانياً: وجوب تنفيذ ما يأمر به النبي من أوامر وتطبيق ما يشرعه للناس من شريعة مصدرها الوحي الإلهي، ذلك أن الله خالق الإنسان أعلم بما هو الأفضل والأمثل من الخطط في حياة الإنسان، فإذا ثبتت نبوة النبي وثبت الكلام الذي يبلغه وحياً عن الله وفهم هذا الكلام على وجهه المقصود، لم يعد ثمة مجال لوقوف العقل موقف الاختبار والتقويم والتخطئة والتصويب، وإنما يستطيع أن يقف موقف المتأمل لاستنتاج الحكمة وقد يخطئ العقل في ذلك وقد يصيب، أو موقف الباحث عن مدلول الكلام ووجهه المقصود وغايته وهدفه[1].

---

(١) انظر: نظام العقيدة والعبادة ص١٢٦-١٢٧.

المطلب السادس: الإيمان بالحياة الآخرة:

يعد الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان التي يلزم كل من آمن بالإسلام ديناً أن يؤمن به ويصدق ذلك، حيث عرضت آيات الكتاب حقائق هذه الحياة التي سوف ينتهي إليها كل إنسان.

فالحياة الآخرة بالنسبة إلى الإنسان تبدأ بعد موته ومفارقة روحه لجسده وذكر المبارك -رحمه الله- خمس مراحل لهذه الحياة أشارت إليها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

المرحلة الأولى: وهي ما بعد موت الإنسان وقبل يوم القيامة وقد أشار إليها القرآن إشارات خفيفة كالكلام عن الشهداء ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [1].

والمرحلة الثانية: هي التي يحدث فيها اضطراب لنظام الكون، ووصفتها الآيات بانفطار السماء، وتناثر الكواكب، وطمس النجوم وغيرها.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة البعث والإحياء بعد الموت قال تعالى ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [2].

المرحلة الرابعة: مرحلة العرض على الله وإظهار أعمالهم ونصب الموازين قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [3].

---

(١) سورة آل عمران آية (١٦٩).

(٢) سورة الأنعام آية (٣٦).

(٣) سورة الكهف آية (٤٨- ٤٩).

المرحلة الخامسة: مرحلة الجزاء وتتضمن النعيم أو السعادة والعذاب أو الشقاء قال تعالى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

كل هذه المراحل قد أثبتتها آيات الكتاب وبينتها فكان الإيمان بها واجباً، أما طريق القرآن في عرض الحياة الآخرة وإثباتها فقد ذكر المبارك -رحمه الله- **أن للقرآن في إثبات الحياة الآخرة طريقتين عقليتين:**

١) أحدهما: مباشر وذلك يبين إمكان الحياة الآخرة، ويتضمن عدداً من المعاني والأفكار:

ومن هذه المعاني والأفكار:

١- ينبغي أن يلاحظ الإنسان أنه يوجد بعض المخلوقات لها دورات متعاقبة في الحياة، فالنبات يمر بأطوار ومراحل متعددة حتى ينمو ثم يذبل، ثم يكون موسم آخر يظهر مرة أخرى، فلم لا يكون شأن البشر كذلك مع الفارق في الدورة؟

٢- إن الله الذي خلق الإنسان وجعله يمر بمراحل متعاقبة منذ بداية خلقه حتى يهرم يستطيع أن يخلقه في مرحلة تالية بعد موته ويجعله في مرحلة بعد تلك المراحل.

٣- إن من أدلة القرآن في أن الخالق الذي خلق هذا الكون وخلق الإنسان من غير سابق مثال قادر على أن يعيده مرة أخرى في حياة أخرى.

٤- أنه قد ورد تساؤل في القرآن عن حياة الإنسان: أيمكن أن تكون عبثاً وتكون سدى بلا نهاية ولا مسؤولية ولا حساب.

فهذا عرض القرآن للحياة الآخرة، عرضٌ يستسيغه العقل؛ إذ ليس من المستحيل أن تكون للإنسان حياة أخرى؛ لأن الذي استطاع أن يخلق هذا الكون وما فيه لن يعجزه أن يجعل لهذا الإنسان حياة أخرى.

---

(١) سورة الأعراف آية (٣٥- ٣٦).

الطريق الثاني: في إثبات القرآن للحياة الآخرة طريق عقلي غير مباشر هو إخبار الأنبياء عنها بعد أن تثبت نبوتهم.

وذلك أن القرآن دعا إلى الإيمان بالرسل، وأيدهم بالأدلة والمعجزات التي تثبت صدقهم، فبعد أن تثبت نبوتهم، وصلتهم عن طريق الوحي بالله بالأدلة التي يقرها العقل، لم يعد لديهم تردد في قبول ما يأتي عن طريق النبوة، فمما أجمع عليه الأنبياء وجود حياة آخرة بعد هذه الحياة.

وهكذا عرض القرآن الحياة الآخرة عرضاً يقنع العقل بطريق مباشر وآخر غير مباشر ورد على كل من أنكر البعث والحساب. قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ [1].

فالإيمان بهذا اليوم وهذه الحياة الآخرة له أثره الأعظم في حياة البشر. فيبين المبارك -رحمه الله- أن ذكر الآخرة والاستعداد للحساب والجزاء، يقترن في القرآن مع كل أمر ونهي، ومع كل حكم من أحكام الشريعة، وكل توجيه أخلاقي[2].

ونستنتج من كل ما سبق أن من تمام عقيدة المؤمن أن يؤمن بالله وبرسله، عليهم الصلاة والسلام، واليوم الآخر، وأن ما خلقه الله -عز وجل- من صفات أودعها في هذا الكون وفي هذا الإنسان إنما هي ليتفكر في نفسه وفيما حوله؛ فلن تكتمل عقيدة المؤمن ويسمى مؤمناً إلا إذا آمن بذلك، فإذا اهتدى إلى التفكير الصحيح وصل بذلك إلى الإيمان، وإذا ضل هذا التفكير فسوف يتخبط في دياجي الضلال.

---

(١) سورة الإسراء آية (٤٩- ٥١).

(٢) انظر : نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ص ١٥٥.

المبحث الثاني :

جهوده وإسهاماته تجاه قضايا الأمة والمجتمع المسلم .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اهتمامه بقضايا الأمة الكبرى .

المطلب الثاني : دعوة الشيخ إلى الوحدة الإسلامية وتقوية الروابط بين أفراد الأمة .

المطلب الثالث : عوامل تكوين الأمة والمجتمع المسلم المعاصر.

تمهيد:

يعتبر التغير الفكري من أخطر القضايا التي يعاني منها المجتمع الإسلامي؛ وذلك لشدة تأثير هذا التغير على أبناء الأمة، حيث يسري فيهم سريان النار في الهشيم، فتتبدل معه عاداتهم وتقاليدهم، وثقافاتهم رويداً رويداً دون أن يشعروا فيصبحون متلبسين بكل دخيل دون تفكير، وهنا تكمن خطورة ذلك، إذ من الصعب، والصعب جداً أن يتخلى الناس عما ألفوه واعتادوا عليه، فقد بين القرآن لنا ذلك الأمر من خلال ما واجهه الأنبياء من صعوبات عند دعوة أقوامهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

وقد كان الشيخ محمد المبارك -رحمه الله- من أوائل الذين انبروا للوقوف في وجه ذلك الغزو الفكري والتحدي الثقافي، حيث ساعده على ذلك دراسته في باريس، إذ تعرف من خلالها على دسائس الغرب، ومكامن خطرهم وكيدهم.

وكان -رحمه الله- له من أصالته وخلفيته الإسلامية القدر الكافي الذي حماه من الانزلاق أو من احتوائه، وقد كشف زيف الاستشراق وعمل التبشير ومحاولة التأثير على شباب الإسلام ليعملوا بعد عودتهم تابعين أو خداماً للفكر الغربي[2].

وقد درس -رحمه الله- المجتمع الإسلامي وبين الروابط التي تربط بينه وبين غيره من المجتمعات، كذلك بيّن القضايا الفكرية التي تعرض لها المسلمون، وما أصابهم أيضاً من غزو فكري شامل هدفه القضاء على هوية الأمة الإسلامية، فقد حذر من ذلك وبين خطره وكشف غموضه، وتوجه أيضاً -رحمه الله- إلى

---

(١) سورة البقرة: آية (١٧٠).

(٢) انظر: مجلة البنوك الإسلامية العدد ٢١ ــ صفر ــ ١٤٠٢هــ، ص ٩.

مجال الدعوة الإسلامية وشارك في العديد من مجالاتها ليزيد من وعي الأمة تجاه ما يحاك حولها، ونادى بالرجوع إلى العقيدة الصحيحة، وسلوك الطرق المؤدية إليها، من خلال التأمل فيما خلق الله في الكون من حولنا، وذلك ليبني جيلاً لا يمكن أن ينكسر أمام تلك المغريات، وكل ذلك سوف نتعرف عليه في الصفحات التالية من هذا البحث.

المطلب الأول : اهتمامه بقضايا الأمة الكبرى :

لقد كان له -يرحمه الله- جهوده الملحوظة تجاه قضايا أمته ومشكلاتها، حيث أسهم بقلمه في الكتابة عن كثير من هذه القضايا، وشارك في وضع الحلول المناسبة لها والتي لو عُمل بها لتجنبت الأمة الولوج في مخاطرها، وكان من أهم هذه القضايا:

١- قضية التيارات الفكرية.

٢- قضية المرأة المسلمة.

٣- قضية الثقافة الإسلامية.

١. التيارات الفكرية:

نتيجة لظروف عصر الانحدار واتصال أوربا بالحضارة الإسلامية في الأندلس وصقلية، ظهرت التيارات الفكرية التي كان لها دعاتها ومؤيدوها الذين يخلطون بينها وبين الإسلام، فتصدى -رحمه الله- لهذه التيارات وظهرت جهوده في التعريف بها وإظهار الأسباب التي أدت إلى ظهورها وانتشارها، ثم بين موقف الإسلام منها، وأول هذه التيارات:

أ- التيار العقلي، أو ما يسمى بالعقلانية:

والعقلانية: نسبة إلى العقل، لأن أصحاب هذا التيار بالغوا في تقديس العقل وتعظيمه واتخذوه إلهاً، وديناً لهم(١).

(١) مذاهب فكرية معاصرة، د غالب العواجي ص٦١٧،المكتبه العصريه الذهبيه،جده للطباعة ط:١، ١٤٢٧هـ.

وقد نشأ هذا التيار بعد اتصال أوربا بالحضارة الإسلامية، حيث أخذوا من هذه الحضارة الجانب العقلي والمادي، ولم يأخذوا الجانب العقدي والروحي الخلقي، فقامت أوربا على أساس العقل وحده، وإهمال الجانب الروحي من الإنسان، وإهمال التعاليم الإلهية وما تضمنته من المُثل العليا والقيم الخُلقية وقامت بذلك نهضة علمية عقلية، لا تصاحبها نهضة خُلقيه، واتخذوا العقل للحكم على الحقائق كلها الغيبية والحسية، وجعلت الحواس والتجربة وسيلة للوصول إلى الحقائق.

وكان من نتائج هذا التيار: اتخاذ الرفاهية المادية، وإشباع الشهوات وتحقيق الملذات، وجعلها غاية للإنسان، فكانت النتيجة إقصاء الإسلام وعزله عن توجيه الحياة الفكرية والثقافية، وإقصاءه كذلك عن توجيه الحياة السياسية في مفاهيمها وقيمها، وفي اتجاهاتها ومواقفها في الأحداث الداخلية والدولية وفي تشريعاتها ونظمها، وتم ذلك برفق ولطف حتى لا يشعر أحد بخطره ونتائجه السيئة[1].

ب- الديمقراطية:

كلمة يونانية في أصلها، ومعناها: سلطة الشعب أي حكم الشعب نفسه بنفسه عن طريق اختيار الشعب لحكامه. وهي الكذبة التي كان يرددها النظام الشيوعي[2].

وعرفها -رحمه الله- بأنها: "نزعة تقابل الاستبداد الفردي، واحتكار طبقةٍ أو أسرةٍ الحكمَ والسيادة"[3].

كان السبب الرئيس لانتشار هذا التيار أنه جاء كردة فعل لاستبداد الملوك والطغاة والأسر الحاكمة والطبقات المستعلية ورجال الدين المستأثرين

---

(١) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر ص١٠٩-١١٢.

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة ص٧٦١.

(٣) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص٨١.

بالنفوذ، فكانت إشراكاً للشعب أو أكبر عدد منه في الحكم، أو تعويض فريق منه بممارسة الحكم[1].

أما موقف الإسلام من هذا التيار فيقول -رحمه الله-: إننا لا نستطيع أن نقول: إن الإسلام ينافي الديمقراطية أو يعارضها، لأننا بذلك نجعل الإسلام في صف الاستبداد الفردي، ومعارضة الشعب وعدم الإهتمام به، وفي ذلك تشويه للإسلام، وفي المقابل لا نستطيع أن نقول إن الإسلام ديمقراطي على الإطلاق ودون تحفظ، لأن هذا النظام انبثق من فلسفة لا يقبلها الإسلام وقد تتعارض فلسفته ونظريته في كثير من نقاطها، فإذا اعتبرناها مذهباً اجتماعياً قائماً بذاته، فليس لنا أن نقول: إنها من الإسلام وإن الإسلام يقبلها، وإذا نظرنا إليها أنها اتجاه يحارب الفردية والاستبداد، ويسعى في سبيل جمهرة الشعب ويشركه في الحكم فالإسلام بذلك ذو نزعه ديمقراطية أو أن له ديمقراطيته الخاصة به[2].

إنه قد يكون للغرب ما يسوغ هذا السلوك، لأنهم ليسوا على شيء، فلم يعرفوا من النظم إلا هذا النظام الذي اكتشفوه وخرجوا به، لعدم معرفتهم بما هو أفضل منه، وهو الشرع الحنيف الذي أكمله الله ورضيه لنفسه ولعباده ديناً وسلوكاً[3].

وبناءً على ذلك نقول إن المتمكن من سبر غور هذا النظام يجد أنه بعيد كل البعد عن النظام الإسلامي، حيث الفروق بينه وبين النظام الإسلامي جلية، ليس المقام هنا لتفصيلها. ولكن الإسلام يمقت هذا النظام والحكم ويصفه في كتابه بالجاهلية. قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[4].

---

(١) انظر: المرجع نفسه ص٨١.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص٨٢-٨٤.

(٣) انظر: مذاهب فكرية معاصرة ص٧٧٨.

(٤) سورة المائدة آية (٥٠).

لأن الإسلام قائم على الشورى والعدل في السياسة والحكم، وليس على الحريات الكاذبة.

ج- الاشتراكية:

عرفها -رحمه الله- بأنها: إشراك جميع أفراد الشعب في المنافع والمصالح وعدم استئثار فئة من الناس بالمنفعة، وتدخل الدولة في تقييد الفعاليات الاقتصادية، كتحديد حقوق الملكية وثمارها، تقييداً يؤدي إلى العدالة في توزيع الثروة وإلى تكافؤ الفرص بين الناس بحيث يعيشون على مستوى من الحياة يؤمن لهم الحاجات الإنسانية المادية والمعنوية(١).

وقد انتشر هذا الإتجاه في مقابلة طغيان الرأسمالية في أوربا واستئثار أصحاب رؤوس الأموال الأخذ بالمذهب الحرفي الاقتصادي، الذي يعطي للأفراد الحرية المطلقة في المجال الاقتصادي، ولا يسمح للدولة أن تتدخل، ولو أدى ذلك إلى طغيان طبقة على طبقة، أو إلى نشوء طبقة فقيرة محرومة(٢).

أما عن الفرق بين هذا النظام، وبين الإسلام ، وموقفه منه: فيجب ألاّ نغفل أولاً أن للأنظمة السياسية، والاقتصادية، في كل بلد، وفي كل حضارة أسساً اعتقادية تبنى عليها، وليست هذه الأنظمة إلا تعبيراً سياسياً، أو اقتصادياً لتلك الحضارة، فاتخاذ الاشتراكية عنواناً لحضارة، وصفةً بارزة مميزة لدولة مبنيٌّ على فلسفة تَعتبر الإنتاج محور الحياة، والمادةَ أصل الوجود؛ فنحن بذلك نجر الناس إلى أن يجعلوا هدفهم الأول في الحياة، رفع مستوى الحياة المادية وتحسين المعيشة، دون أن يكون لرفع مستوى الأخلاق والقيم الروحية أي مكان في حياتهم وفي نظامهم، فنترك بذلك فراغاً لشتى العقائد

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص٨٥.

(٢) انظر: المرجع نفسه ص٨٥.

الإلحادية، والمذاهب المادية والإباحية، بينما لو نظرنا إلى النظام الإسلامي وجدنا أنه يبنى على أساس عقيدة الإيمان بالله والمساواة بين الناس أمامه؛ لأنهم من أصل واحد وهم عباده، وتنبثق عن هذه العقيدة ومعانيها حركة اجتماعية غايتها إقامة العدل بين الناس وتحقيقها من الناحية الاقتصادية بحيث لا يعيش فريق في البذخ والترف، وآخرون في الشقاء والحرمان، بل تأخذ الدولة من أموال الأغنياء ما تسد به حاجة الفقراء والعاجزين عن الكسب، فللناس حقوق في المال ولو كان خاصاً، وعليه فإن الاشتراكية لا تصلح أن تكون العنوان الشامل المعبر عن نظام الإسلام ودولته وحضارته، ولكن في الإسلام من جهة أخرى ما يقابلها ويحقق الأهداف المشروعة منها، فالمهم أن نحفظ للإسلام خصائصه وذاتيته بحيث لا يلتبس بغيره، وأن نعرف كيف ننقله للآخرين، ونميز بينه وبين المذاهب الأخرى[1].

د- التيار القومي:

القومية: هي إحدى النعرات الجاهلية التي أصيبت بها الإنسانية، وهي دعوة تفرق بين الناس وتشتت شملهم، وتنمي النخوات الفارغة بينهم، ويصبح المتمسكون بها قد أخذتهم العزة بالإثم، ولم تظهر لجمع الكلمة ولا لطلب مرضاة الله، إنما للدعوة إلى التفلت من الدين[2].

وقد ظهر هذا التيار نتيجة لتطور الفكرة الوطنية التي ظهرت في القرن (الثامن عشر الميلادي) التي كانت الرابطة فيها بين الشعوب هي رابطة الانتماء إلى الأرض والوطن، فانتقلت الرابطة نتيجة لهذا التيار القومي إلى رابطة العرق والجنس والقوم، وفي مقدمة الشعوب التي شعرت بهذا الشعور الشعب

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص٨٦-٩١.

(٢) انظر: المذاهب الفكرية المعاصرة ص٩٠٧-٩٠٩.

الألماني الذي تقوم نظرته للقومية على جعلها مثلاً أعلى، واتخاذها هدفاً للحياة، وغاية للوجود، واعتبار العلم، والفلسفة، والأدب، والفن في خدمة القومية، أما الدين ومُثُله وقيمه فليس إلا جانباً من جوانب القومية، وقد تفردوا بهذا التفكير المتطرف، نتيجة لظروف خاصة بهم، منها : حقد الشعوب المحيطة بهم عليهم، وخاصة فرنسا، وشعورهم بالتفوق الفكري والصناعي على غيرهم من شعوب أوروبا[1].

وعن اتخاذ القومية ديناً، يقول المبارك- رحمه الله-: لقد أخذت الفكرة القومية أشكالاً وصيغاً مختلفة، فكانت شعوراً طبيعياً في بداية الأمر، لا يتجاوز شعور الإنسان بالانتساب إلى أسرة معينة، أو قبيلة، أو نسب، وهي بذلك أمر طبيعي لا يتعارض مع الأخلاق، والعقيدة، والدين، ثم اشتد هذا الشعور في نطاق ظروف معينة، بدأت من رد الفعل عند العرب مثلاً تجاه العصبية التركية، واشتدت في عهد الاستعمار الفرنسي، والإنكليزي في بعض البلاد العربية واتخذ من هذا الشعور شكل مذهب، أو خطة سياسية هدفها توحيد البلاد العربية، وتحريرها وكانت تمهيداً لمرحلة خطيرة هي اتخاذ القومية عند أبناء الشعوب الإسلامية من عرب وأتراك وأكراد وغيرهم مبدأ بل عقيدة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة[2].

ومما زاد انتشار هذا التيار ما يبثه أبناء المسلمين المتعلمين في الغرب من أفكار مسمومة أدت إلى بروز القومية العربية في البلاد العربية والإسلامية التي ترتكز على وحدة الأمة، ووحدة التاريخ، وإقصاء الدين، وكان على رأس هؤلاء الدعاة:

---

(١) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر ص١١٣-١١٤.

(٢) انظر: المرجع السابق ص١١٩.

ساطع الحصري[1]، الذي سعى إلى ربط العرب بالقومية بدلاً عن دينهم، وأظهر نفسه بمظهر الغيور على مجد العرب، وكان دائماً يثير الحماسة في نفوس العرب، ويبشرهم بأن النصر سيكون في النهاية للقومية، وأنها ستكون الرباط الوحيد بين الشعوب، وليس الإسلام الذي يدعو إلى التعصب، وقد تأثر أبناء المسلمين بهذه الدعاوي المغرضة، وبين المبارك – رحمه الله – أطوار تأثر المسلمين بهذه الفلسفة القومية:

١- دراسة كثير من الطلاب العرب والأتراك في ألمانيا، وتأثرهم بالثقافة الألمانية والفلسفة القومية التي كانت قائمة، فنقلوا هذه الثقافة إلى المجتمع الإسلامي.

٢- نهضة الشعوب التي تؤلف الدولة العثمانية بسبب اتصالهم بالحضارة الغربية، فتولد لديهم الوعي الذي اقترن بالشعور القومي عند الأتراك والرغبة في الاستعلاء فحدث بينهما تنافس أشعر كلاً منها بذاتية القومية، وأيقظ العصبية.

٣- وجدت الدولة الأوروبية في القومية إضعافاً للرابطة الإسلامية فأثارت العصبيات القومية، واتخذت القومية أساساً لإقامة المجتمع.

---

(١) ساطع الحصري: نصيري رافضي باطني عدو للإسلام، وصف نفسه بأنه فيلسوف الفكرة القومية العربية، عالم بالتربية والتاريخ، وواحد من دعاة الوحدة العربية، من أصل سوري، ولد باليمن، كان والده قاضياً، درس بسورية وتركيا وفرنسا انضم إلى الحركة العربية التي استهدفت استقلال العرب ووحدتهم، التحق بحكومة الأمير فيصل بسورية، ثم رحل إلى العراق وهنا نظم التعليم، اشترك في إحدى ثورات العراق واضطر إلى مغادرة البلاد، انتدب أستاذاً للتربية بمعهد التربية بالقاهرة، ومستشاراً في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وضع أسس معهد الدراسات العربية العليا، وأنشأ مكتبة جامعة في شتى حقوق الدراسات والبحوث العربية، له مؤلفات وبحوث كثيرة، أهمها: (دراسات عن مقدمة ابن خلدون)، و (القومية العربية)، و (حوليات في التربية والثقافة).انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص٩٤٤، لشفيق غربال، بدون ذكر الطبعة ودار النشر.

٤- كان للماسونية[١] أثرها الواضح في انتشار القومية في البلاد الإسلامية، حيث فتحت المجال في أوروبا لعقد الاجتماعات لتقوية الشعور القومي مقابل الشعور الإسلامي.

٥- رأى بعض البعيدين عن الإسلام من أبناء العروبة أنها الطريق المؤدية إلى إزالة التنافر والوحدة والعصبية بين أبناء العروبة. ولم يذكروا خطورة نتائج ذلك بالنسبة للعرب، حيث ينتهي إلى إزالة القاعدة الخلقية الروحية التي يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي[٢].

أما موقف الإسلام من القومية: فالقومية بمعناها الحديث المتطور الذي يتخذها ديناً، ويقوم على إثرها التعالي والتفاخر وتشتيت الشمل فقد حرمها الإسلام وهو منها براء، كما حرم من قبل العصبية القبلية. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ ﴾[٤].

أيضاً نجد في حديثه صلى الله عليه وسلم، ما يحرم مثل هذه العصبيات والشعارات الجاهلية، قال صلى الله عليه وسلم: "ما بال دعوى أهل الجاهلية"، وفي رواية: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم"[٥].

---

(١) الماسونية: هي منظمة يهودية، سرّية، إرهابية، غامضة، محكمة التنظيم تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإلحاد، والإباحية، والفساد، أعضاؤها من الشخصيات المرموقة في العالم، يوثقهم عهد بحفظ الأسرار. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، د. مانع بن حماد الجهني، ص٤٤٩. دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط:٥ ، ١٤٢٤هـ.

(٢) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر ص ١١٦-١١٧.

(٣) سورة الحجرات آية (١٠).

(٤) سورة الحجرات آية (١١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٥١٨) كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية (٦٧٥).

ويضيف المبارك -رحمه الله- إلى موقف الإسلام من القومية:" إن الإسلام لا يدعو إلى إزالة القوميات باعتبارها أمراً واقعياً بل إنه يدعو إلى التعاون بينها والالتفاف حول مبدأ يسمو فوقها جميعاً، ويجمع بينها، وهذا المبدأ هو وحدة الأصل البشري، والمساواة بين البشر على اختلاف قومياتهم، وفي العبودية له، ومسئولياتهم تجاهه، وتحملهم أمانة الاستخلاف الإلهي التي كرمت بني آدم، والسعي لتنفيذ التعاليم التي جاء بها الإسلام وهو آخر وحي إلهي منزل، والتي تدور لا على العصبيات بل على الحق والعدل والخير وسائر القيم الخلقية الرفيعة التي يتساوى البشر أمامها ويمكن أن يتعاونوا على أساسها" [(١)].

٥- التيار الماركسي الشيوعي:

ظهر هذا التيار في أوربا في نهاية " القرن التاسع عشر وبداية العشرين الميلادي" على يد كارل ماركس الذي تنسب إليه العقيدة الماركسيه، حيث وضع أفكارها ومعتقداتها، التي تقوم على إنكار وجود الله وكل الغيبيات، والقول بشيوعية الأموال وإلغاء الوراثة، والتحريض على الصراع والعنف وإثارة الحقد والضغائن وقد قام هذا التيار كردة فعل للرأسمالية من الوجهة الاقتصادية، ولقلب الأنظمة التي يشكون منها، والثورة عليها[(٢)].

وبين لنا المبارك – رحمه الله – خطر هذا التيار على الأمة الإسلامية في الاتي:

١- فك ارتباط الشعوب الإسلامية والعربية بعضها ببعض، وفك ارتباطها أيضاً بالإسلام، وذلك لتربطها بالتيار الماركسي والعقيدة الشيوعية.

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر، ص١٢٢-١٢٣.

(٢) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص١١٦.

٢- تحويل معاركنا الإسلامية العامة، بل الخاصة مع كل شعب من الشعوب الإسلامية، إلى معارك مع الدول الرأسمالية، وذلك لتخدم نفوذ الدول الشيوعية.

٣- محاربة الإسلام باعتباره ديناً وأخلاقاً وقيماً روحية، وإحلال الماركسية محله[1].

وأما موقف الإسلام منها: فهو ضد كل مذهب فاسد، ولا يمكن أن يجتمع الإسلام والماركسية في قلب رجل واحد، لأنهما متناقضان كل التناقض في العقيدة والفكر والمنهج والسلوك، فكل مذهب ناقض الإسلام وحاربه فالإسلام منه بريء[2].

هذا وتعتبر هذه التيارات الفكرية التي ابتليت بها الأمة الإسلامية شراً قد أحاط بها خطره، ولا يزال مستمراً، حيث يصل إلينا بأساليب وأشكال مختلفة، لم يسلم من شرها بيت مسلم إلا ما رحم ربي.

ويضع رحمه الله علاجاً موجزاً لصد خطر هذه التيارات عن الأمة الإسلامية ويتمثل في:

١- صياغة العقائد والمبادئ الإسلامية صياغة مركزة مستمدة من الكتاب والسنة تتناسب في طريقتها مع البيئة الفكرية المعاصرة، دون أن تغير في المحتوى والمضمون، وتقف هذه الصياغة أمام المذاهب العقدية الحديثة، وعدم الاكتفاء بكتب ألفت لغير هذا العصر.

٢- إبراز الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والتربوية التي تنبثق من العقيدة الإسلامية، بحيث تتميز معالم الإسلام في هذه المجالات، لتنهار أمامها الأنظمة الأخرى المتولدة من تلك المذاهب العقدية.

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ١٢١-١٢٥.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ص٩٢٤.

٣- عدم إثارة معارك جزئية بين المسلمين المثقفين، والعناية بكليات العقائد أكثر من جزئياتها.

٤- التخطيط لنشر الإسلام باعتباره مذهباً عقدياً متميزاً تتفرع عنه أنظمته الاجتماعية والخلقية في جميع مواد التعليم وخاصة العلوم النظرية.

٥- اتخاذ وسائل الإعلام وسيلة لنشر هذا التخطيط والدعوة إليه، واعتبار دوائر الإعلام مراكز عقدية لا يدخل فيها إلا كل من يتحقق فيه الإيمان بالمبدأ الإسلامي والوعي والثقافة الإسلامية.

٦- التنسيق بين خطط وزارات التربية والجامعات ووزارات الإعلام لتحقيق الأهداف السابقة المرجوّة منها[١].

وبعد الحديث عن هذه التيارات الفكرية يظهر لنا عداءه -رحمه الله- لها من خلال جهوده في بيان خطرها، والتحذير منها فيما كتبه عنها، وما رسمه من حلول لقطع هذا الخطر لعله يجد له صدى طيباً في أبناء أمة الإسلام.

ويوضح لنا رأيه ذلك بقوله: ليس الهدف مما أقول أنه لا محل عندنا لحب الوطن وحرية الإنسان التي هي عنصر من عناصر المذهب الأول، وليس معزى ما أقول كذلك أننا لا نعترف بوجود الشعوب وقومياتها، وبالدفاع عن كيانها وحقوقها، ولا يفهم كذلك من نقد الماركسية الإعراض عن حل مشكلة الظلم السياسي أو الاقتصادي أو السكوت عنها؛ فإن الإسلام الذي ندين به لا يقبل منا مثل هذا السكوت، ولكن ليس هذا الموضوع موضوع الكلام عن طريقتنا الإسلامية في حل هذه المشكلة، كذلك إن موقفنا العقائدي من هذه المذاهب لا يعني عداءنا حتماً للدول التي تدين بها، فالعلاقة السياسية

---

(١) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص ١٢٨-١٢٩

والاقتصادية مع هذه الدول تخضع لاعتبارات أخرى من جهة المسالمة والمحاربة ومن جهة التعامل والتجارة[1].

٢. المرأة و الأسرة:

كذلك من القضايا التي اهتم بها المبارك قضية المرأة والأسرة، حيث إنه – رحمه الله- رأى أن مثل هذه الموضوعات ضرورة ملحة، خاصة في مثل هذا الوقت الذي اشتعلت فيه شرارة الحرب على المرأة، وصوب الأعداء إليها السهام، فكثر الحديث حول تحريرها وفك قيودها التي يرون أن الإسلام قد كبلها بها، وأصبح هذا الحديث صداه يصم الآذان، فهي القضية التي في نظرهم لم يجدوا لها حلاً وكأنهم حلوا مشكلات البشر، فكرسوا كل الجهود، وسهروا الليالي لدراسة أوضاعها، وخاصة في البلاد الإسلامية، ليس من أجل علوها ورفع شأنها كما يزعمون إنما من أجل إفسادها وتحللها من دينها وقيمها ومبادئها، وجعلها لقمة سائغة يسهل وصولهم إليها متى أرادوا، فنادوا بخروجها من بيتها من أجل العمل أو الوظيفة والتعليم، فوصلت إلى ما نراه اليوم من إقحامها في مجال السياسة والحكم، ومجالس الشورى ودخولها في مجال الرياضة وتشكيل الفرق الرياضية، كذلك في مجال الفن والطرب والمجون، فأصبحت نتائج هذا الخروج أكثر من أن تحصى ، حيث أصبحت الحياة الاجتماعية في الأسرة لا تطاق، فكثر الطلاق والتفكك الأسري، وانتشر الزنا، وكثر اللقطاء.

ويرى المبارك – رحمه الله – أن العالم اليوم يعيش بين نظامين للحياة الاجتماعية المتعلقة بالأسرة والمرأة والحياة الجنسية، أحدهما يقوم على العفة وحصر الحياة الجنسية في نطاق الأسرة، أو الحياة الزوجية، ويترتب عليه عدم الاختلاط وعدم إثارة الغرائز في السوق والشارع عن طريق عري المرأة وتبرجها. والنظام الآخر نظام الإباحية

---

(١) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر ، ص١٢٦- ١٢٧.

الجنسية وعدم حصرها في الأسرة، وعدم التفريق بين تحقيق الحياة الجنسية في صورة حياة زوجية أو علاقة زنا.

وتنشأ في مثل هذا النظام عادات سيئة مثل تزين المرأة ولبس الألبسة المثيرة، واختلاط النساء بالرجال، وفسح المجال لخلوة الرجل بالمرأة مدة طويلة ومتكررة، ونشوء الجيل في مثل هذه الأجواء المثيرة (١).

فبعد أن أخرجوها أمروها بالمساواة مع الرجل ليس في الحقوق والواجبات إنما في كل شيء، فكان ذلك من الأمور المستحيلة؛ لأن بين كل منهما اختلافات في أصل الخلقة الإلهية من الناحية الجسدية، والنفسية، والعقلية، وقد خلق الله كلاً منهما وهيأه لوظيفته التي تتناسب مع فطرته التي فطره الله عليها، وفي دعوتهم تلك قلب لهذه الفطرة السليمة يترتب عليها إفساد المجتمعات ناهيك عن فساد الأسر؛ لذلك كلما عرف كلٌ من الرجل والمرأة دوره في الحياة والتزم به كانت حياتهم وأسرهم أكثر استقراراً وكان المجتمع أكثر صلاحاً. يقول المبارك - رحمه الله- "إن تطور الحضارة وارتقاءها من بعض الجوانب يسير في اتجاه إظهار الفروق بين الأفراد وازدياد التخصص والتنوع وبالتالي اختلاف توزيع الأعمال بحيث إن المجتمع، أي مجتمع كان، كلما كان أرقى كان الأفراد فيه أبعد عن التماثل والتشابه وأقرب إلى تنوع الشخصية واختلاف الاختصاص؛ بحيث إن تضامن المجتمع وتكامله ينشأ من اختلاف الصفات والمزايا، فلكل فرد مزية ليست في الفرد الآخر، وكل واحد يتمم الآخر ويكمله، ولو كانا متماثلين لما احتاج أحدهما إلى الآخر ولا كان مكملاً له بل مكرراً. وعلى هذا الأساس العام نفسه يقوم التعاون بين الرجل والمرأة في المجتمع، بل إن مبدأ التكامل المتولد عن التنوع والتخصص أظهر هنا منه في أي مجال آخر. فالبشرية تتكون من (أزواج) لا من (أفراد) والمجتمع الذي

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، ص١٧٣-١٧٤.

يتساوى فيه الأفراد في المزايا والخصائص وفي الخبرة والمعلومات وبوجه خاص يتساوى فيه الرجل والمرأة في نوع العمل والخبرة هو مجتمع ابتدائي، وكلما كان التنوع في الخبرة والمزايا والخصائص واختلاف في الخبرة والمعلومات أكثر وأعمق، كان ذلك المجتمع أرقى " [1].

كذلك يؤيد هذا القول في التزام المرأة بما يتناسب معها من أعمال، والابتعاد عن مخالطة الرجال وطلب المساواة معهم، نساء الغرب أنفسهن، حيث شهد شاهدٌ من أهلها؛ وذلك لأنهم قد اكتووا بنار تلك الحرية المزعومة، فتقول إحدى الكاتبات الغربيات: " لأن يشتغل بناتنا في البيوت خير وأخف بلاءً من اشتغالهن في المعامل، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد. ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة تتنعم المرأة بأرغد عيش، تعمل كما يعمل أولاد البيت ولا تمس الأعراض بسوء. نعم إنه لعار على بلاد الإنكليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال ، وسلامة شرفها " [2].

وتقول أخرى:

" إن الاختلاط يألفه الرجال وقد طمعت المرأة فيه بما يخالف فطرتها، وعلى قدر كثرة الاختلاط، تكون كثرة أولاد الزنا، وهنا البلاء العظيم على المرأة .

فالرجل الذي علقت منه يتركها وشأنها تتقلب على مضجع الفاقة والعناء وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد من الحمل وثقله والوحم ودواره، أما آن لنا أن نبحث عما يخفف إذا لم نقل عما يزيل هذه المصائب السائدة بالعار على المدنية الغربية؟..

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٧.

(٢) (نهاية المرأة الغربية بداية المرأة العربية)، لعبد الله بن زيد آل محمود، ص٧٤، نقلاً عن مجلة المنار، المجلد الرابع مقاله تحت عنوان (الرجال والنساء) ص ٤٨١، دار الشروق، ط: ٢، ١٤٠٢هـ.

يا أيها الوالدان، لا يغرنكما بعض دريهمات تكسبها بناتكما باشتغالهن في المعامل ومصيرهن إلى ما ذكرنا.

علموهن الابتعاد عن الرجال، أخبروهن بالكيد الكامن لهن بالمرصاد. لقد دلنا الإحصاء على أن البلاء الناتج من حمل الزنا أنه يعظم ويتفاقم حيث يكثر اختلاط النساء المشتغلات في المعامل والخادمات في البيوت، ولولا الأطباء الذين يعطون الأدوية لإسقاط الحمل لرأينا أضعاف ما نرى الآن. لقد أدت بنا هذه الحالة إلى حد من الدناءة لم يكن تصورها في الإمكان حتى أصبح رجال مقاطعات بلادنا لا يقبلون المرأة زوجة شرعية، وهذا غاية الهبوط بالمدنية. انتهى".[1]

لذلك كان حكم الإسلام في تقسيم الأعمال بين الرجل والمرأة من أعظم ما يتناسب مع الأسرة المسلمة حيث تحتفظ المرأة في ظله بكرامتها، وتقوم بدورها خير قيام وفي المقابل يقوم الرجل بما عليه من واجبات ومن أعمال تخص الرجال، دون أن تزاحمه المرأة عليها، فبين المبارك رحمه الله أن أروع وأجمل ما قيل في تلخيص وظيفة المرأة الأساسية الحديث "خير نساء، ركبن الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده"[2] [3]

وقد وضع – رحمه الله – بعض الحلول المناسبة لكي يقوم المجتمع على أساس العفة والإحصان وسلامة الأسرة والحياة الزوجية وتتمثل في:

---

(١) المرجع السابق ص٤٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب إلى من ينكح وأي النساء خير وما يستحب أن يتخير لنطفه من غير إيجاب: (١٠٠٨) برقم (٥٠٨١) وبرقم (٤٩٤٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل نساء قريش: (٦٤٦) برقم (٢٥٢٧) وبرقم (٤٥٩١).

(٣) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص١٨٠ ــ ١٨١ .

١) اتخاذ تدابير عملية من جهة، والقيام بتهذيب خلقي من جهة أخرى، ولا بـد مـن اجتماع الأمرين معاً وذلك بحصر الغريزة في نطاق الحياة الزوجية وعـدم إثارتهـا خارج هذه الحياة، ويقتضي ذلك تنشئة العادات المتعلقـة باللبـاس المحتـشم غـير المثير، وتحديد الصلة بين الرجال والنساء، ومنع اختلاطهم إلا في حـدود ضـيقة، وكذلك منع الخلوة بين الرجل والمرأة.

٢) أن مـوضوع المـرأة والرجل لا يـنبـغي النـظر إليه من جهة التـفـضيل والمساواة، إنمـا هـو موضـوع اخــتلاف في الخـصائص يقــتــضي اخــتلافاً في التخـصص والعـمل، ويقـتـضي تـوزيع الأعمـال بحسب الاسـتعدادات والحقائق وذلـك ما أخذ به الإسلام.

٣) كــذلك يـجــب أن يـراعــي أن بـيــن الـرجــل والـمــرأة اخـتـلافــاً فــي الـتـركيـب العـضوي، والتكـوين النـفـسي يـنـشأ عنـه اخـتلاف في الـصـفات والخـصائص والمــزايا، فيـجــب توزيـع الأعمــال بمــا يـتــناسب مـع هـذه الخصائص المتـنوعة المخـتلـفة[١].

٣. الثقافة الإسلامية:

وهي من القضايا التي عرض لها المبارك – رحمه الله – لأن الثقافـة بالنـسبة للأمـم تعتبر التراث الفكري والحضاري الـذي يمتـد تـأثيره عـلى تكوينهـا الخلقـي والعقـدي والفكري، ولهذا السبب لم يتغافل أعداء الإسلامي عندما أطلقوا سـهامهم، عـن جعـل ثقافة الأمة الإسلامية من أوائل المصابين بهذه السهام، مـن أجـل الـسيطرة عـلى الفكـر الإسلامي، بل الهوية الإسلامية عموماً وجعلها في إطار التبعية الغربية؛ ويصبح الإسلام بذلك مقوداً بعد أن كان قائداً، ونجد في كتاب الله تحذيراً وتنبيهاً على عدم الوقوع في مثل

---

(١) انظر: المرجع نفسه ص١٨٢-١٨٥.

هـذه التبعيـة، قـال تعـالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾[2].

فالغزو الثقافي يعتبر من أهم ما واجهته الأمة الإسلامية، فقد أقض مضجع المبارك -رحمه الله- ما رآه وعاصره من هذا الغزو على ثقافتنا الإسلامية، فحمّل نفسه مسئولية الدفاع عنها، أو توضيح خطر هذا الغزو. وذلك من خلال ما كتبه عن قضية الثقافة الإسلامية، وقد قسمت هذه القضية إلى ثلاثة مراحل، وفقًا لما عرض له – رحمه الله – في هذا الموضوع. وأما مراحل قضايا الثقافة فهي كالآتي:

أولاً: مرحلة نشأة الثقافة الغربية :-

بدأت الثقافة الغربية حيث انتهت ثقافتنا الإسلامية، فشيدوا بناءهم على ما أقمناه من معارف وعلوم، وتعاهدوا غراسهم حتى أينع وأثمر، وأصبح ما بنوه صرحاً يقصده أبناء الإسلام أنفسهم.

فكان ذلك بعد الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية " أي منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي" حيث تمكن الاستعمار الغربي النصراني من السيطرة سيطرة تامة على المسلمين في وسط آسيا وشرقها، واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسية في إفريقية، كما تمكن من مد نفوذه إلى قلب العالم الإسلامي ومركزه الرسمي في منطقة الشرق الأدنى. وبذلك طوّق العالم الإسلامي من الشرق والغرب وسلّط ألاعيبه ودسائسه على بقية التجمعات الإسلامية الأخرى بين هذين الطرفين، فوهنت هذه التجمعات، وانحل عقدها، وسقط بعضها إثر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربي.

---

(١) سورة البقرة آية (١٠٩).

(٢) سورة النساء آية (٤٤).

وما جاءت الحرب العالمية الأولى وانقضى أجلها، حتى أصبح العالم الإسلامي كله تحت نفوذ هذا المستعمر[1].

ومع استعمار الأرض، اُستعمرت العقول والأفكار، حيث نقل لنا المستعمر ثقافته المشوهة، التي كان لها أعظم الأثر في نفوس أبناء الإسلام الذين نشؤوا بين أحضان تلك الثقافة وشربوا من كأسها المسموم، "والأفراد في كل مجتمع من المجتمعات يتشربون – منذ أن تتفتح عيونهم على الحياة- ثقافة الأمة التي يعيشون فيها، وتؤثر هذه الثقافة في تكوينهم الفكري والعقدي والخلقي، ويندمج الفرد بذلك في مجتمعه، وتتكون عاداته وتقاليده شيئاً فشيئاً، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) [2]" [3].

وذكر المبارك – رحمه الله – أن هذه الثقافة التي تشربها المجتمع الإسلامي كان السبب الأول لبروزها عدة عناصر تفاعلت وتباينت، وهي العنصر اليوناني، والعنصر الروماني والعنصر النصراني، وكذلك العنصر الإسلامي الذي قدّم لها عدة علوم واكتشافات ومنهجاً تجريبياً، فتقدمت بذلك في كثير من العلوم والاختراعات نتيجة لتفاعل هذه العناصر، وأحرزت نتائج عدة[4].

وبين أيضاً – رحمه الله- أنه نشأت نتيجة لهذه الثقافة الغربية مذاهب فكرية جديدة، وفلسفات مشتركة تتفق جميعاً على إنكار الإله الخالق

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهيَ، ص٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين(٢٦٨) برقم (١٣٨٥) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٦٧٥) برقم (٢٦٨٥).

(٣) نحو ثقافة إسلامية أصيلة، ص٢٣.

(٤) انظر: بين الثقافتين الغربية والإسلامية، ص٦٤، دار الفكر، بيروت، بدون ذكر الطبعة، ١٤٠٠هـ.

والنبوات، وتجحدها وتنكر الحياة الآخرة، ولا تعتبر الفضائل والأخلاق إلا في حدود تصويرها، فكان خطر هذه الثقافة يكمن في أن جميع العلوم النظرية والإنسانية والأنظمة الاجتماعية انبثقت من الأسس الفلسفية لهذه الثقافة، وهذه الفلسفة تحمل تصورات وأفكاراً خطيرة قد بثتها في كثير من مجالات العلوم والمعرفة، فعلم النفس صوّر الإنسان ذا غرائز وميول مادية، وعلم الاجتماع بُني على أساس أن الدين ظاهرة اجتماعية حسيّة كغيرها وأن الإله فكرة تعللها كل نظرية اجتماعية على طريقتها؛ على أساس أنها فكرة طارئة في حياة البشر، لا على أساس أنها حقيقة خارجية.

كذلك الأخلاق بنيت على النسبية والواقعية، فلا مثالية ولا فضائل إلا باعتبارها واقعاً، وأصبحت تدرس باعتبارها فرعاً من فروع علم الاجتماع.

والتاريخ كذلك يصور تاريخ الحضارة المادية للإنسان في الدرجة الأولى، ويضع في الدرجة الثانية الأديان وتاريخها، وينظر إليها على أنها ظواهر إنسانية اجتماعية، وفصلوا أيضاً الحقوق والتشريع عن الدين.

أما النظم الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية وغيرها فقد بنيت على المفاهيم الأساسية للثقافة الغربية وعلى فلسفتها على اختلاف تفرعاتها. حيث إن النظام الديمقراطي بني على أساس حرية الإنسان المطلقة التي لا تعتبر بالأخلاق أو الدين إنما مراعاة الأكثرية.

والنظام الشيوعي قائم على تأليه الإنسان في صورة جمهور لا فرد، بل في صورة هيئة حزبية تقيم نفسها مقام الوكيل النائب عن الجمهور، فينشأ عن ذلك استبداد وبطش وتسلط لا حد له(1).

---

(١) انظر: المرجع نفسه، ص٧٠-٧٣.

ثانيًا: مرحلة الالتقاء بالثقافة الغربية:

إن هذه الثقافة بكل ما رأيناه فيها من فساد أخذت في الزحف إلى بلاد الإسلام، والتقت بثقافتنا الإسلامية، المصابة بالجمود والتفكك، فكان أبناء الإسلام في ذلك الوقت فاغري الأفواه، حيث بهرهم ذلك البريق القادم، فدخلت هذه الثقافة واعتلت عرش الدول الإسلامية المستعمرة، وأخذت تحرك العقول والأفكار كيف تشاء.

فقد ذكر لنا المبارك الطرق التي انتشرت من خلالها هذه الثقافة.

أ) البعثات الخارجية منذ ابتدأت في عهد العثمانيين، حيث تكوّن من هؤلاء المبتعثين طبقة المدرسين الأولين وأساتذة الجامعات، حيث نقلوا تصورات الثقافة الغربية وأفكارها وعاداتها ومفاهيمها.

فنرى أن البعثات الخارجية قد عظم شرها، وخاصة في هذه الأوقات، حيث نجد كثيراً من البلدان الإسلامية، تضع ذلك في قائمة الأولويات، وخاصة البلاد المعروفة بالمحافظة وتطبيق الشريعة، حيث تزج بأبنائها في هذا المستنقع، وخاصة الطلبة الذين لا يزال عودهم طرياً يحتاج إلى تقويم، فيعودون وقد انتكست فطرهم وغُيرت مفاهيمهم.

ب) المدارس الأجنبية والتبشيرية المؤسسة في البلاد الإسلامية، كالكلية الإنجليزية في بيروت، والجامعة الأمريكية وغيرها.

ج) الأساتذة الأجانب الذين استقدموا إلى البلاد الإسلامية.

د) اقتباس مناهج التعليم في مختلف المواد من مناهج التعليم الغربي.

هـ) نشأت نتيجة لذلك طبقة من المثقفين الذين تأثروا بالثقافة الغربية وأخذوا يدعون إلى اتجاهاتها المعارضة للإسلام.

وبذلك فرضت الثقافة الغربية سيطرتها وأصبحت ثقافة المستعمر هي الثقافة المتطلّع إليها، وغيرها قد مضى عليه العهد ولم يعد يجدي نفعاً[1].

يقول أبو الأعلى المودودي[2]– رحمه الله – هذا هو أعظم ظلم مارسه الاستعمار في حقنا، أما النظام التربوي الذي كان يوجهنا إلى ديننا، ويربطنا بتقاليدنا، ويوطد صلتنا بحضارتنا عاد نظاماً مرفوضاً لا يجد سوقاً رائجة. ولأجل ذلك فإن أي فرد من المسلمين كان يتوق إلى التقدم صار يرغب عنه وينبذه وراء ظهره، ويتلهث وراء النظام الحديث الخلاب، فكان لهذا التحول آثار بعيدة الأغوار في مجتمعنا. وما لبث أن مال إلى هذا النظام التربوي النخبة الممتازة من هذه الأمة، المتمثلة في ذوي الثراء والفطانة والنباهة، وفيمن كانوا يتمتعون بقسط وافر من المواهب والحيوية وقوة العمل والتفكير وقابلية التوجيه. إن جميع تلك العناصر الصالحة اندفعت إلى نظام الاستعمار للتربية والتعليم تحت ضغط منطق الظروف. مع العلم أن هذا النظام لم يكن ليبعدنا عن ديننا وتاريخنا وحضارتنا فحسب، بل ليكوّن منا أمة تتقزز من تراثها العقائدي وتنفر من قيمها الحضارية[3].

---

(١) انظر: بين الثقافتين الغربية والإسلامية، ص ٧٥-٧٦.

(٢) أبو الأعلى المودودي (١٣٢١-١٣٩٩هـ) – (١٩٠٣-١٩٧٩م)، هو الإمام الداعية، العلامة، ولد في مدينة أورنج آباد، جنوبي الهند وفي عام ١٩٢١م أصبح رئيس تحرير جريدة (مسلم)، الأسبوعية، وفي عام ١٩٣٢م بدأ إصدار مجلة (ترجمان القرآن) الشهرية التي أصبحت الوسيلة الرئيسية لتوجيه مسلمي شبه القارة الهندية، وانتخب عام ١٩٤١م أول رئيس للجماعة الإسلامية، وقد حوكم وسجن، أسهم في إنشاء جمعية الجامعات الإسلامية كمنظمة دائمة، وفي عام ١٣٩٩م منح جائزة الملك فيصل تقديراً لجهوده في خدمة الإسلام وله عدة كتب ورسائل مترجمة إلى العربية منها: احذروا مخطط اليهود، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، وغيرها. معجم المؤلفين، محمد خير رمضان يوسف ص٨٣-٨٥.

(٣) انظر: الإسلام اليوم، أبو الأعلى المودودي ص٤٢- ٤٣، مطبوعات الجماعة الإسلامية بباكستان، بدون ذكر الطبعة.

ثالثاً: مرحلة واقع الثقافة اليوم:

بين لنا المبارك – رحمه الله – أن النظام الثقافي الحالي في بلادنا الإسلامية تكتنفه ثلاثة أمور[1] :-

١) أنه يسيطر على هذا النظام تفكير غير إسلامي في أسسه ومفاهيمه، سواءٌ عن طريق التعليم في المدارس، أو عن طريق وسائل النشر الأخرى، كالصحف والمجلات والإذاعات، والكتب المترجمة والمؤلفة، حيث إن هذا التفكير غير الإسلامي يتجلى فيه نزعات فكرية تخالف التفكير الإسلامي والعقيدة الإسلامية وأهمها:-

أ- النزعة الإلحادية: بشتى صورها سواء كانت الطبيعة فيها تحتل المكان الأول أم المادة، أم العقل، أم الغرائز وغير ذلك.

ب- النزعة القومية: المغالية التي تتخذ من القومية عقيدة وقيمة عليا وهدفاً أعلى للحياة، وتحصر التفكير والنشاط في إطار القومية، وتتجلى في تدريس المجتمع العربي في كثير من البلاد العربية، وفي مادة التربية الوطنية، وفي الجو المدرسي العام.

إن المتطلّع إلى أحوال الثقافة في البلاد الإسلامية يرى صحة ذلك، فعندما نبحث عنها في مناهج التعليم، قد تكون غائبة إلا النزر اليسير منها الذي لا يروي العطش، ولا يؤدي الغرض، فليس في هذه المناهج ما يثري الفكر، أو يقوي علوم اللغة ويعمقها في أبنائها، كذلك علوم الدين فلا تُدرس المواد التي تهتم بتقوية الإيمان وترسيخ العقيدة، فلو قورنت بما تغرسه هذه المواد من دعوة إلى الفكر الغربي

---

(١) انظر: المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي (واقعها – وعلاجها)، محمد المبارك، ص٥-١١، دار الفكر، بيروت بدون ذكر الطبعة.

الذي قد يكون جلياً في تلك المواد، وقد يكون مدسوساً خلف مفاهيم أخرى، فلا تشكل هذه العلوم إلا القلة القليلة منها.

أما وسائل الإعلام الأخرى من تلفاز وصحافة وغيرها، فما تبثه من الشر، أضعاف ما فيها من الخير، رغم تعددها وكثرتها، فنجده إعلاماً خاوياً، ليس فيه اهتمام بمشكلات الأمة، وقضاياها الفكرية والثقافية، إلا القليل، بالنسبة لما تنشره هذه الوسائل من مواد بعيدة عن ثقافة الإسلام، ففي مجال التلفاز مثلاً، لو تابعنا ذلك، نجد برنامجاً واحداً فقط يعزز الثقافة، بينما هناك مقابل له عشرات البرامج، غير الهادفة، والتي فيها دعوة إلى التغريب والانحلال وذلك عائد إلى سيطرة وكالات الأنباء الأجنبية وتحكمها في ذلك.

كما نجد أن مجال التلفزيون يشهد خللاً شديداً في توزيع الإنتاج، وقد أثبتت الإحصائيات أن أكثر من نصف برامج التلفزيون التي يشاهدها الآسيويون أمريكية الإنتاج والثقافة، ويليها بريطانيا، أي أن ثلثي ما تراه آسيا يأتي من دولتين، فلا نجد أن هناك وسيلة إعلامية واحدة نذرت نفسها لتثقيف المجتمع وزيادة وعيه الفكري. فالناظر إلى إعلام الدول العربية يرى أنه يجنح للإعلام دون التثقيف وبالتالي تغييب الفرص السانحة للثقافة خصوصاً أن المجالس المحلية، أو البرلمانات لا وقت لديها، ولا شهية لشرح أهمية الثقافة، وأن الأوضاع السياسية والاقتصادية تستحوذ على الوقت الأكبر والاهتمام الأوسع لهؤلاء[1].

---

(١) انظر: الإعلام المعاصر قضايا وآراء، فايق فهيم، ص١٦، دار الوطن للنشر والإعلام، الرياض، ط: ١، ١٤٠٦هـ، وقضايا إعلامية، د أحمد عبد الملك، ص٤٣، دار المجد الأولى للنشر، عمان، ط: ١، ١٤٢٠هـ.

٢) نجد في نظامنا الثقافي، أن تعليم الدين في المداس العامة الرسمية أو الخاصة التي تحتذيها، في البلاد العربية يؤلف رقعة صغيرة غير منسجمة في مجموع النظام التعليمي، **ونوضح ذلك في النقاط التالية:**

أ- فمن الوجهة الكمية يؤلف نصيباً ضئيلاً بالنسبة إلى مواد الدراسة التي تتراوح في المدارس الابتدائية بين $\frac{٢}{٣٠}$ و $\frac{٤}{٣٠}$ ، وفي المدارس الإعدادية والثانوية $\frac{٢ - ٤}{٣٤}$ ، وفي دور المعلمين التي يدّرس فيها الدين بهذه النسبة أو أقل، أما في الكليات الجامعية فلا تدّرس الثقافة مطلقاً إلا في قسم اللغة العربية في كليات الآداب في بعض الجامعات، حيث يدّرس القرآن والحديث من الوجهة الأدبية فحسب[١]. أما عن أحوال المواد الثقافية والدينية في كثير من الجامعات العربية فإن كليات العلوم والهندسة لا يدرس فيها شيء مما نحن بصدده سوى مقرر واحد عن المجتمع العربي ولم يرد شيء عن المتطلبات الجامعية، وفي كلية القانون والسياسة وجدنا أن هناك مقرراً واحداً في السنة الأولى تحت مسمى المدخل لدراسة القانون والشريعة الإسلامية،كما وجدنا مقرراً واحداً في أصول الفقه يدرس لطلاب السنة الرابعة،وهذا الوضع في كثير من كليات الحقوق في البلاد العربيه، وأن مقررات الشريعة الإسلامية فيها، والفقه يقف على استحياء بجانب المقررات الأخرى التي استوردناها من القانون الغربي[٢].

ب- أما من الوجهة الكيفية فالنقص أشد والخطر أقوى، وذلك أن طريقة تدريس الدين ومناهجه وكتبه كانت متأخرة ولا تزال في بعض البلدان بالنسبة لمواد الثقافة الأخرى.

---

(١) انظر: المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي واقعها وعلاجها، ص٨.

(٢) انظر: التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، د. محمد عبدالعليم مرسي، ص ٦٨، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٩هـ، بدون ذكر الطبعة.

حيث إن تعليم سائر المواد يسلك فيه أساليب حديثة، من حيث مراعاة مستوى الطلاب العقلي، ومن ناحية حسن التعبير وغيره، بينما التعليم الديني لا يراعى فيه سن الطالب ولا ينظر إلى المشكلات القائمة في نفسه وفي المجتمع الذي يعيش فيه ويضاف إلى هذا النقص أن يكون المدرس بعيداً عن روح العصر، خالي الذهن، غير متطلّع إلى جوانب الثقافة العامة المعاصرة[1].

٣) أن نظامنا الثقافي يسيطر عليه، الازدواج في التعليم:

وهو انقسامه إلى قسمين مختلفين اختلافاً كبيراً: التعليم المدني والتعليم الديني ولكل منهما مدارسه ومراكزه واتجاهه وعقليته وأسلوبه وطريقته، فكان في البلاد الإسلامية تعليم موحّد ولكنه يختلف في نواحي تخصصه، فاختلف هذا التعليم بعد اتصاله بالحضارة الغربية ومحاولة تقليدها والاقتباس منها؛واصبح للثقافة الإسلامية مصدران مختلفان ونوعان متباينان:

١- **أحدهما** : المصدر القديم والثقافة الموروثة، وتنتشر هذه الثقافة وتدرس علومها في حلقات علمية خاصة ومدارس قديمة يقيم فيها العلماء وطلاب العلم في معاهد عالية مشهورة كالأزهر والزيتونة والقرويين.

٢- **ثانيهما**: المصدر الحديث للتعليم بمدارسه وجامعاته.

وقد بقي كل منهما في معزل عن الآخر، وأخذت المدارس القديمة في الضعف بسبب بقائها جامدة غير متطورة معزولة عن الحياة، فقل الإقبال عليها وضاقت سبل العيش بالمتخرجين فيها، بقدر ما زاد الإقبال على المدارس والجامعات الحديثة حتى أصبح المتخرجون منها يحتلون مراكز العمل والتوجيه في الحياة العامة، فانعزل الأولون عن الحياة وانكمشوا، وخف تأثيرهم وأغلقت في وجوههم

(١) انظر: المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي واقعها وعلاجها ص٨-٩.

أبواب العمل ومراكز التوجيه، وفتحت للآخرين الأبواب وكثرت موارد الرزق وأسندت إليهم الوظائف والأعمال التوجيهية فكانت هذه الحال ضربة للثقافة الإسلامية وللدين، حيث أبعدت الدين عن الحياة والحياة عن الدين، ولم تَفِ جهود المصلحين في ذلك، وبقي الازدواج الذي نتج عنه فئتين من المثقفين بثقافتين مختلفتين أحدهما دينية، ولكنها قديمة في تفكيرها وأسلوبها عقيمة في طريقتها، منعزلة عن الحياة، ضعيفة التأثير فيها، والأخرى مدنية أو علمانية أو لا دينية ولكنها غنية في تفكيرها ، جديدة في أسلوبها، متصلة بالحياة ومشكلاتها، وممسكة بزمام التوجيه الفكري ، والاجتماعي، والسياسي[1].

فيتضح أن الازدواج في التعليم خطة غربية محبوكة، لأن التعليم سلاح ذو حدين إذا استخدم في بناء الأمة وزيادة وعيها آتى ثماره الحسنة، وإذا سخر في هدم هذه الأمة وزرع الأفكار الفاسدة هوى بها في الحضيض، إذن هو من أخطر الوسائل التي استخدمها الأعداء إلى تغريب الأمة الإسلامية، وخاصة بعد التقائها بالثقافة الغربية حيث انقسم التعليم على أثر ذلك إلى تعليم ديني، وآخر دنيوي علماني، ووضع هوة سحيقة بين كل منهما، بحيث يعيش كل أصحاب علم من المسلمين بعيدين عن أصحاب العلم الآخر، ويتعصب كل منهما إلى منهجه وعلمه، وتسود بينهما الفرقة وينشأ الخلاف، وهذا ما يتمناه الغرب ويرفع له أقوى الشعارات، فهم بذلك كله يريدون إما أن تخضع الثقافة وتعترف بكل ما يدعون إليه، مع تخلي الثقافة الإسلامية عن هويتها وأفكارها، فكان لهم ما أرادوه، وإما أن تظل في معزل عن العلوم الدنيوية ويعتريها الضعف والفتور.

---

(١) انظر : المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي واقعها وعلاجها، ص١٠-١٢.

وبعد هذه المرحلة المتأزمة التي مرّت بها الثقافة الإسلامية، يرى المبارك – رحمه الله- أن هناك اتجاهات ومحاولات جديدة، وبوادر إصلاح تداركت بعض النقائص التي ذكرناها وسارت هذه البوادر من منطلقين[1]:

أحدهما: من معاهد التعليم الديني لتغذية الثقافة الإسلامية بالثقافة العامة الحديثة.

والآخر: من التعلم العام الحكومي لتقوية الثقافة الإسلامية ويبدو ذلك الإصلاح في الظواهر التالية:-

١- تطوير التعليم في الأزهر وذلك بتقسيمه إلى درجات موازية لدرجات التعليم العام ومعادلة لها، وتقوية مواد الثقافة العامة الحديثة فيها وتأسيس التعليم العالي في الأزهر على أسس جامعية وجعله متنوع الاختصاصات بحيث يشمل الطب، والهندسة، وغيرها، بالإضافة إلى كلية الشريعة وأصول الدين واللغة العربية، وإدخال تعديلات أساسية في المناهج. هذا بصرف النظر عن الانتقادات التي يمكن أن توجه إلى النظام الجديد من جهة التطبيق والتوجيه.

٢- إحداث جامعات ومعاهد جامعية عليا على أسس جديدة أو مشتملة على شيء من التجديد من ذلك تأسيس كلية الشريعة في جامعة دمشق، الجامعة الإسلامية بالمدينة، وكلية الشريعة في مكة، والجامعة الإسلامية بأم درمان في السودان.

وكان للشيخ – رحمه الله- شرف المشاركة في هذا التخطيط وقد بينا ذلك سابقاً.

٣- إحداث ثانويات شرعية أو دينية تضاهي وتعادل الثانوية العامة .

٤- زيادة العناية بتدريس الدين في المدارس الحكومية كماً وكيفاً في كثير من البلاد.

---

(١) انظر: المرجع نفسه ص١٣-١٥.

وقد نادى رحمه الله بوضع خطة للنظام الثقافي الإسلامي وتبنى على هذه الأسس:

١) وضع نظام ثقافي إسلامي موحد يزيل الازدواج الواقع في ثقافتنا ويتمثل هذا النظام في الآتي:

أ) الثقافة التي تلقن في المدارس الحكومية على نمط المدارس الأوروبية من ابتدائية وثانوية وعالية، وتحتوي على مواد علمية، كالرياضيات، والطبيعيات بفروعها، وعلى أفكار وعقائد ومفاهيم مأخوذة من العقائد والمفاهيم الأوروبية وألصق بهذه الثقافة (مادة الدين) وتختلف في عرضها وتعليمها ومفاهيمها عن المواد الأخرى، لذلك لا يكون أثرها قوياً، وأن هذه الثقافة المختلفة بقيت هي الأساس للنظام الثقافي، وولدت في أبناء المسلمين عقلية مشابهة للعقلية الأوروبية، فلا قيمة لبعض المظاهر الإسلامية التي يحافظ عليها البعض لأن الأساس الفكري ليس أساساً إسلامياً سليماً، فهذه العلوم ضرورية جداً ولكن يجب تحريرها مما علق بها، وصياغتها صياغة جديدة تتفق مع العقيدة الإسلامية أو لا تعارضها على الأقل.

ب) المصدر الثاني للثقافة في البلاد الإسلامية الثقافة الإسلامية الموروثة التي تُعلم في حلقات العلماء والمدارس الدينية القديمة. وهذه الثقافة هي الأساس، ولكن غدت خليطاً من تعاليم الإسلام، ومن طرائق المتكلمين على اختلاف منازعهم ومذاهبهم، وقد صيغت هذه الثقافة في قوالب جمدت وثبتت ووضعت على طرائق أصبحت قديمة تحتاج إلى تجديد وإصلاح، وكانت لغة التعبير عنها في العصور الأخيرة تتصف بالتعقيد والبعد عن أساليب العرب الفصيحة، فكانت العقلية التي كونتها الثقافة الإسلامية القديمة، تختلف عن العقلية التي كونتها

الثقافة الحديثة، وهنا ينشأ الصراع في المجتمع بين عقليتين ويظهر هذا الصراع في مجالات كثيرة في التربية والتعليم وفي المجتمع والسياسة وغيرها. فيصور الثقافة الإسلامية القديمة على أنها هي التي تمثل الإسلام، وانتصارها يمثل انتصار الإسلام، بينما الثقافة الحديثة تمثل حضارة كافرة عدوة للإسلام، وانتصارها هو انتصار للكفر على الإيمان إن حل مشكلة الازدواج عند المبارك يكون بإقامة نظام إسلامي موحد يبنى على تعدد الاختصاصات، لا على تعدد العقليات والمصادر الحضارية فيجب أن يدخل الإسلام إلى المدارس الحديثة والجامعات دخولاً طبيعياً صحيحاً فتقام على أسس إسلامية، كما يجب أن تقام المدارس الدينية والمعاهد الإسلامية العالية على أسس جديدة، فيوصل بينها وبين منابع الإسلام الأولى من جهة، وبينها وبين الحياة من جهة أخرى، وتستفيد من تجارب البشر وتطور العلوم وتحسن الأساليب حتى تصبح هذه المدارس وتلك من نوع واحد وعلى مستوى واحد، تنتج عقلية واحدة هي العقلية الإسلامية.

فثمة ضرورة ملحة للتنسيق بين الأزهر والجامعات في مصر وبين الزيتونة والمدارس والجامعات في تونس، وبين القرويين والمدارس والجامعات في المغرب، لا على أساس مسخ الأزهر والزيتونة والقرويين وإلغاء دورها ومحو خصائصها الذاتية وجعلها صورة مماثلة لتلك الجامعات.

٢) صبغ التعليم في جميع درجاته وأنواعه بالصبغة الإسلامية:

حيث إن التعليم العام في بلادنا الإسلامية مصطبغ بصبغة غير إسلامية، ومشحون بمفاهيم غير إسلامية؛ لأنه أحيط بأفكار مغايرة للإسلام، وهذه الأفكار ليست من صميم هذه المواد، ولكنها كانت وليدة ظروف الحضارة الأوروبية، فلو نظرنا إلى العلوم التي تدرس الكون والطبيعة كانت جزءاً هاماً في الحضارة الإسلامية وكان

للمسلمين أثر في تقدمها، وقد نقلها الأوروبيون عنهم وهي علوم ضرورية هامة، إذ عليها تبنى حياة الإنسان المادية، وتقدمه المادي وهي تحقيق قوله تعالى: سنريهم الحق ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1]. ولكن يجب تحريرها مما خالطها من الآراء والنظريات الإلحادية.

كذلك جميع المواد، سواء العلمية أو غير العلمية، يجب أن تدرس في جميع المراحل الدراسية، وأن تصاغ صياغة إسلامية، وأن تكون العلوم الطبيعية بقوانينها وجميع ظواهرها مظهراً من مظاهر قدرة الله، وتحقيقاً للاتجاه القرآني في النظر إلى الكون، والمهم في تدريس الإسلام لفت النظر، والاهتمام بخطوطه العامة ، ومعالم عقيدته الأساسية وأهدافه، وأسسه وعدم الإغراق في الجزئيات، وتجنب توليد العصبية الشديدة للجزئيات والتفصيلات، ولاسيما الآراء المذهبية لأن شدة الاهتمام بها وشدة التعصب لها، تضعف الاهتمام بالأخطار الكبيرة المحدقة بالإسلام، ويجب أن توضع مناهج الدين وتعلم بطريقة تجنب المسلمين الانقسام إلى معسكرات مذهبية ، وفرق مختلفة، ماداموا في إطار المذاهب الإسلامية التي تتفق على الإيمان بالله ورسله وخاتم أنبيائه وبالقرآن كتاباً منزلاً، وشريعة واجبة الاتباع.

أما التعليم في الجامعات والكليات فيجب أن يكون ثمة نصيب شائع مشترك في جميع أقسامه من الثقافة الإسلامية الأساسية التي تعطي فكرة عامة عن الإسلام ونظامه في مقابل الأنظمة العقدية الأخرى كالديمقراطية، والماركسية أو الاشتراكية.

٣) إحداث وعي إسلامي عام بحيث يكون وعياً لمبادئ الإسلام وتعاليمه وقضايا الإسلام الكبرى في العصر الحاضر ووعياً لوحدة العالم الإسلامي ومصادر قوته وما يجابهه من أخطار.

---

(١) سورة فصلت آية (٥٣).

٤) الوقوف أمام الأنظمة الثقافية الأخرى التي غزت العالم الإسلامي.

٥) وصل ما بين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة على اختلاف أنواعها على أساس الإسلام ونظرته، وسد حاجات المجتمع الإسلامي عن طريق التعليم بمختلف تخصصاته ودرجاته.

٦) اختيار الطرائق والأساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله في النفوس فيراعي في ذلك السن والمستوى العقلي، مع العناية بالأصول والمبادئ وتقديم القضايا الهامة والعودة إلى القرآن والسنة، ووصل ما بينهما وبين الآراء الفقهية[١].

وقد أسهم رحمه الله في وضع بعض الحلول لمثل هذه المشكلات الثقافية تتلخص في:

١- تقارير تفصيلية عن الوضع الثقافي في كل بلد إسلامي يضعه خبراء.

٢- تأليف لجان اختصاصية يضمها مؤتمر إسلامي عام يعقد لشؤون التربية والثقافة خصيصاً لتضع كل منها الخطة التفصيلية لكل من جوانب هذا النظام الثقافي.

٣- إقامة مؤتمر إسلامي عام لشؤون التربية والتعليم، والثقافة يناقش الخطط ويقرها في شكلها النهائي.

٤- اتخاذ الوسائل وسلوك الطرق لإقناع حكومات البلاد الإسلامية بالأخذ بهذه الخطط بعد القيام بالدعاية لها في الرأي العام الإسلامي[٢].

المطلب الثاني: دعوة الشيخ إلى الوحدة الإسلامية وتقوية الروابط بين أفراد الأمة :

الوحدة الإسلامية حقيقة ثابتة بمقتضى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فلا

---

(١) انظر: المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي واقعها وعلاجها ص ١٤-١٨.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص٢٧-٢٨.

يعرف الإسلام الفرقة بالألوان، أو بالعناصر، والأجناس، أو باللغات والثقافات، فقد جمعت هذه الوحدة بين أبناء الإسلام في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم، وعهد الراشدين، وما تلاه من العهود التي قاربته في عهد ملوك بني أمية وبني العباس، ثم تخللت العصبية الإقليمية ،ومن ثم العربية بين أبناء الإسلام حيث كانت منافية للحقائق الإسلامية، والوصايا المحمدية، وأصبح أمر المسلمين في إفتراق، وصار بأسهم بينهم شديداً، ووالى كثير منهم من لا يود للإسلام وأهله إلا خبالاً[1].

إن الشعوب الإسلامية التي كانت تؤلف أمة بالمعنى التام، خلال عدد من القرون التي أعقبت ظهور الإسلام، قد امتزجت في مجال العلم والسياسة والإدارة والاقتصاد والمواصلات وسائر مجالات الحياة امتزاجاً عجيباً، وكان الشعور بالانتماء إلى الوطن الإسلامي والثقافة الإسلامية أقوى بكثير من شعور الانتماء إلى البلد والقومية، فتجد في الفقهاء والمحدثين، وفي الأطباء والفلاسفة، وفي الحكام والقضاة، العربي ، والهندي، والفارسي والكردي، والتركستاني البخاري ملتقين على صعيد الثقافة الإسلامية والعقيدة الإسلامية، والمفاهيم والعادات الإسلامية، ولكن هذا الارتباط أخذ يضعف شيئاً فشيئاً بسبب انقسام الوطن الإسلامي إلى دول مختلفة، وإلى مذاهب وعصبيات متعددة، وبسبب غلبة التربية الفردية على التربية الاجتماعية، وأخيراً بسبب الانقسام الذي أحدثه الاستعمار في غزواته العسكرية والفكرية في العصر الأخير، حتى أصبح كل شعب من الشعوب الإسلامية في شغل شاغل في قضاياه ومشكلاته التي خلفها الاستعمار.

وإن هذا الضعف الذي حلّ بالأمة الإسلامية لا يعني زوال الرابطة التي تربط الأمة، ولا فقدان معنى الأمة الإسلامية، بل من الواجب معالجته ووضع الحلول التي

(١) انظر: الوحدة الإسلامية، محمد أبو زهرة ص١١، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان ، بدون ذكر الطبعة.

تتناسب مع حجم هذا الضعف والتراخي[1].

وقد سعى – رحمه الله – إلى بذل الجهد من أجل عودة الشعوب الإسلامية إلى وحدتها وترابطها وذلك من خلال مناداته بالآتي:

(١) التنسيق بين الشعوب الإسلامية من ناحية التعليم والتشريع والتنظيم الاقتصادي وسائر النواحي الاجتماعية التي تنتج بالطبع توحيد الاتجاهات السياسية؛ وذلك بأن يكون الإسلام هو المصدر الذي تستقي منه اتجاهاتها التربوية والثقافية والتشريعية والاقتصادية والسياسية ومنه تصوغ فلسفتها في الحياة، وتقوم بهذا التنسيق لجان فنية من وزارات التربية، والعدل، والاقتصاد، والشؤون الاجتماعية والإعلام، وتكون النهضات القومية في مجالات التربية، والتنمية الاقتصادية ، والتشريع وغيرها في إطار الإسلام باعتباره مذهباً، وعقيدة، ونظاماً للحياة، ويعنى بوجه خاص بإقامة تكامل اقتصادي بين البلاد الإسلامية، وتكون وحدة اقتصادية أو سوق مشتركة.

(٢) إزالة الحواجز المتمثلة في قوانين وأنظمة الجنسية والعمل والتوظيف، وجعل الشعوب الإسلامية وحدة يمكن التنقل بينها، وتحل فيها الصفة الإسلامية المحل الأول، ويكون ذلك عامّاً يطبق في جميع البلدان الإسلامية، ويراعى ألا يخل هذا التنظيم بحقوق المواطنين غير المسلمين الذين سكنوا مع المسلمين في بلد واحد منذ قرون، ويقتضي إزالة الحاجز الأكبر إسرائيل لأنها شعب مركب تركيباً اصطناعياً بهجرات حديثة وعمليات اغتصابية.

(٣) تعميم مبادئ الإسلام في الجمهور والمثقفين عن طريق التعليم العام والتعليم الشعبي، وبسائر طرق الإعلام والنشر، وذلك ليقفوا أمام كل مصدر للتعاليم

(١) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص٣٤-٣٥.

الأجنبية التي تدخل البلاد الإسلامية، سواء من الأجانب أو من أبناء المسلمين الذين تعلموا على يد الغرب واستقوا ثقافته وأخذوا ينقلون أفكارهم إلى المسلمين[1].

المطلب الثالث: عوامل تكوين الأمة والمجتمع المسلم المعاصر :

يضم المجتمع الإسلامي بين جوانبه شعوباً إسلامية، متفرقة في أنحاء العالم ويحوي كل شعب دولة إسلامية خاصة به، فالمجتمع الإسلامي الذي نراه اليوم وُضِعت لبناته الأولى في عهد الرسولﷺ، حيث كوّن أول مجتمع إسلامي في المدينة، ومجتمعنا المعاصر امتداد لذلك المجتمع القوي البنيان، رغم ما أصاب هذا المجتمع الحديث من فتنة الاغتراب؛ إلا أنه عروق الحياة لا تزال تنبض فيه معلنة ظهور فجر، تتحرر فيه مجتمعاتنا المعاصرة مما علق بها من وعثاء الغربة والفتن، فلا تزال هذه المجتمعات تربط بينها روابط وتجمع بينها سمات تميزها عن بقية المجتمعات الأخرى غير الإسلامية.

وقد بين المبارك -رحمه الله- أولاً العوامل التي تكوّن الأمة عموماً، ثم بين روابط المجتمعات الإسلامية.

وقبل أن أبدأ في بيان ذلك: أبين مفهوم الأمة، ومفهوم المجتمع:

أولاً: مفهوم الأمة:

الأُمّة في اللغة: ذكر ابن منظور الأُمّة والإمّة: بضم الألف وكسرها الدِّين. قال أبو إسحاق في قوله تعالى:﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[2] أي كانوا على دين واحد.

---

(١) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص٣٥-٣٦.

(٢) سورة البقرة : آية (٢١٣).

والأُمّة : الطريق والدين. يقال : فلان لا أُمَّة له: أي لا دين له ولا نحلة قال الشاعر وهل يستوي ذو أُمةٍ وكفور؟

وقوله تعالى : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ ﴾[1]، قال الأخفش: يريد أهل أمة أي خير أهل دين[2].

أما مفهوم الأمة في الاصطلاح: فقد عرف المبارك الأمة: (بأنها إذا عملت عوامل التوحيد، والصهر، والانسجام في شعب من الشعوب، كالاشتراك في اللغة، والحياة المشتركة الطويلة، أي التاريخ، والثقافة، والمعتقدات، والمبادئ، والأفكار، والعادات، والأخلاق، تألف من وحدة اجتماعية حية نسميها أمة، والحالة الطبيعية أن يكون لهذه الأمة كيان سياسي واحد يحفظها، أي أن تؤلف دولة" [3].

ثانيا: مفهوم المجتمع:

المجتمع في اللغة:

جُمَّاع الناس كزمَّان، أخلاطهم من قبائل شتى ومن كل شيء مجتمع أصله وكل ما تجمع وانضم بعضه إلى بعض[4].

فالجُمّاع "بالضم والتشديد"، مجتمع أصل كل شيء، والفرق المختلفة من الناس وكل ما يجمع وينضم بعضه إلى بعض[5]. والمجتمع هو "موضع الاجتماع من الناس" [6].

أما المجتمع في الاصطلاح: فقد عرفه المبارك بأنه: "مجموعة من الأفراد

---

(١) سورة آل عمران : آية (١١٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور ص ٢١٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: ٣ بدون ذكر تاريخ الطبعة.

(٣) الأمة والعوامل المكونة لها، ص ٣٦، دار الفكر بدمشق، بدون ذكر الطبعة تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

(٤) القاموس المحيط للفيروز آبادي، ص ١٣ ـ ١٤.

(٥) لسان العرب، ص ٥٣ ـ ٥٦.

(٦) المعجم الوسيط، ص ١٣٦. تخريج إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية، تركيا، ط: ٢، ١٣٩٢هـ.

يربط بينها رابط مشترك يجعلها تعيش عيشة مشتركة وتنظم حياتها علاقات منتظمة معترف بها فيما بينهم[1].

أولا : عوامل تكوين الأمة :

أما العوامل التي يرى المبارك رحمه الله أنها تكوّن الأمّة فهي:

(١) الأرض:

لقد بين -رحمه الله- أن لكل شعب أرضاً نشأ وترعرع فيها، وأقام حياته وحضارته عليها، فأحبها وتأثر في طراز حياته بطبيعتها، وكانت حياته الأولى تفاعلاً فيما بينه وبين الأرض، فكانت الأرض ذات تأثير في الطور الأول لحياة الشعوب في تكوين طبائع متشابهة وصفات متقاربة، وبذلك تكون الوعاء الجامع لهم الذي ينضج طباعهم وخلقهم، ولكن تأثيرها ينقص بالتدريج كلما نمت الحياة الإنسانية فوقها وعملت يد الإنسان وعقله في تكييفها وفي رد عوارض الطبيعة وحماية نفسه منها، ويتحرر بالتدريج من تأثير الأرض. وقد كان تطور المواصلات، ونمو الحياة الفكرية والأديان العالمية سبباً في سلب الأرض ما كان لها على الإنسان من سلطان ونفوذ؛ ولهذا لم تعد الأرض إلا قاعدة ومسكناً للأمة وعنصراً مادياً لابد منه دون أن يكون السبب الجامع لأبناء الأمة والرابط الأساسي فيما بينهم، بل انقلبت إلى عنصر معنوي يتجلى في حب الأرض، والدفاع عنها لأنها مثوى ذلك الشعب ومثوى الآباء والأجداد، وقام عليها تاريخ الأمة وحضارتها.

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر، ص ٧، محمد المبارك ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط: ٢، ١٣٩٢هـ.

واستشهد بحديث "من بدا جف"[1] أي من عاش في البادية ظهر الجفاء في طبعه، وبقوله أيضاًﷺ: "والله إنك لأحب البلاد إليّ" [2].

أيضاً يرى اقتران الأرض في القرآن بحب النفس : ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [3]، واقترانها بالدين : ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾[4] [5].

ويتضح أنه ليس هناك من شك في تأثير الأرض على حياة البشر الذين يقيمون عليها، فهم يرتبطون بها ارتباطاً وثيقاً، ومرد هذا الارتباط بين الإنسان والأرض أن الإنسان خلق منها، فقد أثبتت الدراسات العلمية والتحليلية أن هناك توافقاً بين أجزاء التراب وأجزاء جسم الإنسان؛ لذلك يميل إليها الإنسان ويحبها، قال تعالى : ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾[6].

(٢) الجنس:

يرى – رحمه الله –أن استقرار عشيرة أو قبيلة في أرض، ثم امتزاجها مع عدد من القبائل التي ترجع إلى أصل واحد، قد كان نقطة الانطلاق إلى تكون القوميات والأمم؛ فكان لكل أمة عرق غالب قد يكون نتيجة كثير من الأعراق تلاقت وامتزجت وكونت عرقاً واحداً، ولكن اختلاط الشعوب واتصال الأمم وامتزاجها بسبب الاشتراك في

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: (٤٣٠/١٤) برقم (٨٨٣٦)، وبرقم (٩٦٨٣) وبرقم(١٨٦١٩)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: (٢٦٧/٣) برقم (١٢٧٢): حسن.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده: (٦٩/٥) برقم (٢٦٦٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٦١٥/٣) برقم(٥٦٩١): رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.

(٣) سورة النساء : آية (٦٦).

(٤) سورة الممتحنة : آية (٨).

(٥) انظر : الأمة والعوامل المكونة لها ص٤٣-٤٦.

(٦) سورة طه : آية (٥٦).

حضارة واحدة أو دين واحد جعل صفاء الجنس ونقاوة الأصل أمراً مشكوكاً فيه، وقد تكون رابطة الجنس هي الرابطة القوية في المراحل الأولى من تكون الشعوب حين كان الاعتقاد بوحدة الأصل الدافع الأقوى إلى التقارب والتضامن، ولكن المشاهد في الواقع أن الأمم والشعوب لا تمكث طويلاً في هذه المرحلة إنما تجتازها إلى مرحلة الانتماء إلى ثقافة واحدة ولغة واحدة وتاريخ واحد، كما في إنجلترا، وألمانيا وأمريكا.

وكذلك في المجتمع العربي، ولكنه بعد الإسلام يربط أبناء جلدته برابطة الإيمان، وإن تجاوزها لهذه المرحلة لا يعني أن ينعدم تأثير العرق والشعور بالقربى؛ لأنه أشبه بشعور الانتماء إلى أسرة واحدة الذي هو شعور فطري، ولكنه كشعور القرابة في الأسرة انتقل إلى الدرجة الثانية أو دون ذلك؛ لأن شعوراً آخر تقدمه، ورابطة أخرى استعلت عليه، هي رابطة الثقافة[1].

(٣) اللغة:

بيَّن المبارك -رحمه الله- أن المقصود باللغة هي لغة الأب والأم، وأن الاشتراك فيها يولد في المتحدثين شعوراً قوياً بالقربى والارتباط بالجماعة، وأن اللغة هي المدرسة التي يتربى فيها أبناء الشعب الواحد فيتلقون عن طريقها أفكارهم فتطبعهم بطابعها، سواء المثقفون بما يقرءون من آدابها وشعرها ونثرها، أو عامة الناس بما يسمعون من عباراتها وقصصها وأناشيدها، فالعربي ينطبع في عقله وتفكيره ومشاعره ما يسمعه، منذ طفولته من آيات الكتاب، ومن شعر العرب وأمثالهم وآثار القدماء والمحدثين، وما يقرؤه من صحف ومجلات، وما يسمع من محاضرات وإذاعات وندوات؛ فاللغة هي التي تكون الأفكار المشتركة والمشاعر المتشابهة فتوجد في الأمة عقلية واحدة متشابهة تميزها عن غيرها من الأمم، ويرى -رحمه الله- أن اعتياد التحدث بلغة من اللغات طريق للتأثر

(١) انظر : الأمه والعوامل المكونه لها ، ص٤٦-٥٠.

بطباع أهل تلك اللغة وعاداتهم وأخلاقهم وتفكيرهم، واستشهد على ذلك بقول ابن تيمية : "اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتُهم تزيد في العقل والدين والخلق، وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية" [1].

ويرى أيضاً -رحمه الله- أن اللغة ليست إلا أداة لحمل الأفكار وقالباً لها ووسيلة لنقلها، فيكون الأثر الحقيقي إنما هو لمضمون اللغة، فالذي يجمع بين أفراد الأمة حين تجمعهم لغة واحدة هو ما تحتويه تلك اللغة في آثارها الفكرية والأدبية والفنية من أفكار ونظرات ومفاهيم ومبادئ وما يتسرب من ذلك إلى الناس في أحاديثهم في مجالسهم وندواتهم، والدليل على ذلك الاستعمار الفرنسي للجزائر؛ فمع أنه أفقد الشعب الجزائري لغته، إلا أن الشعب لم ينسلخ عن أمته بسبب احتفاظهم بعقائدها ومشاعرها التي انتقلت إليهم عن طريق اللغة الفرنسية من أبناء أمتهم من أهل الجزائر العرب المسلمين.

وأن وحدة اللغة متحققة في البلاد العربية، لأن خلود القرآن وإقبال العرب عليه وحرصهم على تعلمه وحفظ الله له جعل اللغة العربية الفصحى هي الأصل وأن الانحراف عنها يعد انحرافاً في العقيدة والدين وابتعاداً عن القرآن؛ لذلك كانت محاولات الاستعمار متجهة نحو إضعاف اللغة العربية وإحلال اللهجات العامية محلها[2].

وبناءً عليه تعتبر اللغة من الأمة بمنزلة الروح من الجسد، لأنه بحفظ هذه اللغة

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٢٠٧.

(٢) انظر: الأمة والعوامل المكونة لها ص٥١-٥٦.

تحتفظ الأمة بأفكارها وتراثها وثقافتها، فإذا فقدت لغتها فقدت حضارتها؛ لذلك حرص الاستعمار أولاً على القضاء على لغة الشعب المستعمر لكي يفقده قاعدة أساسية من قواعد قوته، وذلك ما نراه في سلسلة الدول المستعمِرة، حيث كانت اللغة العربية في أوائل تلك اللغات التي تربص بها المتربصون، ولكنهم لم ينالوا منها فهي محفوظة بحفظ الله تعالى لها.

(٤) الثقافة:

إن المراد بالثقافة ذلك الجو الفكري والعاطفي الذي يعيش فيه أبناء الثقافة الواحدة، والذي ينشأ من المعلومات النظرية التي يتلقاها المواطنون من دراستهم المدرسية وغير المدرسية والعملية التي يتلقونها من الحياة، وما يتولد عن ذلك من عادات وتقاليد. فقوام الثقافة ليس في العلوم المحضة كالرياضيات والفيزياء؛ لأن هذه العلوم لا تختلف من أمة إلى أخرى، ولكن الجانب الذي تختلف فيه ولها فيه مميزات وخصائص هو الجانب المعنوي من الثقافة والذي يظهر في الأدب والفلسفة والدين والتاريخ والفن، فهذا هو الذي يكون في الأمة اتجاهاتها ومفاهيمها ومثلها العليا، فتقارب الثقافات واشتراكها في جوانب قليلة أو كثيرة يقترن بتقارب القوميات والأمم واشتراكها في جوانب قليلة أو كثيرة في الحياة ويسهل تعاونها في ميادين الحياة، فالمهم في الثقافة التي تكوّن أبناء الأمة الواحدة هو نوعية الثقافة والعناصر التي تتألف منها، لا المستوى الثقافي، لأن الناس ليسوا على مستوى واحد من الثقافة فلم يضر ذلك وحدتهم ولا ينتقص تماسكهم.

وإن عنصر الثقافة الأجنبية إذا دخل في الثقافة العربية وقوي تياره واتسع نطاقه يسبب خطراً على كيان الأمة العربية ويمهد السبيل لإذابتها في غيرها، والمقصود بالثقافة الأجنبية هي المذاهب الفكرية والفلسفية والاجتماعية والأدبية و الفنية، ويرى – رحمه

الله- أن العنصر الأساسي في الثقافة هو فلسفتها ومفاهيمها ومعتقداتها وأفكارها[1].

وعليه تعتبر الثقافة كنز الأمة الخالد، فهي من أقوى العناصر في تكوين الأمم فإذا فقدت الأمة ثقافتها فقد فقدت اتجاهاتها ومفاهيمها ومثلها العليا وأصبحت صورة مطابقة للثقافة الدخيلة عليها.

(٥) التاريخ:

التاريخ بحوادثه يكوّن في كل شعب جزءاً من تفكيره وشعوره بما يحدثه في النفوس من آثار، وفي العقول من تفكير، والحياة من اتجاهات، وهو مجموعة من التجارب التي عركت الشعب وتفاعل معها فوحّدته وجعلت له في الحياة موقفاً واحداً، فحوادث التاريخ تختلف من شعب لآخر، فالتاريخ بالنسبة لكل أمة مجموعة ذكرياتها الحلوة والمرة وصفحاتها الجميلة والقبيحة، وهو ذاكرتها، ويتصل التاريخ الماضي بالحاضر، ثم ينقلب الحاضر ماضياً، بل إن الحاضر هو الجزء الآخر من هذا الماضي وهو متأثر كل التأثر بالماضي. فإن الأمم في نهضتها تهتم بدراسة تاريخها، لتتعرف إلى نفسها وتنغمس في تاريخها لتحقق ذاتها، ومن هنا كان الاعتزاز بالتاريخ اعتزازاً بالذات بالنسبة إلى الأمم، وكانت الدول المستعمرة تحاول أن تنسي البلاد المستعمَرة تاريخها؛ لتنسيها نفسها، ولتنسلخ من ذاتها وتسهل تبعيتها لها، ويرى أيضاً -رحمه الله- أن التاريخ المؤثر في حياة الأمم هو الجزء الحي في النفوس من ذلك التاريخ، فالجزء الحي لتاريخ العرب وأقواها تأثيراً وأوضحها صورة في الأذهان هو الجزء الإسلامي، فالعرب يرون في هذا التاريخ جزءاً من وجودهم، وأن انتصاراته انتصار للحق، سواء في داخل البلاد العربية وبين العرب أنفسهم، أو بينهم وبين أعدائهم[2].

---

(١) انظر: المرجع السابق ص٥٧-٦٣.

(٢) انظر : الأمة والعوامل المكونة لها، ص٦٣-٧٣.

(٦) الدين والمعتقدات والأفكار:

يتبين من الحديث عن أثر اللغة والثقافة والتاريخ أن وراءها عاملاً أساسياً مشتركاً جعلها ذات تأثير في تكوين الأمم، وهذا العامل المختفي وراءها هو المفاهيم الأساسية والمعتقدات والأفكار العامة والاتجاهات الفكرية الكبرى، أي نظرة الأمة إلى العقائد والحياة المشتركة بين أبنائها؛ فكل أمة من الأمم لابد أن يشترك أبناؤها في كل طور من أطوارها في مبادئ ومفاهيم ونظرات إلى الحياة ومعتقدات عامة مشتركة، ولابد أن يكون بينها حد أدنى على الأقل من المبادئ الاعتقادية المشتركة سواء أخذت هذه المبادئ شكلاً دينياً أم لم تكن كذلك، وهذه المبادئ الاعتقادية ذات أثر واضح على الفرد والأمة، والمبارك – رحمه الله – بيّن لنا هنا أثر الأديان في تكوين الأمم من خلال إلقاء نظرة تاريخية على هذا الموضوع:

(١) كان في بداية نشأة الشعوب لكل شعب دينه الخاص، فكانت الأديان قومية خاصة، حيث كان للدين أثره القومي في تفكير الشعب الذي يدين به وفي مفاهيمه وتصوراته وسلوكه ومبادئه وأخلاقه، لذلك يذهب غلاة القومية في العصر الحديث إلى بعث دياناتهم القديمة ووثنياتهم ويعمدون إلى إحيائها وتلقينها للأجيال الجديدة.

(٢) بعد أن تواصلت الشعوب وتأثر بعضها ببعض انتقلت الأديان من شعب إلى شعب، فأصبح الدين صعيداً مشتركاً بين تلك القوميات تلتقي عليه في تفكيرها وسلوكها.

(٣) أن بعض الأمم ضعف فيها أثر الدين أو اقتصر على نواح محددة من حياتها، ولكنها أحلت محله، جزئياً أو كلياً، عقائد أخرى فأصبحت هذه العقائد هي العنصر الأساسي المشترك في تلك الأمم. فتكون العقيدة في كل الأحوال جامعاً

أساسياً ورابطاً موحداً بين أبناء الأمة الواحدة[1].

(٧) وحدة المصالح الاقتصادية:

إن المعيشة المشتركة في أرض واحدة تؤدي إلى تشابك المنافع والتعاون في الحياة الاقتصادية، ولكن الحياة المشتركة هي التي أدت إلى هذه النتيجة وهي سابقة لها، والمعروف أن الناس لا يستبدلون بقومياتهم قومية أخرى، ولا ينسحبون من أمتهم إلى غيرها من أجل مصلحة اقتصادية.

فما كانت المصالح الاقتصادية يوماً سبباً في تكوين الأمم وتقوية روابطها، فهي من أضعف الروابط[2].

(٨) الوحدة السياسية أو الدولة:

لا يُنكر أثر قيام الدولة في كل أمة فهي التي تصون وحدتها وتقويها وتدافع عن كيانها المادي، والمعنوي، وتحمي تراثها وثقافتها، وعقيدتها، ويرى –رحمه الله– أن الكيان السياسي إن لم يكن عاملاً في إيجاد الأمة وعنصراً من عناصر تكوينها الأساسي، فهو متمم لوجودها وضروري لبقائها، واستمرارها، ولحمايتها، والدفاع عنها، وتمكينها من تقديم ما عندها من خير لنفسها وللإنسانية[3].

ثانياً: الروابط المشتركة لتكوين المجتمع:

يرى –رحمه الله– أن هناك روابط مشتركة للمجتمع الإسلامي تتمثل في:

١) وحدة العقيدة والمبادئ:

إن جميع الشعوب الإسلامية تشترك في تصور واحد للوجود والكون، وأن لهذا الكون خالقاً واحداً، وأن الإنسان أحد مخلوقات الله وأكرمها وذو سلطان على هذا

---

(١) انظر : الأمة والعوامل المكونة لها.

(٢) انظر: المرجع السابق ص٩٢.

(٣) انظر :المرجع السابق ص٩٣-٩٤.

الكون المسخر له، ونصت آيات الكتاب على ذلك، وأن للإنسان حياتين، الأولى: للعمل وتحمل الأمانة، والثانية: للجزاء وتحمل نتائج المسؤولية، ويصل إلى الحقائق الحسية بما وهبه الله من نعمة السمع والبصر والعقل والحواس ويصل إلى الحقائق غير المادية بهداية الرسل، والعقيدة التي تتكون في النفوس هي لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويتفرع عنها مبادئ ومفاهيم وأفكار وتتولد عنها نتائج هامة كان لها أثر في مجرى التاريخ لهذه الشعوب في حياتها، فيرى أيضاً أن للمسلمين جميعاً مفاهيم متماثلة أو متشابهة في الحياة تجعل لهم فلسفة أو قاعدة فكرية واحدة لحياتهم وإن تفاوتوا في مستوى فهمها، ولكن الحد الأدنى مشترك بينهم جميعاً مع اختلاف في المستويات والشعوب.

وبذلك يكون الناظر إلى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾[1] يجد أن هذا هو الدين الخالد وهو أقوى رباط تجتمع عليه الأمة الإسلامية، ولا تجتمع على دين غيره.

٢) وحدة القيم الخلقية أو الاشتراك في تقدير الخير والشر والفضيلة والرذيلة:

المجتمع الإسلامي يتفق في تقويم الأعمال من الوجهة الأخلاقية وتحديد الخير والشر والفضائل والرذائل، إذا استثنينا ما حدث من تأثير للقيم غير الإسلامية بسبب الاتصال بالحضارة الغربية، فالخمر والظلم رذائل وهي شر، وغض البصر وإماطة الأذى عن الطريق وإغاثة اللهفان فضائل وهي خير؛ فنظر المسلمين إلى هذه الأمور والقيم أمر متفق عليه وإن انحرفوا عنه في العمل وخالفوه في التطبيق، و ليست مثل هذه القيم الأخلاقية عند غيرهم من المجتمعات.

٣) العادات:

يشترك أفراد المجتمع الإسلامي في كثير من العادات التي يحكِّمون فيها الإسلام تحريماً

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

وتحليلاً، فكلما حرص المجتمع على الالتزام بالإسلام والوقوف أمام عدوى أمراض المجتمعات الأخرى كان التشابه والتوافق بين أفراده أكمل وأشمل.

٤) الثقافة:

المسلمون في أكثر البلدان الإسلامية يشتركون في جزء كبير من ثقافتهم، فكانت الثقافة الإسلامية هي الثقافة العامة التي يتلقاها المسلمون قبل دخول الثقافة الغربية، ولا يزال أثرها واضحاً إلا انه يختلف من بلد إلى بلد، ولغة هذه الثقافة هي العربية لغة القرآن؛ ولابد لمن أراد التوسع في هذه الثقافة أن يتعلمها؛ ولذلك نلاحظ انتشارها في المدارس القديمة والحديثة في البلاد الإسلامية، كذلك انتشار الحروف العربية واستعمالها لكتابة لغات البلاد الإسلامية: كالفارسية، والأوردية، والجاوية (الإندونيسية)، والتركية إلى عهد كمال أتاتورك الذي منع استعمالها تعصباً لقوميته ومحاربته للإسلام، فأصبح الحرف العربي مشتركاً لشيوعه بسبب القرآن ولاستعماله في كتابة بعض اللغات من جهة أخرى، ومن هنا نرى أن في العالم منطقة واسعة يمكن أن نسميها منطقة الثقافة الإسلامية، للغة العربية والحرف العربي مكانة عظيمة فيها، وهذا يكوّن أساساً هاماً بين شعوب العالم الإسلامي.

٥) التاريخ:

البلاد الإسلامية التي دخلت الإسلام منذ ظهوره تشترك في تاريخ عصور طويلة، فكل ما في هذا التاريخ من حرب وسلم وانتصار وهزيمة، كلها مشتركة بين هذه البلاد، وهي عوامل مهمة في تكوين نفسية المسلمين وأفكارهم، وتوحيد موقفهم من الشعوب الأخرى، كذلك الشعوب الأخرى التي تأخرت في الدخول في الإسلام حذت حذو الشعوب المتقدمة في تأثرها بأحداث التاريخ، فهو بالنسبة لها بداية عهد جديد للإنسانية يحررها من الظلام إلى النور والهداية والتحرر، كذلك ما مرت به هذه الشعوب من عهد تخلف وتأخر نتيجة الاستعمار، ثم استيقاظهم في نهضة عامة كانوا يشتركون فيه، فيزداد تشابههم وتتقارب عقولهم ونفسياتهم إلى حد كبير لا يعادله تقارب أي مجموعة أخرى

من الشعوب.

إن التاريخ الإسلامي فريد من نوعه لأنه بدأ بظهور الإسلام، فكانت صفحاته بيضاء، يحق لكل مسلم أن يفتخر بها لأنها مليئة بالتضحية والبطولة فالمسلمون يجتمعون عليه، فهو الذي أسدل الستار على الصفحات السوداء في تاريخ العرب قبل الإسلام، وقفز بهم إلى مواطن الشرف والإباء، لذلك حقاً على كل مسلم أن يحافظ على هذا التاريخ ويكون خير رباط تجتمع عليه الشعوب الإسلامية.

٦) التشريع والأحوال الاجتماعية:

يرى المبارك – رحمه الله – إن التشريع الإسلامي الذي نفذ إلى البلاد الإسلامية ترجع أصوله إلى القرآن والسنة، حيث طبع البلاد الإسلامية بطابع واحد؛ فنجد تشريع الأسرة وعلاقة أفرادها بعضهم ببعض، ونجد التشريع الذي ينظم العلاقات المالية والتجارية، ولم يطرأ على هذا التشريع أي خلل إلا بعد دخول التشريعات الأجنبية، حيث إن كثيراً من البلاد الإسلامية استبدلت القانون الشيوعي بأحكام الشريعة، وبقي البعض يطبقون الشريعة الإسلامية بالاتفاق فيما بينهم، وخصوصاً المسلمين الواقعين تحت الحكم الشيوعي.

أيضاً يرى –رحمه ا لله– أن هذه العوامل الفكرية والثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية ولدت أمرين:

أحدهما: أن الشعوب الإسلامية تؤلف بمجموعها (عالماً إسلامياً) ويمكن القول: إن هناك (مجتمعاً إسلامياً) أو جماعة إسلامية أو هيئة إسلامية تتجسد في كل واحد من هذه الشعوب.

ثانيهما: تميُز العالم الإسلامي، أو المجتمع الإسلامي، عن العالم الآخر من ديمقراطي غربي، واشتراكي ماركسي، ووثني آسيوي إفريقي[1].

---

(١) انظر : الأمة والعوامل المكونة لها، ص٢٩-٣٢.

المبحث الثالث :

منهجه وجهوده في مواجهة الغزو الفكري .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : ظهور الغزو الفكري .

المطلب الثاني : آثار الغزو الفكري على المجتمع المسلم .

المطلب الثالث : علاج هذا الغزو .

تمهيد:

بعد عصر الانحدار الذي شهده المجتمع الإسلامي، وما تبع ذلك العصر من تيارات فكرية تعاقبت على الأمة الإسلامية، مما كان له أعظم الأثر وأعمقه على أجيالها حيث كان ذلك بداية شرارة الغزو الفكري بمفهومه الحديث، الذي قام عندما أخفق الصليبيون في الغزو العسكري، فلم تجد مواجهتهم مع المسلمين نفعاً حيث كانوا يبيعون أرواحهم للموت، في سبيل إعلاء كلمة الله، ففكروا في غزو يكون أشمل من ذلك الغزو، ويحقق نتائج أسرع، فدرسوا أصول الإسلام والمسلمين، ووضعوا الخطط المواتية للقضاء عليهم، فكان الغزو الفكري الذي يتميز بالشمول والامتداد، فهي حرب لا يحصرها مبدأ، بل تمتد لتصل إلى جميع شئون الحياة.

وقبل أن ابدأ الحديث، أبين أولاً المقصود بالغزو في اللغة والاصطلاح:

معنى الغزو في اللغة: غزا الشيء غزواً: أراده وطلبه.

والغزوة: ما غزي وطلب، والغزو القصد، والغزو السير إلى قتال العدو وانتهابه[1].

معنى الغزو في الاصطلاح: إذا أضيف إلى الفكر فقد عرفه العلماء بعدة تعريفات نذكر منها:

"تلك الوسائل غير العسكرية التي اتخذها العدو لإزالة مظاهر الحياة عند الخصم، وصرفه عن التمسك بعقيدته ودينه وما يتصل بهما من أفكار وقيم وتقاليد وأنماط وسلوك" [2].

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ص٦٦-٦٧.

(٢) الثغرات التي يتسلل منها الغزو الفكري وسبل تلافيها. د. عبد القادر محمد عطا صوفي، ص٩، دار العلوم والحكم، سوريا، ط: ١، ١٤٢٤هـ.

وأنه: "دخول فكر إنسان أو مجتمع ما فكر وعقيدة مجتمع آخر أو العمل على زعزعة فكره من الداخل عن طريق وسائل الفكر الأجنبي وأساليبه" (١).

أما منهج الشيخ المبارك -رحمه الله- في مواجهة هذا الغزو فقد انطلق من المنهج القرآني المؤيد بالسنة الصحيحة، حيث رأى أن نقابل هذا الغزو وهذه النظم والمذاهب الهدامة بنظام عقدي إسلامي موحد، ونصوغ نظرتنا الذاتية الجديدة من خلال فهمنا واجتهادنا الذي لا يتجاوز هذا النظام الإسلامي، مع مراعاة أن يكون ذلك في ضوء الواقع والمشكلات المطروحة، لكي نصحح ما حدث في العصور السابقة من انحراف وتشويه للمفاهيم الإسلامية.

أما جهوده -رحمه الله- فقد تمثلت في إظهاره لمراحل ظهور هذا الغزو، والآثار التي خلفها، وما يبذله -رحمه الله- من جهود في إيجاد الحلول المناسبة، والعلاج الناجع لصد هذا الغزو، أو التقليل من خطره على الأمة، وذلك يظهر في الصفحات التالية.. .

المطلب الأول: ظهور الغزو الفكري:

ظهر الغزو الفكري بعد الالتقاء مع أوروبا، وذلك في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، حيث كانت أوروبا في ذلك الوقت في أوج عظمتها وقوتها بعد النهضة الصناعية والحضارية الكبرى التي أقامتها، فأحست بالزهو وشعرت بالقوة، فأخذت تعد العدة لبسط نفوذها الحربي والاستعماري على البلاد الإسلامية، التي كانت في ذلك الوقت في حالة يرثى لها من الضعف والركود والانحلال، وفقدان للحيوية الفكرية والعملية في جميع جوانب الحياة، ووقفت أمام تلك الحضارة مذهولة ومعجبة بما وصل إليه الغرب من تقدم ولكنهم في الوقت نفسه

---

(١) الغزو الفكري العسكري الصليبي وخطورته على الأمة العربية والإسلامية، أ.د. علي هود باعباد، ص٣٧، مكتبة الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، صنعاء، ط: ١، ١٤٢٦هـ.

كانوا يشعرون بخطر تلك الدول المستعمرة التي أخذت في الزحف نحوهم، وعندما أرادوا تجميع قواهم وجيوشهم وتنظيمها على غرار تنظيم الجيوش الغربية، وجدوا أن ذلك لن يتم إلا إذا كانت لديهم نهضة علمية يستندون إليها. وعندما استيقظ العرب وجدوا أن الغرب قد سبقهم بآماد بعيدة وأن الأمر ليس بالسهولة التي يتصورونها، وقد كانت الجيوش الغربية الحديثة تعتمد على خبرات علمية في الهندسة، وفي العلوم الطبيعية والكيميائية، وكانت ترعاها خبرات طبية وبيطرية، وكانت هذه الخبرات جميعاً تحتاج إلى إعداد طويل في نماذج من المدارس تختلف عن النماذج التي انتهى إليها التعليم في البلاد الإسلامية، حيث أصبح مقصوراً على العلوم الشرعية، وما تحتاج إليه مما كان معروفاً بعلوم الوسائل، أي أن العلوم الأخرى لم تكن تُدّرس إلا لكي تكون وسيلة لفهم العلوم الشرعية وتطبيقها، عند ذلك تطلع المسلمون إلى نقل العلوم الغربية، أو التي تفوّق فيها الغرب، لتحقيق هذا الهدف الحربي، وهم تحت وطأة الشعور بخطر وضعهم الحربي الضعيف. واتخذ هذا النقل طريقين: أرسلت بعثات إلى البلاد الأوروبية في بعض الأحيان، واستقدم أساتذة وخبراء غربيون في أحيان أخرى للتدريس في المعاهد العلمية على اختلاف أنواعها ودرجاتها، وللتخطيط للنهضة الحربية المأمولة[1].

وبذلك غزت العلوم الغربية بلاد المسلمين بكل ما تحمله من فلسفات ومذاهب وعقائد فاسدة، يروج لها الغرب بين أبناء الإسلام، فاعتلت العرش؛ وذلك لأنها وجدت حتى من أبناء هذا المجتمع الإسلامي من يعينها على الدخول ثم من يكون جندياً يحارب في صفوفها[2].

---

(١) انظر: الإسلام والحضارة الغربية، ص١٦.

(٢) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص١٠٥.

فتشوهت بذلك مفاهيم الإسلام وضعفت في النفوس، وأصبح المسلم مكبلاً بكل ما تمليه عليه هذه الحضارة الغربية من مفاهيم وآراء، وقد نسي أو تناسى أنه هو الذي بالأمس القريب قد أمد هذا الغازي بقاعدة علمية رصينة بنى عليها نهضته العلمية التي وصل إليها.

ولقد مر ظهور ذلك الغزو في الأمة الإسلامية بعدة مراحل تمثلت في:

١- شعورهم بالنقص في أنفسهم:

حيث مر الإسلام بمرحلة من الضعف والركود، وذلك بعد مرحلة ازدهار الإسلام وقوته، وقبل مرحلة الغزو الفكري للمجتمع الإسلامي، فكانت سبباً في فتح الطريق لهذا الغزو، وقد شعر المسلمون بالنقص في أنفسهم في هذا الوقت، وضعف التفكير العلمي لديهم، وتوقفوا عن السير في كشف سنن الكون، وفقدوا الإبداع العلمي الذي عُرف به المسلمون في القرون الأولى للإسلام في شتى المجالات، فنجد في مجال الفقه الإسلامي أصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزه، ويأخذون هذه الأقوال مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة، كذلك أهملوا في الجوانب الاجتماعية، وأصبحت قضايا المسلمين العامة لا يُهتم بها، ولا يُلقى لها بالاً، بل كلٌ مشغول بقضاياه الفردية الخاصة، فضعف الوعي العام لدى المسلمين لدينهم، وانشغلوا عن أمر المسلمين وقضاياهم، فغيروا وبدلوا في صورة الإسلام الصحيحة وشوهوا مفاهيمه.

٢- إعجابهم بالغازي المستعمر القوي:

بعد أن التقى المشرق الإسلامي بحضارة الغرب الناشطة التي اكتسحت بقاع الأرض، أعجب المسلمون بتلك الحضارة، وكان الذهول والاندهاش هو أول ردة فعل لهذا اللقاء، وقد تكشف هذا الذهول والاندهاش عن اتجاهين:

أحدهما: اتجاه محافظ يدافع عن الكيان كما هو بخيره وشره، وبما فيه من عناصر أساسية ثابتة، وعناصر ثانوية مؤقتة، ولا يشعر أن هناك مشكلة تتطلب حلاً.

والآخر: يأخذ عن الغرب وينقل ويقتبس ويقلد، دون وعي وتمييز، بل بكل إعجاب بما تمليه عليه هذه الحضارة[1].

٣- النقل والتقليد والاتباع:

انتقل هذا الغزو من تقليد الظواهر إلى البواطن، ومن الماديات إلى المعنويات، ومن السطوح إلى الأعماق، ومن العادات إلى القيم والمقاييس الخلقية،

١) أنها كانت تقوم على أساس نفسي وإعجاب بالغرب بل إكبار وتقديس وشعور بالنقص.

٢) قامت أيضاً على الأخذ بالمثل العليا التي اتخذها الغرب مُثلَهُ وغاياته في الحياة، واتخاذ قيمه الأخلاقية ومقاييسه في الحياة أساساً لحياتنا، ونقوّم بها أيضاً حضارتنا وديننا.

٣) وعن هذا الطريق انتقلت إلينا أفكار خاطئة قبلناها على أنها بديهيات مسلمة وزيناها بألفاظ، وأحطناها بهالة من السحر، كالتقدمية والتطور والتجديد، وقبحنا ما يخالفها بألفاظ جعلناها منفرة.

٤) ومن خصائص هذه المرحلة أيضاً أنها بعثت الحركة والحيوية فينا على كل حال، وكانت المحرّض على السير وعلى التأمل والتفكير وعلى تغيير الحال.

٥) إن هذه المرحلة التي وصفنا خصائصها مرحلة طبيعية لم يكن بد من أن نمر بها، ولكنها استغلت من بعض المستشرقين الأجانب عموماً لتوجيهها وجهة

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، ص١٠٠، وانظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص٥٤-٥٥.

تقضي على خصائصها وتحول دون بعث حضارتنا وظهور ذاتيتنا وعودة ديننا إلى صورته النقية الصافية، واستغلها داخلياً أصحاب الأهواء على حساب ديننا وتراثنا وأوطاننا[1].

المطلب الثاني: من آثار الغزو الفكري على المجتمع الإسلامي :

بين المبارك – رحمه الله– أن هذا الغز الفكري على رغم ما فيه من مساوئ يصعب حصرها، إلا أن المجتمع الإسلامي قد جنى منه بعض الفوائد على مختلف الأصعدة، وكان له بعض الآثار التي أيقظت شرقنا الإسلامي من جموده وسباته وتتمثل في: –

أ) غزو التفكير العلمي والنهضة الفكرية الحديثة للركود والجمود والخرافة التي كانت من مظاهر التفكير في الشرق الإسلامي. حيث قامت في الشرق نهضة علمية أوجدت وعياً فكرياً، ولكن رافقها نظرات مادية ومذاهب إلحادية انتقلت من الغرب مع هذه النهضة.

ب) انتقال النهضة الاجتماعية من الغرب إلى الشرق، سواء من الناحية العمرانية ووسائل المواصلات والعادات، وحل الكثير من ذلك محل الطرائق القديمة في الحياة، وأخذ هذا التبدل يعم الطبقات وينتشر في مختلف البيئات، وأصبح تحسين مستوى المعيشة، وتأمين الرفاهية واتخاذ وسائلها غاية أساسية لدى جميع الطبقات.

جـ) حلول الفعالية الاقتصادية الجديدة محل الضعف والتواكل والانعزالية التي فشت في الشرق الإسلامي، فقامت في الشرق نهضة صناعية، ونشطت التجارة بينه وبين الغرب، ودبت الحياة في عروقه، حتى احتلت القيم الاقتصادية والمالية المكانة الأولى في الشرق.

---

(١) انظر:المرجع نفسه ص١٠٣-١٠٣

د) استغلال الغرب ضعف الشرق، فدفعته دوافع الكسب والمال إلى الغزو والاحتلال بعد أن ضعفت روح الجهاد في الشرق الإسلامي، وعم الاستعمار جميع البلاد.

هـ) انهيار جميع أنظمة الحكم الاستبدادية والفردية المطلقة أمام الأنظمة الغربية المبنية على أسس شعبية وثورية، فأحدث ذلك وعياً سياسياً في طبقات الشعب في الشرق، ولكن هذا الوعي السياسي لم يجد أمامه إلا القوالب التي صاغها الغرب فاتخذها قوالب له[1].

ورغم هذه الفوائد التي جناها المجتمع الإسلامي في حياته العامة إلا أن شرقنا الإسلامي لو بقي على ما هو عليه من التكاسل والجمود، لكان ذلك أفضل مما وصل إليه اليوم من تقدم أفقده هويته الإسلامية وكل مقومات الدين والأخلاق والشرف، فلربما قيض الله له من أبنائه من يعود به إلى سابق عهده؛ لأن المجتمع الإسلامي بنى قيمه وأخلاقه وعاداته على أساس الإسلام القوي، فلو لم ينجرف ذلك الإسلام مع تلك النهضة المزعومة التي قضت عليه، لهان كل شيء، ولأمكن إصلاح ما فات نتيجة لذلك التخلف والجمود، ولكن هدفهم كان مدروساً، وخططهم مرسومة وموجهة إلى مكمن قوتنا وعزنا فأصبحنا لقمة سهلة لكل متناول.

أيضاً ما تركه الغزو الفكري من آثار على المجتمعات الإسلامية قد طالت جميع الميادين الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتعليمية. أيضاً ما تسلل إلى مجتمعاتنا من التيارات الفكرية والمذاهب الهدامة التي سبق الحديث عنها في المبحث السابق هي من آثار الغزو علينا، فآثاره أكثر من أن تحصى، ولكن أول آثار هذا الغزو التي ذكرها الشيخ – رحمه الله– ما روّج له الغرب من أفكار تتمثل في الآتي:-

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأخطار الغربية، ص٤٦

أ) الصراع بين الدين والعلم أو بين الدين والعقل، ومن ذلك فصل الحياة إلى جزأين منفصلين، لا يكاد يحدث بينهما اتصال، الدين والدنيا، وفصل الدين نتيجة ذلك عن المجتمع وعن الدولة، بجعل الدين أمراً شخصياً لا علاقة له بالحياة العامة. وهذا أيضاً من المفاهيم التي انتقلت إلينا وأدت إلى مفهوم العلمانية، ومعناه حياد الدولة وعدم تدخلها في شؤون الدين.

ب) أيضاً نسبية الأخلاق: حيث إن بعض المذاهب الفلسفية والاجتماعية في أوروبا تقول: إن الأخلاق ليس لها مقاييس ولا أحكام ثابتة، فلكل قوم أخلاقهم؛ فقوم يرون أن شرب الخمر رذيلة وشر، وغيرهم يرى فيها غير ذلك، وغيرهم يرى أن الزنى شر ورذيلة، وبعضهم يرى فيه إكراماً للضيف فالقضية نسبية، ليس لها قاعدة أخلاقية مطلقة.

ومن تأثر أبناء الإسلام بهذا المفهوم، ما تناقلته وسائل الإعلام قبل أيام قلائل، عن شيخ الأزهر[1] وذلك في حديثه مع إحدى بنات المسلمين المحجبات، حيث أمرها بنزع الحجاب باعتباره عادة وليس عبادة، فقد اعتبر الحجاب الإسلامي، الذي أوجبه الله عز وجل على نساء المسلمين، وقد ذكر في آيات صريحة جاءت من فوق سبع سماوات، عادة، ليس لها قاعدة أخلاقية ترتكز عليها إنما هو موكول إلى عوائد الناس واختيارهم وتناسى قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2].

فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ أي التي تكون فوق الثياب من ملحفة، وخمار، ورداء ونحوه، فيغطين بها وجوههن وصدورهن، وإن

---

(١) هو محمد سيد طنطاوي.

(٢) سورة الأحزاب آية (٥٩).

الحكمة في ذلك أنهن إذا لم يحتجبن ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذيهن، فيكون الحجاب حاسماً لمطامع الطامعين فيهن[1].

وقال ابن مسعود، وعبيدة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وعطاء الخراساني، وغيرهم: إن الجلباب هو: الرداء فوق الخمار، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة[2].

كذلك قال الواحدي وقال المفسرون في هذه الآية: المقصود أنهن يغطين وجوههن، ورؤوسهن إلا عيناً واحدة[3].

ويستنتج من ذلك أن جميع من قال في الحجاب من الصحابة والتابعين وغيرهم قد اتفقوا على أن المقصود بقوله تعالى:(يدنين عليهن من جلابيبهن) هو غطاء الوجه بالجلباب الذي هو فوق الخمار.

لذلك فإن وصف هذا الحجاب بأنه عادة وليس عبادة، فيه تعدٍّ على حرمات الله، التي ينبغي للمسلم أن يضع بينه وبينها حدوداً حتى لا يقع في المحظور.

وإن هذا الحجاب الشرعي للمرأة لم يكن بدعاً في شريعة الإسلام، بل كانت شرائع الله جميعاً تحث عليه قبل الإسلام، حيث نرى ذلك في لباس الراهبات المحتشم عند النصارى المقيمين في البلاد الإسلامية، وفي سائر البلاد الغربية، فالتنكر لفكرة تستر المرأة واحتشامها إنما هو خروج عن تعاليم الأديان السماوية جمعاء. ورغم محاربة الحجاب وابتكار الغرب لأساليب العري والغواية والانحلال، فإن دعواهم قد باءت بالإخفاق

---

(١) انظر : تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص٦١٨، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط:٩، جديدة ومنقحة ومصححة ، ١٤١٨هـ.

(٢) انظر :تفسير القرآن العظيم لابن كثير ص٢٣١، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط: ١، ١٤٢٢هـ.

(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني ص٥٢٩، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط: ١، ١٤٢١هـ.

أمام جهود أبناء الصحوة الإسلامية المنتشرين في أنحاء العالم، وعادت المرأة إلى زيها الإسلامي المصون وحجابها الشرعي رغم أنف دعاة التغريب والشر والفساد. فنسأل الله لها الثبات في زمن المتغيرات الذي أصبحت فيه أبواق الباطل يعم الفضاء ضجيجها[1].

جـ) اعتبار التطور قانوناً أخلاقياً: أي اعتبار كل طور جديد أفضل من الطور الذي سبقه على الإطلاق، مع أن التطور قانون اجتماعي واقعي ولا يقتضي مطلقاً تفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة، ومما يلاحظ في الطبيعة أن التطور لا يتجه دوماً نحو الأفضل والأحسن ولا يكون دوماً تحسناً وتقدماً؛ بل قد يكون متجهاً نحو الأسوأ وهو التردي؛ ولذلك كان من الخطأ ظن بعض الناس أن كل تطور حسن، وأن كل طور أفضل من الطور الذي سبقه[2].

ومن أبسط الأمثلة على تلك الآثار ما نراه في حياتنا من تخلي كثير من أبناء الإسلام عن عاداتهم وتقاليدهم التي رباهم عليها الإسلام، وشدة ولعهم بالعادات والتقاليد الغربية واعتبارها تطوراً وتقدماً، وأفضل من الطور الذي كانوا عليه حتى لو كانت منافية للإسلام، وذلك ما نراه من متابعة الأزياء، سواء في اللباس أو قصات الشعر، أو عادات الأكل، فوصلوا إلى ما نرى من عري المرأة، ومشابهة الرجال للنساء، ومن التشبه بالحيوانات في بعض القصات، كذلك الانتقال من عادة الأكل باليمين التي وجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، صحابته إليها إلى عادة الأكل بالشمال. فانتقلنا من طور أفضل إلى طور أردأ.

د) أيضاً من آثار الغزو ازدواج الشخصية الإسلامية. فمن المسلمين من هو مسلم في شعائره ولكنه غير مسلم في تفكيره، بمعنى أنه يتألف من شخصيتين مزدوجتين. فهو قد

(١) انظر: شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة، د. محمد علي الهاشمي ص٥٤-٥٦. دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط: ٧، ١٤٢٦هـ.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص١٨٨.

عاش في بيئة اعتادت التدين، ولكن ليس لها من المفاهيم الفكرية الإسلامية ما يتناسب مع مستوى تفكيره فهو يفكر تفكيراً غير إسلامي إذا فكر في شؤون الحياة، سواء الحياة العامة الفكرية، أم الاجتماعية والخلقية والسياسية أو غير ذلك، حيث كان هناك تعليم إسلامي قديم بطريقته، ووسائله ومستواه، وتعليم حديث مصدره أوروبا، فأدى إلى الازدواج، وبسبب الأزمة الفكرية النفسية التي حدثت بدا على بعض الناس ظواهر غريبة مثل تأويل كثير من أحكام الإسلام تأويلاً فيه كثير من المواربة والفسق، من أجل أن يطابق بين الإسلام والمذاهب الأخرى على حساب الإسلام، وقد استشهد الشيخ - رحمه الله- على ذلك بالتماثيل.

حيث أن كثيراً من المتدينين يحاول أن يسوغها ويحللها ويروّج لها في مجتمعنا الإسلامي الحديث لأن إقامة التماثيل كان محرماً لعلل وقد بطلت هذه العلل على زعمهم وزالت، فيرى -رحمه الله- أن ذلك باطل من أساسه لأن الفكرة هي أعمق مما يظنه هؤلاء السطحيون ممن يريدون بهذه الطريقة الدفاع عن الإسلام - فإقامة التمثال له معزى فلسفي عميق لأن الأمة التي تقيم تمثالاً لبطل من أبطالها إنما تجسد البطولة في شكل مادي، ولو رجعنا إلى العصور الإسلامية لوجدنا أن إعطاء الشخص في جسمه وذاته قيمة عليا فكرة مردودة، فأعظم شخصية في الإسلام شخصية الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي يعتبر بشراً ولكنه فوق كل البشر، والطريق التي اتخذها المسلمون لتخليده أنه كان تخليداً معنوياً خالصاً. كما يذكر -رحمه الله- أنه أقام في باريس ورأى فيها كثيراً من هذه التماثيل، فكان كثير من الذين يزاملونه في الدراسة لا يعرفون كثيراً من هذه التماثيل ولا معانيها ولا نواحي البطولة التي يمثلها أصحابها- إذا فالقضية ليست قضية تحليل التماثيل بالتماثيل حيث يرى شيخنا أنها محرمة في الإسلام لفلسفة عميقة هي أعمق بكثير مما يظن

هؤلاء السطحيون من الذين يحسبون أنهم يدافعون عن الإسلام بإخضاعه لنظم هي أدنى منه ولمقاييس هي دون مقاييسه[1].

هـ) تشويه المفاهيم الإسلامية:

فقد كان الإيمان وهي الكلمة القرآنية، محتوياً على معنى عقلي ونفسي وعاطفي ملتبسة متداخلة كل التداخل في العهد الأول للإسلام، وإذا بنا نرى أن الإسلام يتشعب إلى شعب ثلاث، شعبة تأخذ بمظاهر الأحكام والشعائر في العبادات والمعاملات، وفرع يأخذ من الإسلام بنواحي الاعتقاد العقلي وهو الكلام والعقيدة، وفرع آخر يأخذ بالنواحي القلبية والخلقية وهو الأخلاق والزهد؛ فكان يغلب على الرجل أن يكون متفقهاً ، متكلماً، أو زاهداً متصوفاً. فهذا يعطي عن الإسلام صورة جانبية: إسلام علم الكلام، وإسلام الأخلاق، وإسلام الفقه. والإسلام هو الإسلام، وتشعب هذه النواحي يعد تجزئة لحياة موحدة لا يحصل في أجزائها ما يحصل في تركيبها في جملة واحدة، وإسلام الصدر الأول يجمع هذه العناصر الثلاثة جمعاً منسجماً متوازناً حيوياً[2].

المطلب الثالث: علاج هذا الغزو :

قد اجتهد – رحمه الله – في الوقوف في وجه هذا الغزو فاقترح عدة حلول مناسبة لمثل ما نحن عليه اليوم.

حيث يرى أنه على الرغم من أن هذا الغزو قد كان له أثر واضح على أمتنا إلا أنها خلال ما تلقته من حضارة عن طريق النقل والتقليد، تكوّن لديها مرحلة جديدة من الوعي الذاتي.

وحتى يكون هذا الوعي كاملاً لابد أن تجتمع فيه ثلاثة عناصر:

---

(١) انظر : الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأخطار الغربية، ص٥٦-٥٩.

(٢) انظر: المرجع نفسه ص٦٠-٦١.

- وعي المبدأ أو العقيدة أو الرسالة التي تدين بها تلك الأمة وتعمل من أجلها وتقيم الحياة على أساسها.
- ووعي الكيان أو الجماعة البشرية كجماعة متميزة بذاتها، سواء أكانت هذه الجماعة مؤلفة من شعب واحد أم من شعوب متعددة.
- ووعي الموقف أي إدراك المرحلة التي تمر بها والموقع الزماني والمكاني الذي تكون فيه بظروفه وملابساته[1].

كما يرى – رحمه الله – أنه لإنضاج هذا الوعي، وعي الرسالة والمبدأ، شروطاً يجب تحقيقها:

١- تقديم الإسلام في صورته الكاملة كبناء ونظام شامل لا في جزئيات منشورة وتفصيلات مفرقة، حيث سادت في العصر الماضي عقلية الجزئيات والتفصيلات فحجبت عن أذهان الناس الصورة التامة الواضحة للإسلام؛ لأن مزية الإسلام أن نظرته كلية شاملة لم يجزئ الحياة بل نظر إليها نظرة موحدة متصلة ولو أنها كانت هي نفسها أقساماً. ولو استعرضت كتاب الله لخرجت منه بفكرة محيطة شاملة تحيط بالكون والإنسان ونواحي حياته ونشاطه وتربطها جميعاً بخالقها ونهايتها.

فالأساس في رسالة الإسلام إنما هو الأساس الإيماني، ويرتبط بهذا الأساس الإيماني رياضة روحية هي نظام العبادات بأنواعها المختلفة، وهذا النظام حلقة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها، لأنها هي التي تصنع الأساس النفسي بعد الإيمان الصالح لدخول معترك الحياة، وتعدها لتقبل نظام الأخلاق في الإسلام، وهو الحلقة الثالثة حيث يرتبط بما قبله من الإيمان وبما

---

(١) انظر :نحو وعي إسلامي جديد، محمد المبارك، ص١١٠ ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، ط: ٢، ٣، ١٣٨٩هـ.

بعده من نظم الحياة الفردية والاجتماعية. ويرسم الإسلام بعد ذلك لحياة الإنسان خطوطها الكبرى ومعالمها الواضحة في الأسرة، والكسب والاقتصاد على أسس جامعة متوازنة عادلة، ويقيم دولة وظيفتها رعاية هذا النظام الكامل، وحماية هذا الجهاز الإنساني الضخم ليسير سيره الطبيعي ويرتقي ويسمو في جميع الآفاق.

٢- من الشروط لإنضاج الوعي الإسلامي، وضع الأمور في نصابها، وإعادة النّسَب إلى أصلها في ترتيب أجزاء هذا البناء الذي بناه الإسلام.

إن الإسلام جعل لكل ناحية من نواحي الحياة ومطلب من مطالبها نسبة محدودة لا يتعداها، وأفرد ترتيبها بحسب أهميتها، فجعل لكل من العبادة والجهاد والزكاة والكسب حصة ونسبة، وجعل للجسم والعقل والمال واللذة واللهو والعمل وفقاً ومقداراً. فإذا بنا نرى أن العصور المنحرفة غيرت هذه النسب أو إذا بالجهاد مثلاً يحذف من كثير من كتب الفقه المختصرة أو يخصص له صفحات قليلة، ولا يخص في المواعظ وهو من أركان الإسلام الكبرى، كذلك لا ينبه إلى أهمية الزكاة بمقدار ما ينبه إلى بعض السنن والنوافل.

فمن هنا تعرف خطأ الذين يجعلون همهم تصحيح بعض الأمور التي لا تعد شيئاً بجانب فساد العقيدة، ويتعصبون لرأيهم فيشغلون الناس ويصرفونهم عن أسس العقيدة المهددة.

٣- ومن شروط الوعي أيضاً العودة في فهم الإسلام إلى ينابيعه الأصلية من الكتاب والسنة وفهم الصحابة، وإزالة الحجب التي فصلتنا عنها، واعتبار الآراء المستنبطة خلال العصور فهوماً لعلماء المسلمين يستفاد منها[1].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص ١١١-١١٨.

أما وعي المرحلة أو الموقف يتطلب منا :

١- أن ندرك الجو الفكري الذي نعيش فيه حين نعرض العقيدة الإسلامية نعرضها على أنها ثابتة لا تتغير، ولكن طريق الخطاب والعرض هو الذي يتغير، فلو عدنا إلى القرآن لوجدنا عناصر هذه الطريقة جلية واضحة ،فلم يعد من الجائز أن نعرض العقيدة كما يعرضها التفتازاني[1] في مقاصده أو النسفي[2] في عقائده فنبحث مشكلات لا وجود لها ونناقش فرقاً انقرضت، ثم نهمل مشكلات قائمة وفرقاً ومذاهب موجودة.

٢- أن نعلم أننا نُع الإسلام في جو ملوث موبوء فلنحاول، شعباً وحكومة، تطهير هذا الجو حتى يجد الإيمان العواطفُ المنبعثة عن الإيمان بالله والشعورُ بالصلة به وبالمسئولية أمامه طريقاً إلى القلوب والنفوس، فإن عوامل الهدم التي تحجب القيم الروحية التي جاء بها الإسلام، منها ما هو عقلي وفكري ، ومنها ما هو نفسي عاطفي.

٣-يجب أن ندرك الظروف التي نبحث فيها الحكم الفقهي في التشريع فنحن بين اتجاهين منحرفين يجب أن نتجنبهما، أحدهما: المذهبية الضيقة والجمود المنافي لفهم روح الشريعة ومبادئها العامة. وثانيهما: الوقوع تحت تأثير المفاهيم الأجنبية. ومن

---

(١) التفتازاني:هو العلامة سعد الدين مسعود بن عمر بن عبدالله الهروي الخراساني، الفقيه الأديب التفتازاني، ولد سنة (٧٢٢) وتوفي (٧٩٢) بسمرقند له عدة مصنفات منها؛ إرشاد الهادي في النحو، تهذيب المنطق والكلام، دفع النصوص والنكوص، قوانين العرف، فتاوي الحنفية... وغيرها، سجنه الشاه إسماعيل الصفوي (الشيعي) بعد أن تجاوز السبعين من عمره، حيث كان يعد في ذلك الوقت أكبر فقيه في العالم الإسلامي في عصره، والمرجع الديني لإيران، وما وراء النهر، والهند، والدولة العثمانية ثم بعد ذلك قتله الشاه إسماعيل.

كيف صار الإيرانيون شيعه ؟ د. أمير حسين خنجي، ترجمة د. أحمد حسين بكر، مكتبة النافذة الجيزة، ط: الأولى ٢٠١٠م.

(٢) النسفي : هو العلامة المحدث، أبو حفص، عمر بن محمد بن أحمد بن لقمان النسفي الحنفي، ولد سنة (٤٦١هـ)، من اهل سمرقند ، وهو مصنف تاريخها الملقب بالقند، ونظم " الجامع الصغير" ، ألف في الحديث، والتفسير، والشروط، وله نحو من مئة مصنف.

تهذيب سير اعلام النبلاء، للذهبي، ص٥٦٣، مؤسسة الرسالة، بيروت ط: الأولى، ١٤١٢هـ.

الأمثلة على ذلك أنه تواجهنا وتدخل حياتنا الاجتماعية طرائق وتنظيمات وعادات اجتماعية جديدة كثيرة، منها لا يتفق مع معتقداتنا الصحيحة ومبادئنا الخلقية القومية، وذكر الشيخ المثال السابق الذي ذكره كمثال في تغير المفاهيم الإسلامية، وهو التماثيل، وهي الطريقة التي استخدمتها أوروبا وأمريكا في تخليد أبطالهم[1].

أما وعي الذات أو الجماعة البشرية التي ننتمي إليها:

يرى الشيخ أن الرسالة والعقيدة لا تعيش مستقلة بنفسها عمن يحملونها بل لابد لها من شعب أو عدد من الشعوب يضطلعون بحملها، فكان شرط نشر أي رسالة هو أن يشعر شعب من الشعوب بكيانه مرتبطاً بتلك الرسالة.

فكان من مظاهر انحطاط المسلمين في العالم فقدان الشعوب الإسلامية لوعيها الذاتي أو ضعفه، وقد بدت هذه الشعوب اليوم تشعر بوجودها وكيانها وموقعها في العالم وبين شعوبه[2].

ويقول – رحمه الله – أيضاً: "إن أهم ما يتوقف عليه حل مشكلاتنا والخروج من الأزمات الماثلة في حياتنا الفكرية، والاجتماعية ، والسياسية، والاقتصادية، وأخطر ما يتوقف عليه كياننا ونهضتنا وخلاصنا هو الإسراع في تصفية مرحلة التلفيق والتبعية، وتعميم وعي المرحلة الذاتية هذه في جماهير الشعوب الإسلامية، وتعميق هذا الوعي جهد الطاقة في الأوساط الخاصة، وإذا تم ذلك فستنهار جميع الأنظمة العقدية والفكرية والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، والفنية المتصفة بالتقليد والتبعية"[3].

---

(١) انظر: نحو وعي إسلامي جديد ص ١١٨-١٢٢.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص١٢٣.

(٣) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، ص١٨.

المبحث الرابع :

منهجه وجهوده في مجال الدعوة .

وفيه مطالبان :

المطلب الأول : أهمية الدعوة في حياته رحمه الله .

المطلب الثاني: جهوده العلمية في الدعوة .

تمهيد :

تعتبر الدعوة إلى الله من أهم ما كلف الله عز وجل بها رسله -عليهم الصلاة والسلام- حيث تجد أن القرآن الكريم حض على القيام بهذا الواجب ودعا إليه في العديد من آياته. قال تعالى: ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[2]، أيضاً كان النداء إلى هذه الدعوة من أوائل الآيات التي نزلت إلى نبي هذه الأمة -صلى الله عليه وسلم- فكانت الدعوة إلى الله أول مهمات نبينا -عليه الصلاة والسلام، وأمته من بعده حيث كلفها الله مهمة التبليغ لهذا الدين إلى كافة الناس. قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[3].

أيضاً جاءت السنة زاخرة بالدعوة إلى القيام بهذه المهمة فقد قال صلى الله عليه وسلم: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً"[4].

وقال صلى الله عليه وسلم: "لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم"[5].

---

(١) سورة الحج آية (٦٧).

(٢) سورة المائدة آية (٦٧).

(٣) سورة آل عمران آية (١٠٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنه (٦٨٠) برقم (٢٦٧٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة: (٥٦٥)، برقم (٢٩٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي ﷺ: (٦١٩) برقم (٢٤٠٦).

فكان من طبيعة هذه الدعوة، أنها موجهة إلى كافة البشر على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم، وثقافاتهم وبيئاتهم وميولهم، واتجاهاتهم؛ وذلك يفرض على الدعاة إلى الله أن يكونوا بارعين فيما يدعون إليه، وعلى علم به وبصيرة؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

كما يلزم الدعاة أن يفقهوا حال المدعوين، وما يحتاجون إليه من توجيهات، ويحاولوا جهدهم في إقناعهم بالأسلوب الذي يؤثر فيهم، مع الإلمام بما حولهم من أحداث، فيحذّرون منها أو يدعون إليها.

أما منهجه – رحمه الله – في الدعوة إلى الله : سلك فيه مسلك الدعاة إلى الله من النبيين والصالحين، واقتفى أثرهم، وجعل كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- هي الهادي له إلى طريق الحق والنور؛ فكان -يرحمه الله- لا يخشى في الحق لومة لائم، ولا يخشى عدواً ولا مستعمراً، مما عرَّضه -رحمه الله- للسجن عدة مرات نتيجة وقوفه في وجه الاستعمار وتوضيح خطره.

كما كان -يرحمه الله- مثال المؤمن الغيور على دينه، ومن المبادرين إلى الإرشاد والتوجيه ضد حملات التشكيك الغربية التي طالت الأمة الإسلامية في مُثلها وقيمها، وحضارتها، ودينها، ولغتها.

والمُطَّلع على مؤلفاته يرى فيها الداعية والمفكر الذي نذر نفسه لخدمة الإسلام والمسلمين.

كما أنه بذل قصارى جهده من أجل أن يرجع المسلمون إلى دينهم، وأن يعود الإسلام كما كان صافياً نقياً بعيداً عن دنس المفسدين والعابثين، وقد تمثلت أهم جهوده في الدعوة في الآتي:

---

(١) سورة يوسف آية (١٠٨).

المطلب الأول: أهمية الدعوة في حياته - يرحمه الله - :

لقد كان رحمه الله ممن أدركوا أهمية الدعوة إلى الله فأولاها جل اهتمامه وجهده ولم يتوان في سبيلها، حيث كان للتربية والبيئة الإسلامية التي عاش فيها في كنف والده تأثير في سلوك هذا الطريق، وكذلك سفره إلى باريس وما رآه من فساد وانحلال خلقي زاده إصراراً على طريق الدعوة، فوقف حياته عليها منذ وقت مبكر. وقد كانت الدراسات الإسلامية والاجتماعية، واللغة العربية والاهتمام بالمجتمعات الإسلامية، ودراسة العوامل والتيارات الفكرية المعارضة للإسلام، والتي تؤثر في بناء هذه المجتمعات من أهم الدراسات التي اهتم؛ بها لأنه كان محتاجاً إليها في مجال الدعوة الإسلامية، وكان على صلة بكل ما يدور حوله من أحداث في العالم الإسلامي ويشارك فيها بالرأي والفكر والكلمة. كما أنه -رحمه الله- له جهده المبذول من خلال إلقاء المحاضرات العامة والدعوة إلى الإسلام والتعريف به وبواقع المسلمين وأحوالهم في العالم الإسلامي، وخاصة بعد إسناد التفتيش لمادتي اللغة العربية والدين إليه، ثم أقصي عن التفتيش لعرقلة هذه الجهود.

وقد أوضح رحمه الله أن للدعوة الإسلامية ثلاثة عناصر اقترنت بها وتلازمت معها منذ قيام النبي -صلى الله عليه وسلم- بها وهي:

١) الفكر الذي يتم به الإقناع والذي كانت تتنزل به الآيات لمخاطبة المشركين وإقناعهم والتأثير في نفوسهم، ابتداءً من دعوتهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر.

٢) التزام النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن آمن معه وأصبحوا صحابته بتعاليم الإسلام التي نزلت في الظاهر والباطن، أي العمل بها واستشعارها في نفوسهم المتصلة بالله.

٣) التحرك في سبيل الدعوة الإسلامية ونشرها[١].

المطلب الثاني: جهوده العملية في الدعوة :

أ- من خلال الجمعيات:

كان أول عمل يقوم به -رحمه الله- تجاه الدعوة، وهو لا يزال طالباً في كلية الحقوق بدمشق، وذلك عندما أرادت السلطة الفرنسية إحلال القانون الفرنسي الإيطالي محل مجلة الأحكام العدلية الشرعية التي كانت معمولاً بها في بلاد الشام منذ العهد العثماني، والتي كانت قائمة على المذهب الحنفي في تطبيق الأحكام، أنه قام في وجه الفرنسيين وقاد لذلك حملة علمية وصحفية ضدهم، فكان التوفيق حليف ما قام به فاستطاع إفساد مشروعهم، وأبقى على المجلة حتى عام ١٩٤٩م إذ ألغيت في عهد الانقلاب الذي تزعمه حسني الزعيم [٢]، وأحل محلها القانون المدني المعمول به حالياً [٣].

أيضاً بعد أن سافر المبارك إلى فرنسا للدراسة وخلال وجوده هناك قامت في سورية جمعيات إسلامية تدعو إلى الله، وتعد الشباب المسلم وتزرع فيه روح الجهاد لمحاربة المستعمر الفرنسي، ومن هذه الجمعيات، دار الأرقم، وشباب محمد في حلب، والشباب المسلمون في دمشق، والإخوان المسلمون في حماة. فبعد عودته إلى سورية اشترك في هذه

---

(١) انظر: نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث، محمد المبارك، ص٣٠-٣١.

(٢) حسني الزعيم (١٣١٥- ١٣٦٨هـ) (١٨٩٧- ١٩٤٩م) حسني ابن الشيخ رضا بن محمد بن يوسف الزعيم: ثائر سوري، من أهل دمشق ، من القواد العسكريين، حكم سورية حكماً مطلقاً مدة ١٣٦ يوماً. تعلم في المدرسة الحربية بالآستانة. وقبل أن يتم دراسته جعل من ضباط الجيش العثماني ثم الجيش الفرنسي أيام احتلال سورية. تولى رئاسة أركان الحرب في عهد الرئيس شكري القوتلي، وقد ثار في دمشق متفقاً مع بعض الضباط، فاعتقل رئيس الجمهورية القوتلي ودعا إلى انتخاب رئيس للجمهورية فخافه الناس وانتخبوه، فوضع نصب عينيه صور نابليون وأتاتورك وهتلر، فأحدث هزة وظهر بمظهر الحاكم المطلق فساء ذلك بعض أنصاره من العسكريين فقتلوه. انظر: الأعلام، لخير الدين الزركلي، ص٢٢٨- ٢٢٩، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان، ط: ٥، بدون ذكر تاريخ الطبعة.

(٣) انظر :علماء ومفكرون عرفتهم، ص ٢٤٣.

الجمعيات وكان له دوره الواضح في ذلك حيث كان رئيساً لجمعية الشباب المسلمين في دمشق، وكان أيضاً من مؤسسي جماعة الإخوان المسلمين في سورية حيث مثلهم في البرلمان السوري؛ فقد كان يتناوب مع الدكتور مصطفى السباعي (ت ١٣٨٤هـ)[١] في إلقاء المحاضرات في المركز العام للإخوان في حي الشهداء بدمشق.

وخلال وجوده في باريس اتصل بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت بمثابة المنقذ للجزائر حيث أعادتها إلى كيانها الإسلامي بفضل جهود مؤسسيها الذين وقفوا في وجه الاستعمار الفرنسي، ونشروا الوعي في صفوف الشعب الجزائري، وبلغ مد هذه الحركة إلى فرنسا التي كان يعيش فيها عدد كبير من الجزائريين، فأقيمت فيها النوادي التي كانت تهاجم الاستعمار وتبث روح الاستقلال في الجزائريين، وكان من قادة هذه الحركة في باريس (المجاهد الشيخ الفضيل الورتلاني)[٢] رحمه الله، وتعتبر جمعية

---

(١) مصطفى السباعي: هو مصطفى بن حسين السباعي (ت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٧م) عالم، داعية، مجاهد، من خطباء الكتاب، من حمص. صدر له بعد وفاته، إسلامنا (تعريف موجز) من مجلة حضارة الإسلام، هكذا علمتني الحياة، والاستشراق والمستشرقون، والصراع بين العقل والقلب وأصله مقال نشر في مجلة حضارة الإسلام ويعتبر أول الأعمال غير المطبوعة له. ، ص ٧٧٣.

ويعتبر علماً من أعلام الفكر الإسلامي في عصرنا الحاضر، ورائداً من رواد النهضة الإسلامية الحديثة، ولد في حمص من سورية، وتلقى فيها علومه، كانت تبدو عليه منذ الصغر ملامح النجابة والذكاء، وكان يخطب المصلين في الجامع الكبير يوم الجمعة وهو بعد لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره، خلف ثروة نادرة من الكتب صدر منها ما يزيد على العشرين كتاباً، وما يزال عدد من أبحاثه ينتظر النور. انظر: معجم المؤلفين المعاصرين لمحمد خير رمضان يوسف، ص ٧٧٣مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنيه،الرياض،١٤٢٥ه،بدون ذكر الطبعه ، وانظر: معالم الثقافة الإسلامية، د. عبد الكريم عثمان، ص٤٨٠- ٤٨٢ ، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون ذكر الطبعة، ١٤٠٢هـ، .

(٢) الفضيل حسن الورتلاني (ت ١٣٧٩هـ) علم، سياسي، مناضل، من الجزائر، تنقل بين القاهرة واليمن ولبنان ومات بإستانبول، له رحلات نشر بعضها باسمه الصريح في مجلة الشهاب سنة ١٣٥٣هـ بعنوان: رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عماله قسنطينه، ونشر بعضها الآخر باسمه المستعار (الفتى القبائلي) في جريدة البصائر سنة ١٣٥٥هـ بعنوان رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين بعمالة قسنطينة وما يلاحظ فيها. وله عشرات المقالات والأحاديث الصحفية في مختلف الدوريات من جزائرية وعربية وإسلامية عموماً، وأوربية، أيضاً ضم جانباً قليلاً منها كتابه (الجزائر الثائرة) الذي طبع أثناء حياته. انظر: معجم المؤلفين المعاصرين لمحمد خير رمضان يوسف، ص ٤٨٨.

العلماء المسلمين في الجزائر مقترنة بتاريخ الجزائر، من لا يعرف عنها شيئاً لا يعرف شيئاً عن الجزائر في عصرها الحاضر، فهي تؤلف الجهاز الضخم في كيانها، والفكرة المستقرة في ضميرها والمعبرة عن روحها التي ترجمت في أعمال بدأت بنشر العلم والدين والوعي السياسي، وانتهت إلى ثورة مسلحة كانت الخاتمة والنتيجة الطبيعية لحركتها، فقد قدمت هذه الجمعية منشورات دعوية هي بمثابة ثورة فكرية سلفية، استهدفت تهيئة الرأي العام، وتغيير تفكيره وعقليته، ومحاربة الخرافات والأساطير والحشويات والعودة به إلى روح العمل والجهاد الإسلامي، ولم تنجح حركة سلفية في أي بلد كما نجحت في الجزائر.

فتمثلت أهم جهودها: في إعادة الجزائر إلى إطاره وكيانه الإسلامي وإلى عربيته وتكوينه تكويناً جديداً غير قابل للاستعمار، وفي إحياء الإسلام في عقيدته المحررة ونظامه وجهاده، وإحياء اللغة التي بها أدى الإسلام رسالته.

فقد أحيت هذه الجمعية الجزائر وبقيت فيها عربيتها التي كادت تغيب وإسلامها الذي كاد يُقضى عليه، ولو أن حركات التحرر في الجزائر سارت بطريق آخر على منهج بعض الهيئات التي أنشئت في جو التأثر بالثقافة الفرنسية لكانت الجزائر اليوم خطراً فرنسياً[(١)].

فأخذ المبارك يتعاون مع هذه الجمعية في مجال الدعوة الإسلامية التي فاقت أهميتها مقاومة الاستعمار.

ويحدثنا -رحمه الله- عن عمله في هذه الجمعيات بقوله "كان عملي في نطاق الجمعيات الإسلامية المتعاقبة عملاً توجيهياً وعلمياً، محوره التوعية الشعبية العامة توعية عقائدية فكرية واجتماعية وسياسية، وكان هذا النشاط إلى جانب عملي الوظيفي (مدرساً ثم مفتشاً) ثم عملي السياسي حينما استقلت من الوظيفة عام ١٩٤٧م، ولقد كان لي

(١) انظر مجلة حضارة الإسلام ص١٤٧ مقال كتبه المبارك -رحمه الله- اعترافاً بجميل هذه الجمعية.

حلقات علمية أعالج فيها موضوعات إسلامية علمية ومشكلات اجتماعية مع طلاب ومدرسين وعمال، كما كان لي نشاط متواصل في إلقاء محاضرات عامة على مختلف المستويات ولم يقتصر نشاطي على المدن بل كثيراً ما كنت أخرج مع فريق من الشبان إلى القرى للدعوة والتوعية"[١].

ب- من خلال التدريس:

ولكن المبارك -رحمه الله- لم يكن هم الدعوة إلى الله يفارقه أينما وجد نفسه، فمن خلال التعليم حرص كل الحرص أن تكون العلوم التي يتلقاها أبناء المسلمين علوماً إسلامية ومشتملة على الثقافة الإسلامية، ويظهر ذلك حينما شارك في التخطيط الجامعي، للمواد الإسلامية، في أربعة بلدان عربية إسلامية هي سورية، ومصر، والمملكة العربية السعودية، والسودان ووضع لذلك عدة اقتراحات أهمها:

أ- إعطاء فكرة شاملة مترابطة عن الإسلام من غير تجزئة؛ لإشعار المتعلم أن الإسلام شامل، ولتوليد عمق في فهمه وتلقّيه بسبب هذا الارتباط بين أجزائه الاعتقادية والأخلاقية والتشريعية، وأسمى هذه المادة (نظام الإسلام). فقبلت التسمية وأقرت هذه الفكرة في عدد من الجامعات.

ب- تدريس المجتمع الإسلامي في صورته الواقعية لمعرفته معرفة علمية، ومعرفة بُعده عن الإسلام، والعوامل المؤثرة فيه، ومحاولة توجيهه وجهة إسلامية مثالية، وعمل أيضاً بهذا الاقتراح[٢].

ج- سعى أيضاً إلى تكوين علم اجتماع إسلامي، وذلك عندما قام بتدريسه في كلية الشريعة بدمشق، وكلية البنات في السودان.

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم، ص ٢٤٣- ٢٤٤.

(٢) علماء ومفكرون عرفتهم، ص٢٥١، ٢٥٢.

ج- من خلال مؤلفاته:

لقد راعى -رحمه الله- في هذه المؤلفات أن تكون الدعوة إلى الله هي الهدف الأسمى الذي يسعى إلى تحقيقه، حيث اشتملت هذه المؤلفات على كثير من العلوم الشرعية والإسلامية التي دعا من خلالها إلى:

١)الدعوة إلى الإيمان بالله وأنها الغاية التي يسعى الإنسان من أجل تحقيقها؛ لأن هذا الإيمان يحمل النفس على الخير، ويقربها من الله، ويجعله يتخذ من صلة القربى والرحم وسيلة لخدمة الحق والخير.

٢)لدعوة إلى أن يشعر الإنسان بالمسؤولية الملقاة على عاتقه في الدنيا والآخرة، حيث إنه يعيش بين مسؤوليتين:

الأولى: أمام المجتمع الذي يعيش فيه في هذه الحياة يخشى رقابته ويتخوف من محاسبته ومعاقبته.

والثانية: أمام الخالق الحاكم في حياة أخرى عن أعماله الظاهرة والخفية، حيث نجد كثيراً من البشر لا يشعر إلا بالمسؤولية الأولى في الدنيا، وينسى أو يتناسى المسؤولية الكبرى والأهم.

٣-دعوة الإنسان إلى أن يرتقي في غاياته التي يسعى إلى تحقيقها، حيث إن التنافس في هذه العصور قائم على أشده بين الأمم لزيادة الثروة واتساع الرقعة وكثرة السكان، وكسب المال وبلوغ المناصب؛ فيجب أن يرتقي الإنسان عن هذه السفاسف ولا يجعلها هدفه في الحياة، ويرتقي إلى السمو النفسي المنبثق عن الإيمان بالخالق العظيم المسير للكون والشعور بعظمته ورقابته والمسؤولية أمامه، فلنخرج من تفكيرنا المعتاد إلى أفق التفكير في مصيرنا والتفكير في خالقنا، وفي عقد الصلة بيننا وبينه، وفي ترقب يوم نرجع فيه إلى الله[1].

---

(١) انظر: نحو إنسانية سعيدة، ص٥٥، ٥٧

الفصل الثالث

منهجه وجهوده الثقافية

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول :

منهجه وجهوده في مجال اللغة والأدب .

المبحث الثاني :

منهجه وجهوده تجاه التربية والتعليم .

المبحث الثالث :

منهجه وجهوده في مجال الاقتصاد الإسلامي .

المبحث الرابع :

جهوده ومشاركاته العلمية في مجال المؤتمرات والندوات والمحاضرات .

المبحث الأول :

منهجه وجهوده في مجال اللغة والأدب .

وفيه ثمانية مطالب :

المطلب الأول : معنى علم اللغة وفوائده .

المطلب الثاني : التبدلات الصوتية .

المطلب الثالث : عناصر الكلمة العربية .

المطلب الرابع : مراحل الوعي اللغوي .

المطلب الخامس : خصائص الكلمة العربية .

المطلب السادس : أثر العربية في اللغات الأخرى وتأثرها بها .

المطلب السابع : الدراسة الأدبية لبعض آيات الكتاب .

المطلب الثامن : فن القصص عند الجاحظ .

تمهيد :

إن اللغة العربية يكفيها شرفاً أنها لغة الكتاب المبين، أنها لغة هذا الدين الذي نزل به جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1]. فقد جاء التأكيد من هذا الكتاب ومن سنته -صلى الله عليه وسلم- على أهمية هذه اللغة، والحرص على تعلمها والتمسك بها، كذلك نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على أهمية اللغة العربية وأثرها في صياغة الشخصية، وأن اعتياد هذه اللغة يؤثر في العقل والخلق، والدين، تأثيراً قوياً بيناً، ويؤثر أيضاً في مشابهة السابقين الأولين من الصحابة والتابعين، حيث إنهم من المتكلمين بالعربية، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق[2].

وقد فطن المبارك - رحمه الله - إلى أهمية هذه اللغة، فحرص عليها منذ نعومة أظفاره، وشُغف بها حباً استكن في أعماق قلبه.. فمنذ بدأ الدراسة كان يتابع دراستها متابعة جديّة، بالإضافة إلى الدراسة النظامية القوية على والده – رحمه الله – الذي قرأ عليه بعض شروح المعلقات وشرح مقامات الحريري ومقصورة ابن دريد وغيرها. كما قرأ على شيخه الشيخ محمد بدر الدين الحسني – رحمه الله – بعض كتب النحو والصرف والبلاغة"[3]، كما درس – رحمه الله – هذه اللغة وتعمق فيها، ثم درّسها وألف فيها، وقد كان منهجه رحمه الله تجاه اللغة العربية والأدب الإسلامي أنه يؤمن بدور هذه اللغة الخطير ويأمر بضرورة حفظها وجمعها، والكشف عنها والتعريف بها، وتجديد عرضها

---

(١) سورة الشعراء : آية (١٩٣-١٩٥) .

(٢) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، تحقيق: د. ناصر العقل ص٤٥٠، ط، ٦، ١٤١٩هـ، دار العاصمة للنشر والتوزيع.

(٣) انظر: محمد المبارك العالم والمفكر والداعية، حسني أدهم جرار، ص٦٦ نقلاً عن رسالة من د. صالح المبارك عام ١٩٧٦م.

على الناس؛ ليأخذوا بأحسنها، والذود عنها أمام خصومها، وإخراج الناس من إسفاف العامية، وتحرير الأدب من التغيير وحمايته من المتربصين، وأن يأمر بالاستفادة من تجربة اللغات الأجنبية، ونأخذ منها ما يعيننا على أن نعرف لكل لغة خصائصها وطرائقها في الاشتقاق والتوليد.

وتمثلت جهوده -رحمه الله- في هذا المجال في بيان معنى علم اللغة وفوائد هذا العلم، وما تمر به الكلمة العربية من تبدلات صوتية وعناصر تكونها، وما تميزت به من خصائص، كذلك بيّن مرحلة الوعي التي تمر بها اللغة العربية، وأثرها في غيرها وتأثرها بها، ثم درس بعض آيات الكتاب دراسة أدبية وبين ما تحتوي عليه هذه الآيات، ودرس كذلك بعض مظاهر الفن القصصي عند الجاحظ. وسوف نعرف ذلك في الصفحات التالية:

المطلب الأول : معنى علم اللغة وفوائده :

بين – رحمه الله – أن اللغة هي الجسر الذي يصل بين الحياة والفكر، تسبق وجود الأشياء أحياناً وتلحقها أحياناً أخرى، فالفكرة التي تجول في الذهن مجردةً تنتقل إلى شيء يستحق وجوده، وبعد أن يوجد الشيء ينتقل إلى أذهان الآخرين بطريقة اللغة، ولهذا كانت اللغة رمز الخلق والإيحاء : كن فيكون ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1]. [2]

إن اللغة التي يدرسها علم اللغة ليست الفرنسية، أو الإنجليزية، أو العربية، ليست لغة معينة من اللغات، إنما هي " اللغة " التي تظهر وتتحقق في أشكال لغات كثيرة ولهجات متعددة، وصور مختلفة من صور " الكلام " الإنساني .

---

(١) سورة النحل: آية (٤٠).

(٢) انظر: فقه اللغة وخصائص العربية، ص١٤.

فمع أن اللغة العربية تختلف عن الإنجليزية، وهذه الأخيرة تفترق عن الفرنسية إلا أن ثمة أصولاً وخصائص جوهرية تجمع ما بين هذه اللغات، وتجمع ما بينها وبين سائر اللغات وصور الكلام الإنساني، وهو أن كلاً منها "لغة"؛ أن كلاً منها نظام اجتماعي معين تتكلمه جماعة معينة بعد أن تتلقاه عن المجتمع، وتحقق به وظائف خاصة، ويتلقاه الجيل الجديد عن الجيل السابق، ويمر هذا النظام بأطوار معينة متأثراً بسائر النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية وبسوى ذلك ... إلخ وهكذا فعالم اللغة يستقي مادته من النظر في "اللغات" على اختلافها، وهو يحاول أن يصل إلى فهم الحقائق والخصائص التي تسلك اللغات جميعاً في عقد واحد[1].

فيعرف المبارك – رحمه الله – علم اللغة بأنه: "الدراسة الشاملة للغة بوجه عام لاستخراج قوانينها الخاصة بها ومعرفة تطورها، سواء أكان ذلك في أصواتها وألفاظها أم مفرداتها ومعانيها أو تراكيبها وأساليبها" [2].

وعرفه أيضاً بأنه: "دراسة للكلام البشري بوجه عام في تكوينه وعناصره وتركيبه، وفي حركته وتطوره، وفي أدائه ووظيفته التعبيرية في تحققه في الوجود في أشكال متعددة هي اللغات المختلفة، يختلف عن علم قواعد النحو والصرف وعلم مفردات اللغة من عدة وجوه في شموله وعمومه ونظرته التطورية" [3].

فهذا العلم كما يرى – رحمه الله – قد يكون عاماً يتناول اللغة بوجه عام وتكون ساحة البحث شاملة للغات المعروفة، وقد يكون خاصاً بلغة من

---

(١) انظر : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السّعران، ص٤٩-٥٠. دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت، بدون ذكر الطبعة.

(٢) فقه اللغة وخصائص العربية، ص١٨.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠.

اللغات يتتبع ظواهرها وخصائصها وتطورها وقوانينها، ويسمى حينئذ علم اللغة الخاص كعلم اللغة العربية [1].

وذكر المبارك – رحمه الله – بعض فوائد هذا العلم وهي:

١) إن معرفة اللغة معرفة عميقة وتفهمها وتذوقها لا يكون بمعرفة جزئياتها ومفرداتها ولا بقواعدها المحدودة، وإنما يكون بالغوص إلى أعماقها ومعرفة قوانينها وسنن تطورها. وإن فقه اللغة يكشف عن خصائص اللغة ويغير تطورها؛ وبذلك تفهم كثير من الجزئيات وتحل كثير من المشكلات.

٢) إن علم اللغة يكشف عن عقلية الأمة التي تتكلم تلك اللغة، كما يكشف عن جوانب من تاريخها ومدنيتها. إن الخاصة الاشتقاقية في اللغة العربية تعبر عن حيوية اللغة كما أنها تعين على إرجاع كل كلمة إلى أصلها وردها إلى نسبها بحيث تعرف الألفاظ التي ترد إلى نسب واحد وتجمعها أسرة واحدة أو مادة واحدة، وهذه المادة هي الحروف الأصلية الثلاثة أو الاثنان فلا تضيع أنساب الألفاظ في العربية بل تحفظ كما تحفظ أنساب الناس عند العرب خلافاً للغات الأخرى التي قد يطرأ فيها على الألفاظ من التغيير في أصواتها وفي صيغها وتأليفها ما يضيع معه أصلها.

٣) إن معرفة خصائص اللغة وقوانينها وسنن تطورها يمكننا من إصلاحها ومراقبة تطورها، والسير به في اتجاه صحيح يناسب خصائصها الأصلية، ولا يعرضها للذوبان، والانحلال. وبذلك نحافظ على هذه اللغة سليمة. فاللغة واقعة الآن بين نزعتين: إحداهما لا تبالي بخصائص اللغة فترى دخول الألفاظ والتعابير الأجنبية بلا قيد ولا شرط، بل يصل الأمر ببعض الشعوبيين[2] إلى الرغبة في تثبيت اللغة العامية يرمون بذلك

---

(١) انظر المرجع نفسه، ص٢٠.

(٢) نسبة إلى (الشعوبية) وهي حركة تبغض العرب وتفضل العجم الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ص١٨٩، ج: ١١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ.

إلى القضاء على الفصحى. والنزعة الأخرى ترى الاحتفاظ باللغة كما رويت عن القدماء دون تبديل في الألفاظ أو المعاني أو التعابير. ولابد من الموازنة بين النزعتين والإشراف على سير التطور ليكون حاجز اللغة استمراراً لما فيها مراعياً لظروفها الحاضرة[1].

المطلب الثاني: التبدلات الصوتية :

يرى – رحمه الله – أن الأصوات أو الحروف في كل لغة ليست ثابتة فقد تتغير بمرور الزمن، ومن أمثلة هذه التغيرات في اللغة العربية أن بعض الحروف قد انتهى بها الأمر إلى الزوال في كثير من اللهجات العامية، مثل الحروف اللثوية (ث ، ذ ، ظ) وأبدلت بالتاء، والدال، والضاد، أو الزاي المفخمة، وكذلك حال الجيم والسين التي أصبحت أشبه بالصاد مثل (أسطورة، سلطان)، ويرجع – رحمه الله – هذه التبدلات الصوتية إلى عدة عوامل هي:-

١-انتقال اللغة من جيل إلى جيل عن طريق التلقين والتعليم، حيث إن الأطفال يتلقون اللغة، عن آبائهم، محاولين تقليدهم بالتدريج خلال المدة التي يكتسب فيها الطفل اللغة لكن هذه المحاولة كثيراً ما تكون غير ناجحة، ويكون التقليد ناقصاً ولو قليلاً؛ فإن أقل تغيير يحدث في تلفظ الحروف من تحقيق أو تشديد أو تقديم في المخرج أو تأخير يؤدي إلى تغيير هذه الحروف إذا عم هذا التبديل في جيل من الأجيال، وأضيف إلى ما يمكن أن يحدث بعده في الأجيال التالية من تبديل نجم عن ذلك تبدل في لفظ الحروف أو الحروف المتبدلة بمرور الزمن الطويل.

٢-التأثر بأصوات لغة أخرى، فقد تتصل لغة بأخرى عن طريق الغزو الثقافي أو الاستيلاء فيتعلم أهل البلاد لغة الفاتحين، ولكنهم ينطقون بها محتفظين بخصائص لغتهم الصوتية.

---

(١) انظر: فقه اللغة وخصائص العربية: ص ٤٠-٤٢.

٣-أيضاً هناك أسباب اجتماعية مختلفة من دينية وقومية، فإن الرغبة في العودة إلى الفصحى في البلاد العربية في العصر الحاضر هي التي عادت ببعض الحروف من الشكل الذي آلت إليه إلى نطقها القديم الفصيح.

٤-كذلك أسباب صوتية لا دخل للعلل الخارجية فيها، وذلك كتفخيم بعض الحروف إذا وقعت في حال تركيبها موقعاً يستوجب ذلك كإخفاء النون وإدغامها، وتفخيم الراء، ولفظ السين صاداً في بعض المواطن. أيضاً إنه لا عبرة بالتبدل إذا حدث في حادثة فردية خاصة كأن يكون ناشئاً عن علة في نطق واحد من الناس، أو عن خطأ في النطق، إنما العبرة للتبدل الذي يكون عاماً في مجموعة من الناس كسكان بلد أو مدينة أو إقليم[1].

المطلب الثالث: عناصر الكلمة العربية :

لقد بين – رحمه الله – أن الكلمة في اللغة العربية تتكون من ثلاثة عناصر هي قوامها، وهي التي تعطي باجتماعها كل ما في الكلمة من مادة ومعنى، **وهذه العناصر هي** [2]:-

١-مادة تركيب الكلمة وهي الحروف أو الأصوات وهي على قسمين: حروف أصلية تتركب منها جميع الكلمات العربية كالحروف (ق – ط – ع) والحروف الزائدة وهي: التي تتبدل مع ثبات هذه الحروف الثلاثة الثابتة كالميم والألف والتاء والنون والواو.

٢-معنى الكلمة المتكون كذلك من معنى أصلي يتجلى في الحروف الثلاثة الأصلية، والمعنى الزائد الناشئ عن تخصيص المعنى الأصلي وتحديده عن طريق الصيغة التي تصاغ فيها الكلمة.

---

(١) انظر: فقه اللغة وخصائص العربية ص ٥٤-٥٨

(٢) انظر :عبقرية اللغة العربية، محمد المبارك، ص١١.

٣-المعنى الخاص للكلمة وهو الذي يكوّن شخصيتها الذاتية الناشئة عن ظروفها التاريخية وملابساتها، والبيئة أو البيئات التي عاشت واستعملت فيها

ويرى - رحمه الله – أن من حيث مادة الكلمة وتركيبها: أن الاشتقاق في اللغة يقوم على الاحتفاظ بالمادة الأصلية المتكونة من حروف ثلاثة تصب في قوالب متعددة مع ما يضاف إليها من زوائد الحروف والحركات، وأول ما يفاجئنا في كل لفظ عربي حروف أصلية تدل على المعنى الأصلي القديم وتدل على المجموعة التي تنتسب إليها الكلمة ومثال ذلك الكلمات (مجمع علمي – علم اجتماع – اجتماع الناس – سبب اجتماعي – التأمين الاجتماعي – الجمع – استجماع القوى – يجمعون المال - الإجماع) على اختلاف استعمالاتها وعصورها تجدها في المعجم محشورة في مكان واحد في مادة (ج م ع) التي هي أصواتها الأصلية والتي تتضمن معناها العام المشترك وتعتبر أصل اشتقاقها[1].

وقد تبتعد الصلة بين المعنى الأصلي للمادة والمعنى الحادث للكلمة حتى تكاد تخفي الصلة ولكن الصلة الصوتية لا تخفى أبداً. فهي التي تدل على الأصل وذلك بتقدير المراحل الضائعة التي مرت بها الكلمة من المعنى الأصلي القديم إلى المعنى الطارئ الحديث.

أيضاً فإن الألفاظ العربية تبقى محافظة على أنسابها مهما نأت ديارها؛ وذلك لأن الأصوات العربية، أعني الحروف الملفوظة،لم تتغير خلال عصور طويلة فقد بقيت ثابتة في مخارجها وصفاتها منذ أقدم عهد وصلتنا آثاره حتى يومنا هذا. وكان للقرآن الكريم في ذلك الفضل الأكبر، ولا يعتد بما طرأ من تغيرات على الأصوات في اللهجات العامية لبقاء الفصحى سليمة نعود إليها كلما ابتعدنا عنها.

---

(١) انظر: عبقرية اللغة العربية ، ص١١

وسبب آخر في محافظة الألفاظ العربية على أصولها وأنسابها قلة الدخيل ومعرفة الغريب الذي دخل العربية ولا يزال حتى يومنا هذا يشار إليه فلا تستطيع تهجين الألفاظ العربية [1].

أما من حيث معاني الألفاظ، فإن لكل مجموعة تشترك في الحروف الثلاثة الأصلية معنى عاماً يؤلف الطبقة الأصلية المشتركة لمفردات المجموعة، ولكن الألفاظ قد تبتعد عن هذا المعنى الأصلي عن طريق التعميم، أو التخصيص، أو الانتقال للمعنى المجاور. وأن ثبات الحروف الأصلية في اللغة العربية يساعد على كشف العلاقات بين الألفاظ ومن ذلك كلمتا (الجار) و(الجور) فالجار عند العرب هو الذي دخل في حمايتك، وفي جوارك، فأجرته أي أزلت عنه الجور، وهو الظلم، فمفهوم (المجاورة) عند العرب ليس هو التقارب في المسكن فحسب، بل هو بالدرجة الأولى الحماية، والموالاة، والمناصرة وإزالة الظلم[2].

أما عن صيغ الألفاظ وأوزانها فبين – رحمه الله –:

١-أن مادة الكلمة في اللغة العربية مركبة في بناء، أو مصبوبة في قالب، أو مصوغة في صيغة. فتوليد الكلمة من مادتها أو اشتقاقها، يكون بأخذ مادتها الأصلية وتركيبها مع حروف أخرى زائدة في بناء معين، أو صياغتها في صيغة ذات وزن موسيقي معين، ويدخل في هذا التركيب حركاتها التي هي حروف مد قصيرة، قد يكون الزائد أحد الحروف الأصلية نفسها فيصبح مشدداً أو مضاعفاً، وتسمى هذه التراكيب في اللغة العربية أبنية وصيغاً وأوزاناً. علم الصرف.

---

(١) انظر : المرجع نفسه، ص١٦.

(٢) انظر المرجع نفسه، ص١٨-١٩.

٢-أن جميع الألفاظ العربية، عدا بعض الكلمات المعربة، تُرد إلى أوزان أو صيغ محدودة معلومة لا تخرج عنها ولا تشذ، وقد أحصى فقهاء اللغة هذه الأوزان فوصلت إلى (١٢١٠) وزناً كما نقله السيوطي في المزهر، وعليه فإن للألفاظ العربية تصنيفين أحدهما بحسب مادة تركيبها والثاني بحسب وزنها وصيغتها.

٣-أن لكل بناء أو صيغة معنى تدل عليه بذاتها، أياً كانت المادة التي تصاغ فيها، فإذا كانت المادة الأصلية للكلمات المتجلية في حروفها الأصلية الثلاثة وهي فاء الفعل وعين الفعل ولام الفعل (فعل) أصل المعنى فإن الصيغة تحدد لك المعنى العام وتخصصه.

٤-أن للصيغ وظيفة فنية لا نظير لها في اللغات الأخرى؛ ذلك أن الكلام العربي يتألف من ألفاظ تُرد كلها إلى (أوزان موسيقية) محددة فيكون كل كلام عربي مجموعة من التراكيب الموسيقية تتألف من وحدات موسيقية متنوعة فيها المتماثل والمتشابه والمختلف.

٥-أن طريقة اللغة العربية في صياغة الكلمات وبناء الألفاظ تختلف اختلافاً جوهرياً عن طريقة اللغات الهندية الأوروبية، فإن هذه اللغات ليس فيها ما يشبه العربية، حيث إنها فاقدة للبناء الموحد والوزن الموحد لكل نوع من أنواع الكلمات الدالة على معنى منطقي واحد[1].

المطلب الرابع : مراحل الوعي اللغوي :

لقد توصلت اللغة العربية إلى مرحلة من الضعف والتردي والجمود، ليس على مستوى عامة الناس، بل حتى على مستوى العلماء والفقهاء والمثقفين، وخاصة بعد عصر الانحدار وما تلاه، بعد أن دخلت الحياة الحديثة في أوروبا إلى البلاد الإسلامية بكل ما فيها من عداء قائم خصوصاً على اللغة العربية حيث أدركوا أهميتها، إلا أنه بعد

---

(١) انظر: عبقرية اللغة العربية، ص٢٣-٢٨.

ذلك قامت نهضة عربية أدت إلى وعي لغوي، كانت أهم مراحله كما بين المبارك – رحمه الله – ما يلي:

١-الوقوف في وجه النزعات والصيحات الداعية إلى العامية والتعريب والإكثار من الألفاظ الأجنبية، ومقابلتها بالدعوة إلى الفصحى واستخراج مخبوئها، مما ولدا بين الفريقين (الداعي إلى العامية والداعي إلى الفصحى) النزعة المعتدلة التي سادت فأخذت من الفريق الأول ضرورة الحفاظ على الأصالة في لغتنا، ومن الفريق الثاني ضرورة الاستجابة لمطالب الحياة والمرونة في معالجة المشكلة اللغوية، وأدى بها ذلك إلى إعادة الحيوية إلى كيان اللغة عن طريق الاشتقاق والتوليد تبعاً لسنن العربية نفسها التي كان الناس في العصور المنصرمة وقفوا دونها ولم يعملوا بها وجروا في اللغة كما جروا في الفقه وفي سائر الميادين الأخرى على طريق التقليد دون الاجتهاد والإبداع، فكانت هذه الدعوة الجديدة دعوة إلى الاجتهاد في اللغة مع المحافظة على أصول العربية وخصائصها وسننها.

٢-أيضاً من مراحل الوعي اللغوي إحياء التراث العربي القديم، واقترانها بمرحلة الشعور الذاتي من الناحية السياسية والقومية عند أبناء الأمة العربية، حيث إن الناس أخذوا يقبلون على دواوين كبار شعراء العربية من شعراء الجاهلية وأصحاب المعلقات، إلى شعراء العصر العباسي، وطفقوا ينصرفون عن النثر المتكلف إلى النثر البليغ.

فإذا ازدهرت علوم اللغة العربية، وأقبل أبناؤها عليها بعد أن شعروا بالخطر المحيط بها، فسوف ينتهي الأمر بالوعي اللغوي إلى ما انتهى إليه الوعي الذاتي في سائر ميادين الحياة: تحرر من الانحطاط ورواسبه، تحرر من العجمة الجديدة والشعوبية الحديثة، استعادة للخصائص الأصلية والصفات الذاتية واستشعار بها، واتصال بالماضي وتمثل لعناصره الأساسية الخالدة، بعد إحياء آثاره المهملة المنسية؛ تقارب بين الفصحى

والعامية بارتفاع العامية واقترابها من الفصحى، ونزول الفصحى إلى ميادين الحياة واتصالها بها بعد أن اعتزلت كثيراً من ميادين الحياة قروناً طويلة؛ ثم القدرة على التجديد والتوليد والبناء في ظروف الحياة الجديدة المتبدلة. ذلك هو الوعي اللغوي في مراحله التي قطعها والتي وصل إليها[1].

وبين – رحمه الله – أنه لابد لهذا الوعي اللغوي من إنضاج وتغذية وتقوية ليشتد ويستحكم ويكمل ويكون أرسخ وأعمق في النفوس ولابد لهذا من أمرين:-

أحدهما: فهم خصائص العربية ليكون السير في طريق التجديد والتوليد على أساس صحيح من هذه الخصائص وعلى السنن القويمة لهذه اللغة، ويكون هذا الفهم أعمق إذا عرفنا أن بين خصائص اللغة العربية وخصائص العرب أنفسهم صلة وشيجة ونسباً.

ثانيهما: الإسراع في تطهير العربية من بقايا الضعف أو العجمة الناشئة عن عصور الانحدار أو عن التأثير الأجنبي الحديث في عصر الاستعمار[2].

المطلب الخامس : خصائص الكلمة العربية :

إن اللغة العربية إضافةً إلى علو شأنها واختيار الله -عز وجل- لها حيث جعلها لغة كتابه الكريم قال تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[3]، فإنها تتميز بخصائص خاصة تميزها عن غيرها من اللغات الأخرى، من حيث بناء الكلمة في اللغة العربية، والروابط التي تصل بين مفردات العربية مقارنة باللغات الأخرى، **فإن للعربية من هذا الجانب كما بين – رحمه الله- خصائص تمتاز بها وأبرزها:**

---

(١) انظر: فقه اللغة وخصائص العربية، ص٢٣٦-٢٤٣.

(٢) انظر : المرجع نفسه، ص٢٤٣.

(٣) سورة الزخرف: آية (٣).

١-استمرار معالم اللغة العربية استمراراً يتجلى في ثبات أصول الألفاظ ومحافظتها على روابطها الاشتقاقية، وهو يقابل استمرار الشخصية العربية خلال العصور.

٢-أن اشتراك الألفاظ المنتمية إلى أصل واحد في أصل المعنى وفي قدر عام منه يسري في جميع مشتقات الأصل الواحد، مهما اختلف العصر أو البيئة، يقابله توارث العرب لمكارم الأخلاق والمثل الخلقية والقيم المعنوية جيلاً بعد جيل.

٣-أن العنصر الثابت المتوارث من اللغة، والمكون من جزء مادي هو الحروف الثابتة في مادة الكلمة، وجزء معنوي هو معناها العام، هو أداة الارتباط ووسيلة الاتصال بين أجيال الأمة العربية المتعاقبين على الزمن وسر من أسرار خلود العربية، وهو يقابل ما يرثه العربي مادياً من المال الموروث وما يرثه من الشرف ومكارم الأخلاق ومحامدها من الناحية المعنوية، وهذا العنصر الثابت في اللغة العربية جعل لها أثراً كبيراً في تكوين وفي اتصال أجيالهم واجتماعهم على أمر جامع مشترك.

٤-لهذه الخاصية في اللغة العربية قيمة تربوية تعليمية عظيمة فإن معرفة بعض كلمات من المجموعة أو الأسرة الواحدة تمكن المتعلم من معرفة سائر أفرادها معرفة إجمالية لما بينها من حروف مشتركة، وبذلك يحفظ الجهد ويوفر الوقت.

٥-إن الروابط الاشتقاقية بين الألفاظ توحي بفكرة الجماعة وتعاونها وتضامنها في النفوس عن طريق اللغة.

٦-إن الخاصة الاشتقاقية في اللغة العربية تهدينا إلى معرفة كثير من مفاهيم العرب ونظراتهم إلى الوجود، وعاداتهم القديمة، فالمسكن عندهم مكان السكينة، والعقل ليس هو الإدراك الفكري فحسب بل الذي يعقل صاحبه من الشر، والشريف مشتق من الشرف وهو الارتفاع فهو المرتفع على الناس بأخلاقه ومكارمه.

٧-والخاصة الاشتقاقية بثباتها على الزمن ووضوح علامتها تمكن من تمييز الدخيل الغريب من الأصيل فإذا لم يكن للكلمة أي صلة معنوية بالمادة الاشتقاقية فهي غريبة ملحقة. على أنه يجب الاحتياط في الحكم إذ إن بعض الكلمات قد تتطور في معناها تطوراً يبعدها عن الأصل بعداً يخيل معه للمرء انقطاعها وانفرادها[١].

المطلب السادس: أثر العربية في اللغات الأخرى وتأثرها بها:

حفظ الله -عز وجل- كتابه الكريم من التحريف والتأويل قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٢]، وكانت العربية لغة ذلك الكتاب المحفوظ، فحفظها الله بحفظ ذلك الكتاب، من التغيير والتبديل على الرغم من الحروب عليها ورغم العداء لها والشراك التي نصبت للإطاحة بها إلا أنها محفوظة منه سبحانه، بل إضافة إلى هذا الحفظ جعل لها من القوة ما أثرت به على غيرها من اللغات، **ويبين لنا المبارك – رحمه الله – جانباً من هذا التأثير**:

١-إن اللغة العربية بما وهبها الله من بناء محكم قوي، ومادة غزيرة وسنن مطّردة، أصبحت لغة الكتاب المنزل والرسالة المنتشرة في أطراف الأرض، فكانت النتيجة انقراض بعض اللغات وحلول العربية محلها في البلاد التي تم استعرابها.

٢-إن اللغة العربية هي التي حملت رسالة الإسلام فهي غنية بألفاظ كثيرة جديدة للتعبير عن المفاهيم والأفكار والنظم وقواعد السلوك، وغدت لغة الدين والثقافة والحضارة والتحكم في آن واحد، واستطاعت بما وهبها الله من خصائص أن تنهض بالعبء العظيم فتكون لغة الدولة الجديدة والحضارة الجديدة، فغزت اللغات الأخرى خلال العصور التي تلت الإسلام[٣].

---

(١) انظر: فقه اللغة وخصائص العربية: ص ٢٧٠.

(٢) سورة الحجر: آية (٩).

(٣) انظر : فقه اللغه وخصائص العربيه ص٢٩٤-٢٩٥

أما عن تأثر العربية باللغات الأخرى: فإنه بعد اتصال العربية باللغات الأخرى انتقلت إليها ألفاظ جديدة لم تكن فيها، ولكنها تتعلق بالمحسوسات والماديات لا بالمعنويات كأسماء الألبسة والأطعمة والنباتات والحيوان وشؤون المعيشة أو الإدارة، أما عن نتائج تأثير اللغات الأجنبية في العربية فيتمثل في [1]:

١-إن عدد الألفاظ الأجنبية الدخيلة قليل جداً إذا نسب إلى عدد مفردات العربية أو إذا قيس بالألفاظ العربية التي دخلت اللغات الأخرى كالفارسية.

٢-إن هذه الألفاظ التي دخلت العربية تتعلق بالحسيات لا بالمعنويات كما بينا، أما الألفاظ العربية التي دخلت اللغات الأخرى فهي مما يتصل بالمعنويات كالمفاهيم الشرعية أو الخلقية والنفسية.

٣-أن ما دخل العربية من ألفاظ غريبة لم يبق في أكثر الأحوال على حاله بل صيغ في قالب عربي فغيرت حروفه إذا كان فيه من الحروف ما ليس في العربية، وبُدل شكل تركيبه، وبناؤه حتى يوافق الأبنية العربية أو يكون قريباً منها.

وهذه النتائج تشير إلى غنى اللغة العربية وغزارة مادتها، ولاسيما في المعنويات المجردات واستغنائها في هذه الناحية عن غيرها فقد أعطت أكثر مما أخذت[2].

المطلب السابع : الدراسة الأدبية لبعض آيات الكتاب :

لقد فسر المبارك – رحمه الله – بعض آيات الكتاب تفسيراً أدبياً، وسوف نتناول من الآيات التي فسرها سورة العاديات، ونتعرف من خلالها على طريقته – رحمه الله – في هذه الدراسة الأدبية [3].

(١) انظر: المرجع نفسه ص٢٩٦-٢٩٥

(٢) انظر :عبقرية اللغة العربية، ص٢٩٦-٢٩٧

(٣) انظر: دراسة أدبية لنصوص من القرآن، محمد المبارك، ص١٣-٣٤.دار الفكر،ط:٤،منقحه ومزيده .

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [(١)].

المعنى الإجمالي للسورة :

يقول – رحمه الله -: " والخيل التي تعدو عدواً يسمع منها صوت أنفاسها فتوري النار بحوافرها إذ تُغير في الصباح فتثير الغبار فتتوسط جماعة العدو. إن الإنسان كفور بنعمة ربه وعالم بذلك من نفسه وهو شديد الحب للمال، أفلا يعلم ويتصور كيف يكون حاله حين تثار القبور ويخرج من فيها، وتجمع حصائل الأعمال من الصدور، إن ربهم يومئذ عليم بأعمالهم وسيحاسبهم عليها " [(٢)].

أقسام السورة :

قسم – رحمه الله – السورة بحسب مضمونها إلى أقسام ثلاثة وخاتمة.

القسم الأول: مشهد من مشاهد صراع الإنسان في هذه الحياة للتسلط وكسب المال، مشهد فرسان يغيرون على جماعة أخرى ليأخذوا مالها ويتسلطوا عليها. وإن جاء الصراع هنا على صورة غزوة من الغزوات، فإن هذه الصورة ترمز إلى جميع أنواع العدوان بين البشر الذي يكون الاعتداء طريقه، والتسلط والسلب غايته.

القسم الثاني: تحليل سريع موجز لنفسية الإنسان، إنه شديد الحب للمال، كفور بنعمة الله، وهو يعرف ذلك من نفسه. وإن حبه هذا الشديد للمال، مع الغفلة عن تذكر

---

(١) سورة العاديات: آية (١-١١).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٣-١٤.

المنعم وشكره، هو الذي يدفعه إلى الاعتداء على الآخرين، ولو كان ذاكراً لنعمة الله عليه لصده ذلك عن الاعتداء على عباده.

القسم الثالث: إهابة وتذكير بالمصير بعد الفناء، إذ يُبعث البشر من قبورهم وتجمع حصائل الأعمال من الصدور التي هي كناية عن النوايا والدوافع التي بها تقاس الأعمال إن كانت خيراً أو شراً.

ويختم: بهذه الآية {إن ربهم بهم يومئذ لخبير} فمن صراع في هذه الحياة التي يعيش فيها الإنسان مدفوعاً بدافع من حب المال، وفي غفلة عن تذكر الخالق المنعم، إلى موت يعقبه بعث وحساب على الأعمال والنيات، حيث يكون المحاسب هو الله الخبير العالم بأحوال الناس والمطلع على نواياهم.

أما الفكرة المقصودة من السورة فهي الفكرة المتجلية في الآية الأخيرة والتي يلخصها -رحمه الله – بقوله: " مسئولية الإنسان العظمى أمام الخالق بعد هذه الحياة" وكل ما تقدم من أفكار وسيلة للوصول إليها وتثبيتها في الفكر والقلب.

قيمة الأفكار الواردة في النص:

١) إن الانتقال من المسئولية القبلية المحددة الأثر في حياة العرب قبل الإسلام إلى هذا النوع من المسئولية الإنسانية العميقة في النفس البعيدة الأفق ذات المقياس النفسي الداخلي من جهة، والإنساني العام من جهة أخرى، انتقال عظيم جداً في ميدان التفكير الأخلاقي.

٢) لا يقتصر الأمر على هذه القيمة النسبية بين الحالين والمجتمعين؛ فإننا لو نظرنا إلى فكرة هذا النص القرآني، وهي مسئولية الإنسان الكبرى بوجه عام، مسئوليته فيما وراء المجتمع والحياة، فكرة عظيمة تستحق الخلود. وأن كل ما في النص من مشاهد

الصراع بين البشر والاندفاع إليه بدافع من حب المال وكفران النعمة لا يزال كما هو في الحياة الإنسانية.

٣) إن فكرة مسئولية الإنسان العظمى من الأفكار بل العقائد الإنسانية التي تضمنها القرآن وكررها في أشكال وصور متنوعة كثيرة، وجعلها ركيزة أساسية في نظامه الأخلاقي والتشريعي، وجزءاً من فلسفة الحياة التي جاء بها.

خصائص النص الفكرية:

١- إن في هذا النص خصائص فكرية وهي أنه تبدو فيه وحدة موضوعية واضحة تدور حول فكرة المسئولية.

٢- ولذلك كان بين أجزاء النص ارتباط وتسلسل، فمن مشهد الغزو إلى تحليل العوامل النفسية الدافعة إلى النهاية والمصير، فالحساب والمسئولية.

٣- يعتمد النص على العنصر النفسي سواء في تحليل نفسية الإنسان أو في تسجيل الأعمال {وحصل ما في الصدور} واعتبار النيات في تحديد المسئولية.

فن العرض أو الطريقة الأدبية:

كما سبق أن المبارك - رحمه الله- قسم السورة من حيث المضمون إلى ثلاثة أقسام، فإن القسم الأول يعتمد على الوصف الذي يكاد يكون على إيجازه قصة أو مشهداً من قصة، وقد تضمن هذا الوصف تصوير الحركة {العاديات، المغيرات، أثرن، وسطن} إلى تصوير الأشكال والألوان {الموريات قدحاً، النقع، توسط الجمع) إلى سماع الأصوات {ضبحاً} هذا مع التقاط النقط البارزة والخطوط المشخصة للمشهد {العدْو، الشرر، الغبار} وتحديد الزمان {الصبح}.

فيرى - رحمه الله – أن افتتاح السورة بهذا المشهد مفاجأة مثيرة للخيال، ولاسيما بالنسبة للعرب الذين تثيرهم صورة الغزو بل خبره وحكايته، فكان هذا العرض نقطة

انطلاق للتأمل والتفكير، وكان صورة رمزية تدل على اعتداء الإنسان على الإنسان أورد مورد القسم، وكثيراً ما يأتي القسم في القرآن للإيقاظ والتنبيه وإثارة النفس وإعدادها لما يأتي بعده من المعاني.

٢- القسم الثاني من النص اعتمد على التحليل النفسي. فقد انتقلنا من مشهد واقعي من مشاهد الحياة إلى التأمل في نفسية الإنسان، ومن الصور الحية النابضة إلى التأمل الباطني والتفكير النفسي، ومن الصور الحسية إلى الحقائق المجردة النفسية، وكان عرض الأفكار في هذا القسم عرضاً مباشراً مجرداً خالياً من التصوير الحسي أو الوصف المادي.

٣- أما القسم الثالث فيعود فيه النص إلى الوصف والتصوير فيصور نهاية الحياة وما بعد الموت في صورة حسية قوية تبعث الروع في أشد إيجاز وأقوى تعبير {أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور} فتقترن بها صورة نفسية ترمز إلى جمع الأعمال وتشير إلى اعتبار النية فيها {وحصل ما في الصدور} فجمع في هذا القسم بين التصوير الحسي والتحليل النفسي في آيتين تصفان حادثة واحدة.

٤- أما الخاتمة فقد جاءت على طريقة الأحكام المجردة بعد أن هيئت النفس بتلك الصور الحسية المثيرة للخيال، والصور النفسية الباعثة على التأمل، لتلقي الحكم خالصاً مجرداً.

صياغة الآيات أو التراكيب والجمل:

١- آيات قصيرة تتألف كل واحدة منها من كلمتين أولاهما اسم فاعل بمعنى الفعل، أو فعل {والعاديات ضبحا، فأثرن، فوسطن به جمعاً} وكلها أفعال تدل على حركات أو أعمال حسية، وثانيهما أحد المفاعيل، وتخلو هذه الآيات من الزوائد، وهي كلها جمل فعلية أو بحكم الفعلية تصور الحركات والحوادث.

٢- أما آيات القسم الثاني فهي تتألف من جمل اسمية تستعمل عادة للتعبير عن الحقائق العامة مُصدّرة كلها بـ {إن} المستعملة لتأكيد هذه الأحكام مع اللام المقرونة بالخبر.

٣- تعود الآيات في القسم الثالث إلى الجمل الفعلية لتصوير مشهد خاطف ليوم القيامة، ولكنها تأتي هنا متصدرة بالاستفهام الاستنكاري المثير، {أفلا يعلم} {إذا بعثر} { ما في القبور} و {حصل ما في الصدور}. ويلفت النظر في هاتين الآيتين استعمال الأفعال المبنية للمجهول واستعمال {ما} الموصولة المشعرة بعدم التحديد، وفي ذلك فسح المجال للخيال بتصور ما شاء أن يتصور.

٤- وتعود الخاتمة مرة أخرى، إلى الجملة الاسمية المؤكدة بإن واللام على طريقة القسم الثاني.

الألفاظ :

بين – رحمه الله – أنه ورد في النص نوعان من الألفاظ، أحدهما: لتصوير المعاني الحسية، وجاءت الألفاظ التي من هذا النوع واضحة دقيقة التعبير {ضبح، موريات، مغيرات، أثرن، نقع، وسطن}.

وثانيهما: للتعبير عن المعاني المجردة، وهي معانٍ عامة {كَنود، حب الخير، شهيد، خبير}.

الموسيقى في السورة:

يرى – رحمه الله – أن المرتِّل لهذه الآيات يشعر أن لها طابعاً موسيقياً واضحاً، وإذا قرأها قراءة فنية أي مرتلة لاحظ انقسامها إلى عدة نغمات متناسبة مع أقسام النص من الوجهة الفكرية والنحوية.

فالقسم الأول: يتألف من خمس فقرات موسيقية ذات نغمة واحدة على بعض المدود الطويلة. وثانيهما: وهي فاصلة الآية، كلمة ثلاثية لا مد إلا في آخرها {ضبحاً، قدحاً، صبحاً، نقعاً، جمعاً} وهذه الفقرات تمثل بقلة مدودها وتوالي حروفها المتحركة حركةَ الخيل في عدوها ووقعَ حوافرها ثم ارتفاعَها.

القسم الثاني: من السورة فهو أطول نفساً وأكثر مدوداً، وكأنه يشير بمدوده الطويلة إلى التأمل الطويل، والهدوء النفسي، وتختلف كلمة الفاصلة في هذا القسم اختلافاً كبيراً في جرسها الموسيقي عن فاصلة القسم الأول {كنود، شهيد، شديد} .

والقسم الثالث: يجمع بين المدود الطويلة في بعض أجزائه {أفلا يعلم إذا } وتوالي الحركات في كلمات أخرى {بعثر} كما أن فاصلته تختلف عن القسمين السابقين في نبرتها، وقوة جرسها {قبور، صدور}.

ويعود القسم الأخير: في نغمة هادئة ناشئة عن المدود والميم الساكنة والتنوين، إلى فاصلة تأخذ الياء من القسم الثاني والراء في الثالث.

وموسيقى النص في جملتها وتفصيلها، أي في نغمة الجمل وجرس الألفاظ وفواصل الآيات، مناسبةٌ للمشهد، والأفكار، ومقابلة لها، وتتنوع بتنوعها وتنسجم انسجامها.

الخلاصة:

يذكر - رحمه الله – أن هذه السورة تضمنت موضوعاً أساسياً هو مسئولية الإنسان العظمى، وأفكاراً أخرى أطاحت به من وجود الله وحدوث البعث، ونفسية الإنسان وصراعه في هذه الحياة. وكلها أفكار أساسية في الحياة، لتسمو بالقارئ إلى مستوى عال من التفكير والشعور.

وكان عرضها عرضاً منطقياً جميلاً قوياً، قوامه مشاهد من الحياة الواقعية المحسوسة، والحياة الأخرى المغيبة، والإنسان في صورته النفسية معروض بينهما، وكان هذا العرض يستند إلى التصوير الحسي، والتحليل النفسي قوياً سريعاً موجزاً، اشترك فيه الفكر، والخيال، والحس، وتعاونت الألفاظ، والتراكيب، فجاء نثراً فنياً كاملاً، ليعبر عن أخطر مسألة في حياة الإنسان وهي (مسألة المصير والمسئولية).

المطلب الثامن : فن القصص عند الجاحظ :

تعتبر القصة من أهم الفنون الأدبية التي برع فيها الجاحظ، وقد درس المبارك – رحمه الله– هذا الفن لدى الجاحظ وتعرف عليه من خلال تحليله لبعض القصص الأدبية التي كتبها الجاحظ، ومن هذه النصوص التي خصها المبارك باهتمامه نص بعنوان: (البركة في المؤاكلة) فبين من خلاله أهم الجوانب الفنية التي يحملها هذا النص:

" حدثني مويس بن عمران قال: قال رجل لصاحبه – وكانا إما متزاملين وإما مترافقين -: لِمَ لا نتطاعم؟ فإن يد الله مع الجماعة، وفي الاجتماع البركة، وما زالوا يقولون: طعامُ الاثنين يكفي الثلاثة، وطعامُ الثلاثة يكفي الأربعة. فقال له صاحبه: لولا أعلم أنك آكَل مني لأدخلت لك هذا الكلام في باب النصيحة: فلما كان الغد، وأعاد عليه القول قال له: يا عبد الله، معك رغيف ومعي رغيف، ولولا أنك تريد أكثر ما كان حرصك على مؤاكلتي، تريد الحديث والمؤانسة: اجعل الطبق واحداً، ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه وما أشك أنك إذا أكلت رغيفك ونصف رغيفي ستجده مباركاً، إنما كان ينبغي أن أكون أجده أنا لا أنت "(١).

التحليل:

(أ) موضوع القصة:

البخل أو على الأصح لون من ألوان البخل وهو الطمع في الأكل من طعام الناس. وقد ساق الكاتب، القصة على طريقة الحوار بين رجلين كانا في سفر. تبدأ القصة مباشرة من غير تمهيد فيخبرنا الكاتب أن الرجلين كانا مترافقين في سفر ثم يسوق الحديث بينهما: الأول يغري رفيقه ويَحسن له المؤاكلة فيقدم القضية: (لِمَ لا نتطاعم؟) ثم يورد الحجة بعد الحجة ظاهراً بمظهر النصح والوعظ والإرشاد.

---

(١) فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ ، ص١٧-١٨.

الثاني: يُعَرض بما وراء هذه النصيحة من طمع.

الأول: يعيد الكرة لإقناعه ولا يقطع الأمل منه.

الثاني: يكشف الستار بوضوح عن هذا الطمع المادي الذي ألبس لباس النصيحة ويسد على صاحبه أبواب حجته.

(ب) خصائصها:

من حيث الموضوع:

١- إن هذه الحادثة التي قصتها كثيرة الوقوع يقع في مثلها الكثير من الناس، فهي واقعية الموضوع.

٢- لم يهمل الكاتب فيها التعبير عن الناحية الحسية المادية: فقد حدد علاقة الرجلين أحدهما بالآخر، واستعمل مثل قوله: معك رغيف، ومعي رغيف، ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه.

٣- ينكشف في ثنايا الحديث الذي دار بين الرجلين ما جال في ذهن كل منهما وما جاش في نفسيهما؛ فالأول طامع في لباسٍ واعظ، ومحتالٌ في زي ناصح، والآخر ماهر لا تخدعه الحيلة، شديد الاحتفاظ بماله. فالقصة قائمة على تحليل نفسي.

٤- إن هذا التضاد الواقع في القصة بين النصيحة العالية والجشع المادي في كلام الرجل الطامع، وتلك المهاجمة والمدافعة في الحوار بين رجلين لا يقل أحدهما عن الآخر مهارة ودهاء ولا حرصاً وبخلاً تجعلها فكاهية هزلية.

٥- وهي أخيراً مجردة عن مغزى خلقي ظاهر، أو تحليل فلسفي، فقد ظهر الكاتب فيها بمظهر المصوِّر، ولم يجعل القصة وسيلة لنصح أو تهذيب خلافاً لما صنعه ابن المقفع في كليلة ودمنة.

التعبير والأسلوب:

١- الألفاظ دقيقة في تعبيرها مع إيجازها: متزاملين (متشاركين في العمل على دوابهما) نتطاعم، رغيف، طبق، مؤاكلة، مؤانسة.

٢- لغة القصة لغة حية بسيطة من حيث ألفاظها وتراكيبها، والتراكيب على الخصوص أشبه بكلام المخاطبة والمحادثة بين الناس منها بالتراكيب المصنوعة وفقاً لقواعد النحو والتراكيب التقليدية من غير إخلال بفصاحة الكلام (قدام – لولا أعلم، لولا أنك تريد أكثر – تريد الحديث والمؤانسة ؟ اجعل؛ إنما كان ينبغي أن أكون أجده أنا لا أنت).

أما أهم الخصائص التي تتميز بها قصة الجاحظ وتجعل منها أدباً شخصياً يظهر فيه أثر صاحبه، فهي خصائص تتعلق بالموضوع، وخصائص تتعلق بالأسلوب، وأهم هذه الخصائص من حيث الموضوع هي كما بينها المبارك - رحمه الله :-

١- إن موضوع قصص الجاحظ مأخوذ من الحياة الواقعية، أي أن لها في الحياة أشباهاً وأمثالاً، وليست من الوهم والخيال؛ فأبطال القصة ناس من مخلوقات الله لا من مبتدعات الخيال، ومسرح القصة مكاناً معروفاً ومحدداً تحديداً كافياً، والعصر الذي تقع فيه القصة هو العصر العباسي الأول أي العصر الذي عاش فيه الجاحظ، وأما الزمان فقد يحدده في بعض القصص إذا احتاج كأن تخرج في الليل، أو النهار، أو الصباح، أو المساء، أو الظهر.

٢- لم يسلك الجاحظ في قصصه مسلك التحليل المجرد أو التفكير الخاص من المادة بل عني بتصوير الأشياء المادية بدقة وتفصيل؛ فإذا ما ذكر شيئاً حدد نوعه وجنسه ودل عليه باسمه الخاص دون الاكتفاء بالألفاظ العامة والكلمات المبهمة، وقد اهتم أيضاً بتمثيل الأشكال والمظاهر، وعني على الخصوص بتصوير الهيئات والحركات فأبدع فيها أيما إبداع.

٣- نرى واقعية الجاحظ لا تقف عند التفصيلات الدقيقة والظواهر الحسية بل تستند إلى تحليل نفسي واجتماعي وتصوير لبعض الأحاسيس والعواطف، كالبخل – والكرم – والغضب – والغيظ .

٤- واقعية الجاحظ تصطبغ بالهزل والدعابة، حيث فاق في هذه الناحية غيره من أدباء العربية حيث سيطرت هذه الروح الهزلية على أكثر كتاباته؛ فلا عجب إذا كانت في باب القصة أظهر، فالقصة أحوج من غيرها إلى الهزل والضحك، حيث إن هذه الصفة لا تخل بالواقعية التي وسمنا بها قصصه.

٥- إن قصص الجاحظ امتازت بتجردها عن رأي كاتبها فيها، واستنكافه عن التعليق عليها، سواء لتقبيح ما تضمنته أو لتحسينه، فلم يمزج تصويره بوعظ بارد أو نصح مستقل، بل ترك القصة خالصة للفن مجردة عن الأغراض الأخرى الفلسفية أو الخلقية، واكتفى بعرض مشاهد انتقاها ونفسيات صورها، ثم ترك للقارئ إن هو أبى إلا الجد أن يستنتج من تلك القصص ما شاء من نظرات في الحياة وآراء في الأخلاق[1] .

أما خصائص أسلوبه في القصة فقد بينه المبارك – رحمه الله – في الآتي:-

١- نجد الألفاظ عند الجاحظ حية، أي أنه يستعمل الألفاظ التي كانت شائعة معروفة في عهده حيث إننا نجد من بينها ما لا يزال مستعملاً إلى اليوم في لغتنا العامية، أما التراكيب فهي أيضاً الواقعية فيها أظهر وأوضح، حيث وضح الجاحظ على لسان كل إنسان ما يناسبه من الألفاظ والتراكيب، كما جعل لكل ظرف وحال أسلوباً مناسباً؛ فإن كان المتكلم من طبقة العلماء والبلغاء أجرى على لسانه الألفاظ البليغة والتراكيب الجزلة المتينة، وإن كان خادماً أو سوقياً أجرى على لسانه ما هو أشبه وأليق وهكذا، كذلك نجد في أسلوب الجاحظ ميزة كبرى حيث إنه يعطينا أمثلة صادقة

---

(١) انظر : فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ ص ١٧-١٩.

عن لغة عصره في المحادثة والمخاطبة والمناظرة والمناقشة تفيدنا في دراسة تطور اللغة من ناحيتي مفرداتها وتراكيبها.

٢- أيضاً نجد من خلال أسلوبه أنه مصدر قوي لدقائق الأمور وخبير في معرفة النفوس، ويقابلهما في الأسلوب دقة التعبير عن المعاني الحسية والنفسية في الألفاظ والتراكيب.

٣- تكثر في كلام الجاحظ التعابير التي تثير في الذهن صوراً فنية حقيقية أو مجازية، تكون أحياناً للهزل والإضحاك، وأحياناً لتفيد حسن الأداء أو جمال التعبير، فهو يلجأ إلى التعبير المباشر أكثر من لجوئه إلى الأخيلة والمجازات والإشعارات.

٤- أيضاً نجد الجاحظ سليم الذوق يتجنب تكرار الألفاظ لما ينشأ عنه من السآمة والملل، فيتفنن في التعبير وينوع أساليب الكلام[1].

(١) المرجع السابق، ص٣٤-٤١.

المبحث الثاني :

منهجه وجهوده تجاه التربية والتعليم .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : ماهية التربية وغايتها .

المطلب الثاني : أطوار التعليم بعد القرون الأولى .

المطلب الثالث : أهداف الدراسات الإسلامية في الجامعات العربية .

تمهيد:

عندما خلق الله -عز وجل- الإنسان جعله في خلقة سوية وصورة جميلة تحدث عنها القرآن في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [1]. فهذه الصورة المتكاملة للمولود حين ولادته ينقصها العلم، حيث إن هذا الإنسان يخرج إلى الدنيا لا يعلم شيئاً قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2]. فأرسل سبحانه الرسل والأنبياء؛ ليعلموا هذا الإنسان، ويوجهوه ليشق طريقه في الحياة، فكانت الدعوة إلى العلم هي أولى الآيات التي نزلت على نبينا -صلى الله عليه وسلم- قال تعالى-: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [3]. وفي ذلك دلالة على أن هذا الدين هو دين يقدّر العلم، ويعرف مدى الحاجة إليه، ويعلي من شأن العلماء، ويرفع من قدرهم، حيث وردت آيات كثيرة في هذا الشأن، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ ﴾ [5]، فكان -صلى الله عليه وسلم- المعلم الأول للأمة، يهدف من وراء ذلك إلى إعداد العقول القادرة على صنع المستقبل، بحيث تكون قائدة لا مقودة، العقول التي تبحث وتنقد وتكشف كل ما يدور حولها، كذلك تنتج وتبدع في كل ما تحتاج إليه أمتها، لا مجرد العقول التي تحفظ وتذعن وتستسلم دون حوار.

---

(١) سورة الانفطار: آية (٧-٨).

(٢) سورة النحل: آية (٧٨).

(٣) سورة العلق: آية (١).

(٤) سورة الزمر: آية (٩).

(٥) سورة فاطر: آية (٢٨).

فلم يكن -صلى الله عليه وسلم- معلماً فقط، إنما كان معلماً ومربياً، لأن التربية مقترنة بالتعليم وقد تعلو عليه، فالتعليم لا يؤتي أكله إلا إذا اقترن بالتربية فكلاهما يحتاج إليها المتعلم، فإذا كان التعليم في معناه المحدود كما عرفه بعض الباحثين عبارة عن "نقل المعلومات من المعلم إلى المتعلم بقصد إكسابه ضروباً من المعرفة" (1). فإن التربية في معناها المحدود أيضاً"تتضمن أنواع النشاط التي تؤثر في قوى الفرد واستعداداته وسلوكه، ومصدر هذه الأنواع المختلفة من النشاط عوامل مختلفة" (2).

فالتربية لا تقل أهميةً عن التعليم، فهي من أهم الميادين التي لها تأثيرها الكبير في تنشئة الأجيال، حيث إن هذه التربية في الإسلام تؤسس على قيم الأمة ومبادئها، فتغذي عقول النشء بالمعرفة والحقائق العلمية وتهذب النفس، والسلوك، والأخلاق، لذلك فإن ارتباطها بالتعليم في غاية الأهمية.

فقد جمع المبارك – رحمه الله – بين التربية والتعليم. ومؤلفاتُه في ذلك خير دليل حيث بيّن- رحمه الله - الغاية من هذه التربية بالنسبة للإنسان وعملها، بينما في المقابل شارك ووضع الخطط في العديد من الميادين التي تخدم العلم. وقد مارس التخطيط التعليمي ووضع المناهج بصفته المسئول المختص عن تدريس الدين واللغة العربية في مدارس وزارة المعارف السورية وفي الثانويات الشرعية، ثم في مناهج كليات الشريعة والحقوق والآداب بالجامعة السورية، ثم مارس التخطيط الجامعي على نطاق العالم العربي في كل من مصر والسودان والمملكة العربية السعودية، والأردن، والجزائر، حتى أصبح أحد أعلام التخطيط الجامعي المعروفين في العالم العربي (3).

---

(1) التخطيط للتربية والتعليم، محمد علي حافظ، ص٩١، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، بدون ذكر الطبعة.

(2) المرجع نفسه، ص٩٠.

(3) انظر جريدة المدينة المنورة العدد ٥٣٨٩، الثلاثاء ١٩ صفر ١٤٠٢هـ.

ويتمثل منهجه -رحمه الله- في مجال التربية والتعليم في سعيه الحثيث في تبصير الأمة وتقويمها وتهذيب أخلاقها، مستشعراً أن ما يقوم به امتداد لعمل النبوة، فسار منهجه على أن تبنى مناهج التعليم في البلاد الإسلامية على أساس الإيمان، وتدريس الدين، وجعله من الأشياء الأساسية وليس لصيقاً فيها، وتخليص منهج التربية في البلاد العربية والإسلامية من النفوذ الأجنبي، ويتمثل منهجه في النقاط التالية:

أما جهوده في هذا المجال فقد بين -رحمه الله- المقصود بالتربية وغايتها، كذلك بين الأطوار التي مر بها التعليم بعد مرحلة الازدهار في القرون الأولى، وتطوير التعليم الحالي لنظام التعليم، والهدف من هذا التعليم في الجامعات العربية. وذلك نتعرف عليه في الصفحات التالية:

المطلب الأول : ماهية التربية وغايتها :

التربية: عملية ليست مستحدثة ولا طارئة، بل هي عملية قديمة ارتبطت بوجود الإنسان على الأرض، وهي مستمرة وستبقى ما بقي هذا الوجود. وهي في حقيقتها عملية إنسانية، موضوعها الأساسي هو الإنسان بجوانب شخصيته المختلفة، كذلك هي عملية اجتماعية تعبر عن ثقافة المجتمع وأهدافه، وقد تستخدم باعتبارها تخصصاً أو علماً قائماً بذاته، أو للتعبير عن فضائل الشخصية الإنسانية أو المجتمع الإنسان، أو أنها وسيلة التقدم الثقافي والحضاري، ونظراً لاختلاف المجتمعات الإنسانية في ثقافتها، وفلسفاتها وأهدافها، ونظراً لاختلاف النظرة إلى الطبيعة الإنسانية، فقد أدى ذلك إلى اختلاف مفهوم التربية وأهدافها التي تسعى إلى تحقيقها [(١)].

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، أ د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٢١، دار الخريجي للنشر والتوزيع، الرياض، ط:٢ ، ١٤٢١هـ وفصول في اجتماعيات التربية، أ د. مصطفى عبدالقادر زيادة وآخرون، ص٢٦، مكتبة الرشد، الرياض، :٥، ١٤٢٧هـ.

أما معنى التربية في الاصطلاح عند المربين فهي: "عملية تكيف بين الفرد وبيئته. وهذه العملية تنشأ عن اشتراك الفرد، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في الحياة الاجتماعية الواعية للجنس البشري، وباستمرار هذه المشاركة واتصالها، تتشكل عادات الفرد واتجاهاته، وقيمه الفكرية والخلقية والاجتماعية" [1].

أما التربية في معناها الواسع فهي: "عمليات النمو التي يمر خلالها الإنسان من طفولته إلى نضجه ليتكيف مع بيئته المادية والاجتماعية؛ وبذلك يتعدى المعنى الواسع للتربية معناها التعليمي ليتضمن المعنى الروحي والتهذيبي والاجتماعي والاقتصادي والمهني" [2].

أما الغاية من هذه التربية، فيرى المبارك – رحمه الله- أن غاية التربية في كل بلد اتخاذ أحسن الطرائق لتكوين الإنسان المثالي في نظر ذلك المجتمع وإعداد الجيل وتأهيله من النواحي العلمية والعملية والخلقية التأهيل الذي يجعله يسد حاجات ذلك المجتمع ويحقق أهدافه ومثله العليا وينسجم معها [3].

فيرى – رحمه الله – أن واقع البلاد الإسلامية أنها لا تأخذ بفلسفة إسلامية للتربية، إنما تتبع فلسفات غربية مختلفة، فمن الواجب المحتم على الأخصائيين وضع فلسفة إسلامية للتربية تستمد قوامها من العناصر التالية [4]:

١- نظرية عقدية شاملة للإسلام وواضحة.

٢- نظرية الإسلام إلى الإنسان الواقعي وإلى الإنسان المثالي.

---

(١) في اجتماعيات التربية ، د. منير المرسي سرحان، ص٢١، دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان، ط: ٤، ٢٠٠٣م.

(٢) أصول التربية الإسلامية، ص٢٥.

(٣) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص١٥٤ .

(٤) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأقطار الغربية، ص١٥٥-١٥٦.

٣- نظرة الإسلام إلى المجتمع المثالي انطلاقاً من المجتمع الواقعي الحاضر مع مراعاة ظروف المرحلة التي نعيش فيها مع سائر النواحي والمجالات.

وبذلك يكون عمل التربية واضحاً، وهو اتخاذ أحسن الطرق لنقل الإنسان من الصورة الواقعية إلى الصورة المثالية بوجه عام، وإلى النماذج المتعددة التي يتطلبها المجتمع المثالي، سواء من جهة التربية الجسمية، أو الحسية، أو العقلية، أو الخلقية، أو الروحية [(١)].

المطلب الثاني : أطوار التعليم بعد القرون الأولى :

أ) التعليم بعد مرحلة النقل والحفظ والجمود:

أخذ التعليم الإسلامي في الانحدار، لما أصابه في هذه المرحلة من ضعف وجمود، بعد أن كان في طور الازدهار والتقدم في عصر الموسوعات وما قبله، حيث كان هذا التعليم قائماً حين واجهنا الغزو الفكري والاستعماري.

فبيّن أولاً: - رحمه الله – أن هذا التعليم أطلق عليه مسمى (التقليدي) وهي كلمة جرت الكتب الغربية إطلاقها على التعليم الإسلامي، حيث تتضمن في ذاتها حكماً تقويمياً ليس في جانب التعليم الإسلامي، فيرى عدم استعمالها لما توحيه من معاني التهجين والتقبيح، لهذا التعليم الذي يعتبر أصلاً وأساساً لكل علم، وليس للعلوم الإسلامية فقط بل حتى العلوم الغربية، منشؤها إسلامي، ولكنها حرفت فيها بعد وأضافوا إليها ما يوافق أهواءهم[(٢)].

ويرى – رحمه الله – أن نظام التعليم في هذه المرحلة لم يكن شاملاً للعلوم التي كانت في العصور الإسلامية السابقة، والتي يحتاج إليها المسلمون ويتقدم بها الفكر، بل أهملت إهمالاً تاماً، إلا في بعض البلاد الإسلامية، وفي نطاق جد محدود، فقد انتقلت هذه

---

(١) المرجع نفسه، ص١٥٧.

(٢) انظر: بين الثقافتين الغربية والإسلامية ص٨.

العلوم إلى أوروبا واعتنوا بها، وفاجؤوا العالم الإسلامي بها في صورتها الجديدة، بعد أن نسيها المسلمون، فوقفوا أمامها مذهولين وظنوا أنها من صنعهم.

أما الأسلوب والطريقة التي اتخذت في تدريس هذه المواد فبين – رحمه الله – أن في هذا النظام التعليمي الإسلامي يمتد التدريس مدة طويلة من الزمن، يلازم فيها الطالب أستاذه الذي يتخذه قدوة له، ويطبق أخلاقه وسلوكياته، وهذا الشيخ لم يصل إلى هذه المرتبة العلمية إلا إذا كان على درجة عالية من الأخلاق والتقوى والالتزام بالفرائض والسنن والآداب، ورغم كل ما يحمله الطالب لأستاذه من التوقير والتقدير، إلا أن ذلك لا يمنعه من السؤال والتناقش معه في مسائل العلم، إلا في أحوال نادرة بلغ فيها تعظيم الشيخ حداً لا يقبله الإسلام، وهذه المزية العظيمة التي يتميز بها النظام التعليمي الإسلامي لا نظير لها في التعليم الحديث، ولم يصل إليها علماء التربية على شدة سعيهم للوصول إليها [(١)].

فقد قسم -رحمه الله- التعليم إلى ثلاثة أنواع:

دروس خاصة: تكون مقصورة على عدد معين من الطلاب لا يتجاوز العشرة، ولا يحضرها غيرهم إلا بإذن من الشيخ، ويتابعون في هذه الدروس دراسة كتاب معين حتى يتموا قراءته على الشيخ، وقد يدوم ذلك سنين.

دروس علمية مخصصة لكتاب معين: وتكون مفتوحة لمن يحضرها من ذوي الاختصاص وغيرهم من الطلاب، وتكون في المساجد أو الجوامع أو المدارس والبيوت، وتكون هذه الدراسة لنوع الكتب تناسب المتخصص والجمهور، مثل كتب الحديث، والتفسير، والأخلاق.

دروس عـامة للجمهور: تلقى في المساجد والجوامع وأغلبها دروس وعظ وإرشاد[(٢)].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٣٠-٣١.

(٢) انظر : بين الثقافتين الغربية والإسلامية، ٣١-٣٣.

أما طريقة تدريس هذه العلوم الإسلامية، فبعد أن يتعلم الطالب القراءة والكتابة ويتلو القرآن، ويحفظ قسطاً منه، يبدأ بحفظ المتون، في كل علم، ثم يقرؤها على الشيخ ليفهم معناها، ثم يقرأ شروحها ليفهم ما تدل عليه، كذلك يقرأ الطالب الكثير من الكتب في علوم مختلفة، ويشرح له شيخه ما صعب عليه منها، ويسأله عما أشكل عليه، ثم أخذوا يهتمون في جميع العلوم بالجزئيات والمسائل، سواء أكانت هذه الجزئيات من أجل الموضوع، أو من الأحوال المفترضة وغير الواقعية، وقد أسرفوا في ذلك حتى بلغ النقاش في هذه الجزئيات حد الجدل العقيم والبعد عن الواقع ومشكلاته، مما أدى بالنظام التعليمي الإسلامي إلى الجمود والتقليد وضعف ملكة النقد والمناقشة والتفكير الجزئي، والبعد عن قضايا الحياة العملية ومشكلاتها وعن آفاق الثقافة وتطورها، وعن التفكير في قضايا العالم الإسلامي [1].

إلا أنه – رحمه الله – يرى أن على الرغم مما أصاب هذا التعليم الإسلامي إلا أنه اتسم بظاهرتين:-

أولاهما: أن الله قيض في كل بلد إسلامي أفراداً لهم من قوة الشخصية وسعة الاطلاع ما أخرجهم الله به من هذه الدائرة العلمية المحدودة إلى أفق أوسع وأشمل في التفكير والاطلاع على آثار الثقافة الإسلامية بجهد شخصي وتتبع خاص.

ثانيهما: ظهور حركة تجديدية إصلاحية لهذا النظام انتشرت في البلاد الإسلامية، وخاصة في القارة الهندية[2].

ب) الطور الحالي لنظام التعليم الإسلامي:

على الرغم من القوة التي يملكها النظام التعليمي الحديث للقضاء على العلوم

---

(١) انظر : المرجع نفسه ص٣٤-٣٦.

(٢) انظر : بين الثقافتين الغربية والإسلامية ص ٣٧-٣٩

الإسلامية، وعلى الرغم من إمداد القوى الخارجية له بكل وسائل الحياة، إلا أن هذا النظام وقف أمام هذه العلوم الإسلامية، وتأثر بها؛ وذلك نتيجة لنمو الشعور بالذاتية الإسلامية، في جماهير الشعوب الإسلامية، وخاصة مثقفيهم، كذلك إحياء كنوز التراث الإسلامي، ولاسيما ما كان في عصور الازدهار في قرون الإسلام الأولى، وأيضاً إدراك ما في مذاهب الفكر الغربي وفلسفاته ونظمه من نقائص كشف عنها أصحاب هذا الفكر أنفسهم [1].

فهذه العوامل التي وقفت في وجه النظام الحديث أدت به إلى تغيير وإن كان بنسبة ضئيلة جداً، وكان أبرزها:

١. أعيدت دروس الدين التي حذفت من خطة التعليم الابتدائي والثانوي في بعض البلاد، كتركيا، وإن كان هناك بعض المدارس بعيدة عن هذه العلوم الدينية.

٢. جعلت أيضاً في بعض البلدان امتحانات لدروس الدين ذات أثر في نجاح الطالب.

٣. أنشئت دراسات عليا كإنشاء كليات للشريعة وأقسام للدراسات الإسلامية في عدد من الجامعات، وذلك لتخريج المدرسين النظاميين والمؤهلين، بعد أن كان تدريس الدين لا يشترط فيه ضوابط تأهيلية، ويقوم به خريجو اللغة العربية.

٤. أدخلت مواد إسلامية في عدد قليل من جامعات النظام الحديث، إلا أن كل ذلك لم يغير الصبغة الغربية، والأسس غير الإسلامية التي يقوم عليها النظام الحديث[2].

أما عن مصير هذا النظام التعليمي الإسلامي، فإن هناك فكرة تراود بعض المسئولين، ومحاولات لدمج هذا التعليم الإسلامي في نظام التعليم الحديث مما سيؤدي إلى إلغاء التعليم الإسلامي وتغليب النظام الحديث، إذن توحيد التعليم ونظمه مع تنويع

---

(١) انظر : المرجع السابق، ص٤٧.

(٢) انظر : المرجع السابق ص٤٧-٤٨.

اختصاصاته ودرجاته أمر محمود، ولكن هذا التوحيد يجب أن يبدأ في البلاد الإسلامية بعملية تحويل نظام التعليم الحديث، إلى نظام إسلامي، في فلسفته التربوية وأسسه ومفاهيمه واتجاهاته وأهدافه، وذلك قبل أي مساس بنظام التعليم الإسلامي الأصلي الموروث ومؤسساته؛ لأن الخطر لا يأتي من قبله، بل على العكس من ذلك، هو الحارس الأمين لما تبقى من العلوم الإسلامية، وإن أعظم قضية تواجه العالم الإسلامي اليوم هي مشكلة التعليم الحديث غير الإسلامي في أسسه وفلسفته الجاثم على جميع البلاد الإسلامية وتحويله مع الإبقاء على محاسنه ومكاسبه، إلى نظام إسلامي الأسس والصبغة والأهداف [1].

المطلب الثالث : أهداف الدراسات الإسلامية في الجامعات العربية:

يعتبر تحديد الأهداف لأي عمل من الأمور المهمة لوضوح الرؤية، وتحقيق المراد من ذلك العمل، وإلا أصبح العمل مما لا يستفاد منه ويعد مضيعة للمال والوقت والجهد، والمبارك - رحمه الله - بسبب خبرته في مجال التعليم يرى أن للدراسات الإسلامية في الجامعات العربية أهدافاً عدة بينها لنا على النحو التالي:

١-إن هذه الدراسات الإسلامية، هي المكوّن الأساسي للثقافة الإسلامية التي وحدت بين الشعوب والأقطار العربية والإسلامية، فهذه الثقافة ترجع إلى عنصرين هما الإسلام واللغة، حيث تكوّن بها الفكر العربي، والشخصية العربية والإسلامية.

٢-إن هذه الثقافة الإسلامية، بسبب مضمونها الإسلامي، أصبحت وسيلة الاتصال بين الأجيال المتتابعة عبر القرون، وهي التي تكون المناخ الفكري والروحي الذي يكفل ويحقق الاشتراك في الأسس الفكرية والمفاهيم والقيم.

(١) انظر: بين الثقافتين الغربية والإسلامية، ص٥٠-٥١.

٣-إن الثقافة الإسلامية التي قد عمت جميع الشعوب الإسلامية وكان الإسلام قوامها، كان من حقها على هذه الشعوب المحافظة عليها وجعلها محل عناية، في مدارسها وجامعاتها، والتعاون على تجديد أساليبها وتطويرها وتوسيع أبحاثها، وتعميم اللغة العربية والاهتمام بها باعتبارها لغة القرآن.

٤-إن هذه الثقافة الإسلامية تعصم الجيل العربي من الذوبان والانصهار، وتطبع الشخصية الإسلامية بطابع متميز، يحميها من الغزو الأجنبي والتبعية الغربية، بما تقدمه من نظرة عامة للكون والإنسان والخالق، وإلى علاقة الإنسان بالكون وبالله، تاركة المجال للتفكير الإنساني والبحث العلمي لتفصيل الكون وكشف آفاقه.

٥-تهدف هذه الدراسات أيضاً إلى تكوين الإنسان المثالي والإيجابي الذي يدافع عن الحق والعدل والخير وسائر القيم الأخلاقية والإنسانية، ويحسن القيام برسالة الاستخلاف على الأرض خير قيام.

٦-إن الثقافة الإسلامية تجعل للإنسان هدفاً إنسانياً عاماً، بل توجد فيه الوعي لموقعه في الوجود الزماني والمكاني في نظرة أطلق عليها النظرة الربانية، فهي بذلك تجعل للمنتمين إليها من شعوب العالم الإسلامي دوراً هاماً في العصر الحاضر في الإعداد لنموذج جديد مرتقب من الحضارة الإنسانية.

٧-تأمين دراسة الإسلام للمسلمين، فكل الأهداف السابقة دافع لكل عربي ولكل مسلم، مهما يكن انتماؤه القومي، للقيام بالدراسات الإسلامية، إذن من واجب كل مسلم أن يدرس الإسلام باعتباره الدين الذي آمن به، ومن واجب كل دولة فيها مواطنون مسلمون أن تكفل لهم دراسة الدين الذي يدينون به[1].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص١٣٨-١٥٠.

٨- معرفة الإسلام نفسه معرفة أساسية كافية بحيث تكوّن في المسلم عقيدته وفكره ونفسيته وسلوكه؛ على أن تكون هذه المعرفة مركزة قوية مبنية على القرآن والسنة مع عرضها بأسلوب جديد، وفقاً لمشكلات العصر وتطبيقات المعرفة المعاصرة.

٩-تقوية الانتماء إلى الأمة الإسلامية، أي إلى الجماعة المسلمة أو المجتمع الإسلامي، ودراسة كل ما يؤدي إلى ذلك.

١٠-معرفة العلوم التي تقوم بها دنيا المسلمين وتحصل بها قوتهم على مستوى الثقافة العامة، وعلى مستوى التخصص، أي أن كل طالب علم يجب أن يأخذ فكرة إجمالية عن الفيزياء والكيمياء وعلوم الأحياء والفلك والرياضيات، وأما المتخصصون فيدرسونها الدراسة التي يقتضيها تخصصهم على مختلف المستويات. أما العلوم التي لها خلفيات فكرية وعقدية كالحقوق والاجتماع والفلسفة وما إليها، فيجب أن تدرسها فئة متخصصة من المسلمين المتمكنين في إسلامهم والمُعَدين إعداداً خاصاً. وذلك بنية تحرير التعليم والثقافة في البلاد والمجتمعات الإسلامية من تأثيرها ونظرياتها[1].

ولتحقيق الأهداف السابقة للتعليم وضع – رحمه الله – خطة تعليمية مبنية على هذه الأسس:-

١-وضع نظام تعليمي إسلامي موحد غير مزدوج الروح والمصدر، ولإزالة هذا الازدواج في ثقافتنا التعليمية يجب إقامة نظام إسلامي موحد، يبنى على تعدد الاختصاصات لا على تعدد العقليات والمصادر الحضارية، فيجب أن يدخل الإسلام إلى المدارس الحديثة والجامعات دخولاً طبيعياً صحيحاً فتقام على أسس إسلامية.

---

(١) انظر: علماء ومفكرين عرفتهم، ص٢٥٨.

٢-صبغ التعلم في جميع درجاته وأنواعه بالصبغة الإسلامية، بحيث يبنى على أساس واحد، وتنظمه فكرة واحدة مشتركة بين جميع أقسامه، ويصطبغ بصبغة واحدة في الاتجاه والتفكير والعقيدة.

٣-إحداث وعي إسلامي عام بحيث يكون هذا الوعي العقلي والنفسي، وعياً لمبادئ الإسلام وتعاليمه وقضايا الإسلام الكبرى في العصر الحاضر، ووعياً لوحدة العالم الإسلامي ومصادر قوته وما يجابه من أخطار.

٤-وصل ما بين الدين والحياة فتعلم مبادئ الإسلام وأحكامه، وتُعرض المشكلات الحاضرة على اختلاف أنواعها على أساس الإسلام ونظرته.

٥-اختيار الطرائق والأساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله في النفوس، فيراعى في ذلك السن والمستوى العقلي، مع العناية بالأصول والمبادئ وتقديم القضايا الهامة، والعودة إلى القرآن والسنة، ووصل ما بينهما وبين الآراء الفقهية.

إسلامهم والمُعَدين إعداداً خاصاً. وذلك بنية تحرير التعليم والثقافة في البلاد والمجتمعات الإسلامية من تأثيرها ونظرياتها[1].

---

(١) انظر: علماء ومفكرين عرفتهم، ص٢٥٨.

المبحث الثالث :

منهجه وجهوده في مجال الاقتصاد الإسلامي .

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول: الأسس التي يقوم عليها النظام الاقتصادي.

المطلب الثاني : العمل .

المطلب الثالث : الملكية .

المطلب الرابع : تدخل الدولة في المجال الاقتصادي .

المطلب الخامس : التكافل الاجتماعي .

تمهيد :

لا يختلف اثنان في هذا الوقت على أهمية النشاط الاقتصادي ودراسته، لأن المطّلع على أحوال العالم اليوم، وما يدور بين شرقه وغربه من صراعات يجد أن جانباً كبيراً من هذه الصراعات قائم لأسباب اقتصادية، لذلك يعتبر النشاط الاقتصادي من الأنشطة المهمة في كل نظام، بغض النظر عن كون هذا النظام إسلامياً أو غير إسلامي؛ فهو من الركائز المهمة في نهوض المجتمعات لأن الدول أصبحت الآن تقاس بنهضتها الاقتصادية، فكلما كانت الدولة أغنى وتملك ثروة اقتصادية كبيرة كانت محط أنظار العالم وإجلاله وإكباره.

أما الفروق بين هذا النظام، في ظل النظم الغربية المختلفة، وفي ظل الإسلام فنجد اختلافاً كبيراً، وذلك أن النظم الغربية أولت الجانب الاقتصادي عناية تجاوزت الحد حيث قدسته وجعلته بديلاً عن الله وعن الدين وعن الأخلاق، بينما هذا النظام في الإسلام يعتبر جزءاً من الأنظمة الإسلامية التي أوضحتها الشريعة الغراء، وبنت لها أسساً عقدية وأخلاقية وشرعية تقوم عليها، ونظمت كل ما يتصل بهذا النظام في مجال العمل، والملكية، وما يجب على ولي الأمر في ذلك، كذلك نظمت التكافل الاجتماعي بين الأفراد، وبينت كل ما يتعلق به.

فعندما نتحدث عن الاقتصاد الإسلامي يجب أن نوضح المقصود بهذا المعنى على وجه الخصوص، لأن هناك علوماً اقتصادية حديثة وغير إسلامية تتمثل في الأنظمة الاقتصادية الغربية من اشتراكية، ورأسمالية، وغيرها، **فالمقصود إذن بالاقتصاد الإسلامي** "المذهب الاقتصادي للإسلام الذي تتجسد فيه الطريقة الإسلامية في تنظيم الحياة الاقتصادية، بما يملك هذا المذهب ويدل عليه من رصيد فكري، يتألف من أفكار الإسلام الأخلاقية والأفكار العلمية

الاقتصادية أو التاريخية التي تتصل بمسائل الاقتصاد السياسي أو بتحليل تاريخ المجتمعات البشرية"[1].

أما منهجه رحمه الله في هذا المجال، فقد استخرج أحكام العلاقات المالية والاقتصادية، كالبيع، والإجارة، والشركة، والملكية وغيرها من مصادرها الكتاب والسنة، ونسقها، وبين ما ترتكز عليه من عقائد وأفكار، لمعرفة ما في الإسلام من مبادئ، وقواعد تشريعية إلزامية، وأيضاً لمعرفة موقف الإسلام من الاقتصاد واتجاهاته، لكي يتحرر البشر من الاستغلال والظلم والحاجة على صعيد المجتمع القوي الخاص، والإنساني العام، وخاصة في زحمة الصراع بين المذاهب عامةً والأنظمة الاقتصادية خاصة.

فتمثلت جهوده -رحمه الله- في هذا المجال: في بيان الأسس العقدية والأخلاقية التي يقوم عليها هذا النظام، وكذلك الأسس التشريعية، وما تشتمل عليه من موضوعات في بيان مفهوم العمل وشروطه، والملكية والعناصر المقومة لها، كذلك بَيَّن مدى تدخل الدولة في المجال الاقتصادي، وأهمية التكافل الاجتماعي ودعوة الرسول -صلى الله عليه وسلم إليه، وسوف نتعرف إلى ذلك بشيء من التفصيل في الصفحات التالية:

المطلب الأول: الأسس التي يقوم عليها النظام الاقتصادي:

أ- الأسس العقدية:

يرى المبارك -رحمه الله- أن العقائد والفلسفات المختلفة تنشأ عنها أنظمة اقتصادية مختلفة، وأن وراء أي نظام فلسفة يقوم عليها ويستمد مفاهيمه منها وينسجم معها، فيرى أن البحث في الموقف العقدي أو الفلسفي من عناصر النشاط الاقتصادي

---

(١) اقتصادنا. محمد باقر الصدر، ص٩، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط جديدة ومنقحة، ١٤٠١هـ.

هام جداً، لأنه يولد الدوافع القوية الإيجابية أو السلبية بالنسبة للعمل والإنتاج والنشاط الاقتصادي فيحدد أهداف هذا النشاط؛ فتكون أخلاقية أولا أخلاقية، وتتولد عن ذلك نتائج اقتصادية هامة[1].

فأهم هذه الأسس العقدية كما بينها المبارك رحمه الله هي:-

أ- إن الله -عز وجل- استخلف الإنسان في هذا الكون ، ليعمره، وأعطاه القدرة على ذلك، بما وهبه من حواس وعقل وسائر الصفات الجسمية قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [2]. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون" [3].

ب- أن الله عز وجل ذلل له هذا الكون وسخره ليتمكن من الاستخلاف قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[4]، فقد جاء في تفسير هذه الآية أي: سهلة لينة تستقرون عليها ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشي عليها، والذلول في الأصل هو المنقاد الذي يذل لك ولا يستصعب عليك" [5].

جـ- إن تسخير الله لهذا الكون واستخلاف الإنسان فيه يقتضي انتفاع الإنسان بما في الكون، واستثمار ما فيه من خيرات وطيبات قال تعالى: ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [6].

---

(١) انظر: نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة، محمد المبارك ص٢٠، دار الفكر، بيروت، ط: ١، ٢ ١٣٩٢هـ، ١٣٩٤هـ.

(٢) سورة البقرة: آية (٣٠)

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء: (٦٩٢) برقم (٢٧٤٢) .

(٤) سورة الملك: آية (١٥) .

(٥) فتح القدير، ص٥٤-٦١.

(٦) سورة يونس: آية (٩٣).

ويرى -رحمه الله- أن سعي الإنسان في هذه الأرض وطلب الرزق واستثمارها فيما ينفعه، فيه امتثال لأمر الله عز وجل، واستفادة مما سخره له في هذا الكون وأن المعرض عن ذلك يعتبر شاذاً منحرفاً، فليس العمل وطلب الرزق والكد عقوبة على خطيئة، وليس لعنة إلهية كما قالت بذلك بعض الديانات المحرفة كالمسيحية وغيرها لأن آدم انتهت خطيئته بالتوبة، وأمره الله أن يعيش حياة جديدة لا علاقة لها بالخطيئة التي غفرها الله له، وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١)، فنجد أن هذه الآية فصلت بين موقف الإسلام وموقف المذاهب الروحية الخالصة التي تنكر الحياة الدنيوية إنكاراً تاماً، وتُعرض عنها إعراضاً كاملاً، وتضع فاصلاً بين المذاهب المادية التي ترى في الحياة الدنيوية الاستقرار الكامل والمتاع المطلق فليس عندهم حياة أخرى وراءها فهي عندهم المستقر والمتاع.

د-إن الانتفاع بما في هذا الكون والسعي والعمل لطلب الرزق، ليس غاية في ذاته إنما هو وسيلة تقتضيها طبيعة الإنسان أو فطرته التي فطره الله عليها، والغاية هي إرضاء الله بعمل الخير وشكره على نعمه، ومراعاة حقوقه وحقوق العباد، قال تعالى: وابتغ كما أحسن الله إليك ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢).

هـ- أن استخلاف الله عز وجل للإنسان في الأرض عام في بني البشر لا يختص بفريق من الناس دون غيرهم فكلهم عباد الله.

و- أن ما يقتضيه الإنسان من مال نتيجة عمله لا يعطيه امتيازاً خاصاً عن الناس فليس للأغنياء حق زائد عن غيرهم، ولا ينقص الفقر صاحبه حقاً من حقوقه.

---

(١) سورة البقرة: آية (٣٦).

(٢) سورة القصص: آية (٧٧).

ي- يتحمل كل إنسان نتيجة عمله وهو المسئول عنه أمام الله وأمام الناس[1].

ب) الأسس الأخلاقية :

١-الاستغناء عن الغير، والكف عن المسألة، حيث نهى صلى الله عليه وسلم عن سؤال الناس، ورغب في العمل والكسب، قال صلى الله عليه وسلم: "من يتكفل لي أن ألاّ يسأل الناس شيئاً أتكفل له بالجنة، فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحداً شيئاً" [2].

٢-نفع عباد الله، وذلك مما رغب فيه صلى الله عليه وسلم حيث قال: "الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله" [3].

٣-التمتع بما أباح الله من الثمرات والطيبات واللذائذ المشروعة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [4].

أيضاً من الأسس الأخلاقية في البيع والإجارة وغيرها:

١-أن يكون العمل نفسه مشروعاً لا محرماً، فلا يعتبر التنجيم، والبغاء وغيرها من الأعمال المحرمة مشروعة، بل ممنوعة ولا يستحق عليها أجراً لأن مشروعيتها منفية.

٢-ألا يكون في العمل أو السلعة المبيعة إضرار بالناس كزراعة المخدرات، أو احتكار السلع والتحكم في أسعارها وإغلائها على الناس[5].

---

(١) انظر: نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة، ص٢١-٢٣.

(٢) أخرجه ابن ماجة: (٥٨٨/١) برقم (١٨٢٧)، قال الألباني في صحيح الجامع: (٣٣٧/٤) برقم (١٨٣٧) صحيح.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: (٤١٣/٨) برقم (٩٨٩١) وأخرجه الشهاب القضاعي في مسنده: (٢٥٥/٢) برقم (١٢٠٨) قال الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة (٣٧٢/٤) برقم (١٩٠٠) ضعيف.

(٤) سورة البقرة: آية (١٧٢).

(٥) انظر: نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة، ص٢٧-٣٠.

أما أهم النتائج من هذه الأسس العقدية والأخلاقية فهي:

١-إن الإسلام يقف من النشاط الاقتصادي موقف المحرض، ويعتبر الفقر مصيبة يجب الاستعاذة منها والتخلص منها، حيث ورد في حديثه صلى الله عليه وسلم الاستعاذة منها: "اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر" [١]. وذلك لا يتنافى مع ما ورد في مدح الفقراء وأنهم أقرب الناس إلى تلبية دعوة الخير، واتباع الأنبياء.

٢-إن الإسلام يحرم كل عمل ضار حتى لو كان ذا مردود مادي فيمنع الغش والاحتكار، فالموجه للاقتصاد في النظم المعاصرة هو الربح، وفي الإسلام هو النفع البشري.

٣-إن الأسس الأخلاقية والعقدية تولد لدى الإنسان دوافع إنسانية وأخلاقية وتجعله منسجماً مع الحياة ومع المجتمع.

٤-إن هذه الأسس تولد في النفس الشعور بالمسئولية أمام الله، ويشعر بالارتياح إذا أدى الأمانة ونفع البشر، كما يشعر بالإثم إذا غش وظلم.

٥-إن الأهداف التي أبرزتها هذه الأسس في ميدان الاقتصاد لها انعكاسها وآثارها في القواعد التشريعية التي تنظم الحياة الاقتصادية[٢].

ج) الأسس التشريعية:

فنجد أن الإسلام بيّن هذه الأسس من مصادرها القرآن والسنة وأحكام الفقهاء، وجعل هناك قواعد تشريعية لهذا النظام الاقتصادي الإسلامي تبحث في الموضوعات التالية، العمل، الملكية، تدخل الدولة، والتكافل الاجتماعي، وسوف نتناول هذه الموضوعات بشيء من التفصيل.

---

(١) أخرجه النسائي: (٧٣/٣) برقم (١٣٣٠)، قال الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٤٩١/٣) برقم (٣٧٤) صحيح الإسناد.

(٢) انظر: نظام الإسلام الاقتصاد قواعد ومبادئ عامة، ص٢٩-٣٠

المطلب الثاني : العمل :

قد ذكر -رحمه الله- أن المتتبع للنصوص الأصلية في القرآن والسنة التي استعمل فيها لفظ العمل يجد أنه يدل على المعاني التالية:

أ- بمعنى العمل الجسمي أو اليدوي، قال صلى الله عليه وسلم: "قيل: يا رسول الله، أي الكسب أطيب؟ قال: عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور" [(١)].

ب- بمعنى الولايات، وهي الأعمال التي يتولى القيام بها موظفون تُعينهم الدولة.

ج- بمعنى أعمال ولي الأمر ومن يعينه من الوزراء والأمراء، فقد ورد في البخاري باب تحت عنوان (باب كسب الرجل عمله بيده) ذكر فيه عن عائشة -رضي الله عنها- لما أُستخلف أبو بكر الصديق قال: لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي، وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال، وأحترف فيه للمسلمين) فاستعمل لفظ أحترف من الحرفة وهي الصفة.

ونستنتج من ذلك أن مفهوم العمل لا يقتصر على جهد معين أو محدد، بل يشمل كل ما يقوم به الإنسان من جهد، سواء أكان يتقاضى عليه أجراً، أم يقوم به من أجل أن ينفع نفسه ومن يعول ويكفهم عن السؤال.

ولا يقتصر مفهوم العمل على الاحتراف أو الامتهان أو الاستصناع أو الاتجار، وإنما يتسع حتى يشمل كل عمل أو منفعة يؤديها الإنسان مقابل أجر يستحقه، سواء أكان عملاً يدوياً أم ذهنياً أم إدارياً أم فنياً، وسواء أكان لشخص أم لهيئة معينة أم للدولة فالولاية الخاصة والعامة عمل[(٢)].

---

(١) أخرجه احمد في مسنده (٥٠٢/٢٨) برقم (١٦٦٢٨)، قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٦/٢) برقم (٦٠٧) صحيح.

(٢) النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه، د. أحمد محمد العسال ود. فتحي أحمد عبد الكريم، ص١٢٨.

أما بالنسبة لشروط العمل، فعندما أباحت الشريعة العمل جعلت له شروطاً وقيوداً تحدده أهمها:

أ) حرية اختيار العمل:

إن الأصل في الإسلام أن يختار الإنسان العمل الذي يرغب فيه، وأنه لم يرد نص أو دليل على أن يتولى ولي الأمر توزيع الناس على الأعمال، إلا في حالات استثنائية، كألاّ يجد غيره للقيام بهذا العمل، إذن هذه الحرية التي شرعها الإسلام تؤدي إلى نتائج مرضية وتحفز الفرد على العمل بإخلاص، لأنه اختار تلك المهنة ولم يجبر عليها ولكن هذه الحرية مقيدة بالعمل الحلال الذي يعود عليه وعلى أمته بالنفع، أما إذا تجاوز هذا القيد وعمل في أعمال تجر فساداً عليه أو على أمته فإنه يؤخذ على يده ويسلب هذه الحرية.

ب) إسناد العمل إلى أهله:

فكما هو معلوم أن البشر قد خلقهم الله متفاوتين مختلفين في أصل خلقتهم وفي قدراتهم العقلية والجسمية، فمنهم من وهبه الله قدرة على قيادة دولة، ومنهم أقل من ذلك، فتجد أن أسوأ المجتمعات هي التي تُوكَّل فيها الأعمال إلى من لا يحسنها، وليس له ميل إليها، ولا موهبة في إتقانها، ويكون كل واحد من الناس موضوعاً في غير موضعه اللائق به، وقد ورد في الحديث: "إذا أوسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[1] وأن أحسن المجتمعات وأقدرها على الإنتاج كثرة وإتقاناً هي تلك التي يوزع فيها الأفراد كل فيما يناسب قدرته ومواهبه وميوله.

لذلك كان من شروط العمل أن يتحرى من هو أهل لهذا العمل، ولا يضع أي فرد لأن الأفراد كما بيّنا بينهم فروق، وأنه رفض صلى الله عليه وسلم توليه أبي ذر -

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سئل علما وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل: ٣٦، برقم (٥٩)، وبرقم (٦١٣١).

رضي الله عنه- الولاية، مع دينه وفقهه وعلمه، لأنه رضي الله عنه ليس لديه الخبرة الكافية في هذا المجال، والرسول -صلى الله عليه وسلم- أعلم بأصحابه فقد قال صلى الله عليه وسلم: "يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها" [1]، فإذا لم يجد الخبير فإنه يولي أصلح الناس، قال ابن تيمية: " ومع أنه يجوز تولية غير الأهل للضرورة إذا كان أصلح الموجودين فيجب مع ذلك السعي في إصلاح الأحوال حتى يكمل في الناس ما لابد لهم من أمور الولايات والإمارات".

ج - ويرى رحمه الله: أن هناك فكرة اتفق عليها علماء المسلمين وهي أن الصناعات وجميع الأعمال التي يحتاج إليها المجتمع فرض كفاية، إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الآخرين، وإن لم يقم بها أحد أثموا جميعاً، يقول الغزالي في إحياء علوم الدين: " أما فرض الكفاية فكل علم لا يستغني عنه قوام أمور الدين، كالطب والحساب وأصول الصناعات والسياسة"، وقال أيضاً ابن تيمية في الحسبة: "قال غير واحد من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم كأبي حامد الغزالي وأبي الفرج ابن الجوزي وغيرهما: أن هذه الصناعات كالفلاحة والنساجة والبناية فرض على الكفاية فإنه لا تتم مصلحة الناس إلها بها "، وإذا لم يوجد من يقوم بهذا العمل، فإن هذا العمل يصبح فرض عين على القادر عليه إذا كانت حاجة المجتمع إلى هذا العمل أساسية، ويقول ابن تيمية أيضاً: " إن هذه الأعمال التي هي فرض على الكفاية متى لم يقم بها غير الإنسان صارت فرض عين عليه، لاسيما إن كان غيره عاجزاً عنها"[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة (٤٨١) برقم (١٨٢٥) وبرقم (١٨٢٦).

(٢) انظر : نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة، ص٥٤

فيظهر من ذلك أن الفرد في المجتمع الإسلامي هو جزء من هذا المجتمع لا ينفك عنه، وترتبط مصلحته مع مصالح إخوانه في المجتمع، وإذا تعارضت مصالحهم فإن مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد، اعتماداً على القاعدة الشرعية: يدفع الضرر الأعلى بالضرر الأدنى.

د- إن أصحاب العمل في الإسلام متساوون في الكرامة الإنسانية، وإنما التفاضل فيما يقدمون من أعمال لمجتمعاتهم، وذلك بحسب إتقان ذلك العمل ومدى حاجة المجتمع إليه، ومع اختلاف هذه الأعمال وتفاوتها، إلا أن ذلك ليس مسوغاً لتقسيم الناس إلى طبقات وتفضيل بعضهم على بعض(١).

ولكل عمل لكي يقوم وينهض لابد أن يكون هناك أصحاب عمل يقوم على أكتافهم، وهم صنفان :

١-فئة تخصصها قليل ونادر ككبار المتخصصين في الطب، والفيزياء، والهندسة وغيرها، وأعدادهم قليل.

٢-وفئة عاملة لا تخصص لها، والقادرون على نوع عملهم كثيرون، وأجورهم قليلة.

فواقع هاتين الفئتين في مختلف الأنظمة السياسية والاجتماعية يتمثل في:

١-في النظام الرأسمالي: كانت هذه الفئة الأخيرة مرهقة في العمل منخفضة المعيشة، قليلة المال، وينحاز هذا النظام في تشريعاته إلى الفئة القوية الأولى.

٢-أما في الثورات الاشتراكية فقد انحازت في بادئ الأمر إلى الفئة الأخيرة، واستغلت كثرة عددها لتجميعها، وإغرائها بالمكاسب؛ وذلك لسحق الطبقة الأخرى وإزالتها من مركز القوة.

---

(١) انظر : المرجع نفسه، ص٤٣-٥٢

ثم بعد ذلك أدى التفاعل الاجتماعي والتجربة الفعلية، إلى تطور النظام الرأسمالي تطوراً كبيراً نحو إنصاف الطبقة العاملة، فزادت أجورهم، وارتفع مستوى معيشتهم، وقلّت ساعات عملهم، وفي النظام الاشتراكي كذلك أصبح للكبار الاختصاصيين مكان مرموق، وأجور مرتفعة، ولكنهم سلبوا العمال ما كانوا يتمتعون به من الحرية والنشاط والنقد والمطالبة، وذلك يعود إلى طبيعة الحكم الشيوعي المستبد الذي تتركز القوة فيه بيد قادة الحزب، وليس بيد الطبقة العاملة[1].

أما موقف الإسلام من هذه المشكلة الاجتماعية فيتلخص في الآتي:

أ – اعتبر الإسلام أن جميع الفئات العالية الاختصاص، ومرتفعة الأجور، وغير ذات الاختصاص متساوية في الكرامة الإنسانية، وبينت آيات الكتاب وأحاديث السنة ذلك، وأن الإخلال بذلك يمس بعقيدة المسلم.

ب- لا ينحاز الإسلام في حكمه وتشريعاته إلى إحدى الفئتين، إنما حذر من ظلم الضعيف وأكد حقه.

جـ- أن الإسلام وضع قواعد ومبادئ لحماية العمل والعاملين أياً كانوا، وجعل من حق ولي الأمر أن يراقب العمل ويمنع الظلم ويعاقب الظالم[2].

ونضيف إلى ما سبق أن الشريعة الإسلامية جاءت واضحة كوضوح الشمس ليس في تعاليمها غموض، كل صاحب حق فيها يأخذ حقه، فعندما شرع العمل جعل الله رزق عباده على قدر سعيهم وجهدهم، فنجد في صحابته صلى الله عليه وسلم الغني والفقير، ومن يعمل ومن لا عمل له، فجعل لمن يعمل حقوقاً يجب ألّا يستهان بها، وقد بينت ذلك سنته صلى الله عليه وسلم حيث قال عليه الصلاة والسلام: "أعطوا الأجير

---

(١) انظر : نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة ص ٥٥-٥٦.

(٢) انظر: المرجع نفسة ص٥٧.

أجره قبل أن يجف عرقه (وأعلمه أجره وهو في عمله) [1]. ومن لا يعمل علمه صلى الله عليه وسلم كيف يعمل ويأكل دون أن ينتظر الصدقة.

المطلب الثالث : الملكية :

أقر الإسلام الملكية، وذلك لسابق علمه سبحانه بخلقه، حيث خلق الإنسان مفطوراً على حب التملك فعندما أرشده إلى العمل وحث عليه جعل له الحق في تملك ما يعود عليه بالنفع نتيجة لهذا العمل والتعب، فيخدم الإسلام بذلك تلك الفطرة، ويحقق للإنسان أيضاً المصلحة الدنيوية التي يسعى إليها. وقد بينت آيات الكتاب الملكية من خلال الألفاظ ومن خلال الأحكام[2].

فمما يدل عليها من الألفاظ القرآنية كلمة {الملك} فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ [3].

وكلمة {الكسب} قال تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [5].

أما العناصر المقومة للملكية فهي:-

١-حق الله: فهو الخالق والمالك لكل ما يملكه الناس، فهو الذي له الحق في منح هذا الملك للإنسان، وتحديد تصرفه، وانتفاعه به، ومن ذلك يتبين أن هناك ملكية لله عز وجل بقيت على أصلها لم تمسها يد البشر، سواء أكانت في الأرض، أو في السماء.

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٨١٧/٢) برقم (٢٤٣٤)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٢٠/٦) برقم (٢٨٦٨) قال الألباني في ضعيف الجامع (١١٢٢/٤) برقم (٧٠٢٣) ضعيف ما بين القوسين.

(٢) انظر: نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة، ص٧٠.

(٣) سورة يس: آية (٧١) .

(٤) سورة النساء: آية (٣٢) .

(٥) سورة المسد: آية (٢) .

٢-حق الجماعة: حيث إن الله استخلفهم في هذا الكون، وأعطاهم من القدرة ما يمكنهم من الانتفاع بما فيه، وتسخيره لهم، وذلك فيما سخره لهم من البحار والأنهار، وفيما سخره من ملكيات الشعوب فيما هو مشاع بينهم، وكذلك أهل القرى في امتلاكهم أراضي مشتركة أو مراعي، كل ذلك جعله حقاً لهم.

٣-حق الفرد: المخصص له نتيجة سعيه وكسبه، حيث جعل الله الفرد مكلفاً تكليفاً شخصياً ومسئولاً عن نفسه قال تعالى: كل نفس بما كسبت رهينة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[١]، فيكون للفرد حق التملك الفردي الذي يستقل به دون منازع، إنما يراعِي فيه مصلحة الجماعة، وحسن تصرف الفرد فيما استخلفه الله فيه من ملك فيراعي حق الجماعة التزاماً لا تطوعاً[٢].

ضوابط الملكية وقيودها :

فبعد أن أباح الشرع هذه الملكية جعل لها قيوداً وضوابط تلتزم بها، وهي على النحو التالي:

١-أن يكون امتلاك الملكية بالطرق المشروعة حيث حرّم الإسلام جميع الطرق التي تؤدي إلى تضخم رؤوس الأموال عن طريق الغش والخداع واستغلال حاجة الناس وعوزهم، وعن طريق القمار والربا والغضب والسرقة حيث حرّم الله ذلك في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾[٣].

---

(١) سورة المدثر: آية (٣٨).

(٢) انظر: نظام الإسلام الاقتصاد ومبادئ قواعد عامة ص ٧٢-٧٦.

(٣) سورة النساء: آية (٢٩).

٢-أن يراعي في هذه الملكية مصلحة الفرد والجماعة. فإذا كان في التصرف في هذه الملكية، ضرر يعود على الجماعة فإن الإسلام يبطل هذه الملكية؛ لأن الانتفاع بها مقيد بعدم الإضرار بالغير، كذلك يراعي الإسلام المصلحة العامة، بحيث تكون هذه المصلحة محققة لا مجرد ذريعة للتسلط على ملكية الأفراد وإزالتها.

فهذا القيد الذي ذكرناه وما قبله يجب أن يقدر بقدر الحاجة والضرورة والمصلحة المحققة، وإلا فإن التوسع في تطبيقه وتعميمه من غير تدقيق يؤدي إلى إلغاء الملكية الفردية، ويفسح المجال لإحلال مبدأ التأميم أي ملكية الأمة محل مبدأ الملكية الفردية بوجه عام، وفي ذلك تغيير جذري لنظام الإسلام الاقتصادي، وتطبيق لنظام آخر هو النظام الاشتراكي الماركسي، الذي يقوم على التأميم، أي ملكية الأمة أو المجتمع، وبالتالي نفي وإلغاء الملكية الفردية، وحق الفرد في التملك.

٣-أن يحسن المالك لهذه الملكية التصرف فيها، فلا يبذر فيها أو ينفقها فيما حرّم الله، لأن زيادة المال وكثرته قد يترتب عليه، في بعض الأوقات، طغيان صاحبه وفساده، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[1].

لذلك يمنع الإسلام الفرد من التصرف في ماله إذا لم يحسن التصرف فيه لسفهه، أو طرأ عليه جنون أو عجز ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[2][3].

فيتبين مما سبق أن هذه الملكية التي أقرها الشرع إنما للعبد منها المنفعة، بقدر إقرار الشرع، أما عين هذه الملكية وأصلها فهو لله عز وجل الذي له الملك من قبل ومن بعد،

(١) سورة العلق: آية (٦-٧).

(٢) سورة النساء: آية (٥).

(٣) انظر : نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة ص ٧٧-٧٩.

قال تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ [1]، فقد جاء في تفسير هذه الآية: "حث الله تبارك وتعالى على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه أي مما هو معكم على سبيل العارية فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفكم فيه من المال في طاعته"[2].

وقال القرطبي: "دليل على أن أصل الملك لله سبحانه وتعالى وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي الله فيثيبه على ذلك بالجنة" [3].

طرق اكتساب الملكية :

أ) طرق مشروعة.

ب) طرق غير مشروعة.

فأما الطرق المشروعة فهي :-

١-الملك نتيجة الجهد الشخصي، كالعمل المأجور، مثل الصناعة والزراعة، والتجارة، وحيازة المباحات، كالصيد والاحتطاب، والبيع، والشراء وغيرها من الأعمال المباحة التي ملكها بجهده.

٢-التملك بحكم الشرع من غير جهد، وذلك لمصلحة متحققة وحكمة ظاهرة، كاستحقاق النفقة والميراث، والاستحقاق من بيت المال، واستحقاق جائزة السبق والرهن في الأموال التي أجازها الشرع.

---

(١) سورة الحديد: آية (٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم ص٣٢٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ص٢٣٨، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط: ١، ١٤٢٧هـ.

٣-التبادل بين الملكيات، وذلك بعد أن يحصل إنسان على ملكية شيء، فيمكنه التبادل بالرضا والعدل بينه وبين آخر فيما يملكه، كأن يدفع العامل الذي ملك مالاً بجهده، لمن يملك ثياباً يشتريها منه.

أما الطرق غير المشروعة فهي:

أ- أخذ مال الغير بغير حق شرعي، كالسرقة، والغصب، والغلول.

ب- ما يؤخذ بطريق القمار؛ وذلك لما يسيطر على المتقامرين من الحسد والأثرة والتنازع.

جـ- أخذ المال مقابل عمل محرم كالبغاء، والتكهن، والرشوة.

د- العقود المحرمة وفي مقدمتها الربا[1].

المطلب الرابع : تدخل الدولة في المجال الاقتصادي :

لكي يؤتي العمل ثماره، لابد له من تخطيط وتنظيم، فالنظام الاقتصادي لكي يقوم بحركة تنموية جيدة، وإنتاج عالٍ، لابد له من التخطيط الذي يكون في قيام الدولة عن طريق أجهزتها المختصة بوضع خطة للتنمية الاقتصادية لمدة محدودة، بحيث تحدد الأهداف الاقتصادية المطلوبة، والطاقات البشرية والمادية اللازمة لتحقيقها [2].

وبما أن الدولة مسئولة مسئولية كاملة عمن هم تحت إمرتها من رعاياها وشعوبها لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته" [3]. فإنها تقع عليها مهمة التخطيط لنظامها الاقتصادي، كذلك فإن التشريع الإسلامي قد رخص للدولة التدخل في هذا النظام لإقامة العدل ورفع الظلم، وأوجب على الرعية السمع والطاعة لولي الأمر ما دام منفذاً ومطبقاً لأمر الله ورسوله، قال تعالى: يا وأحسن تأويلا

---

(١) انظر : نظام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة ص٩٣.

(٢) انظر: النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه ، ص٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها(١٠٣٠) برقم (٥٢٠٠).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [(١)].

فإن تدخل الدولة إذن من الأمور التي يعود نفعها على الراعي والرعية. حيث تستقيم بها الحياة الاقتصادية وتستقر، وهذا التدخل يكون محدوداً؛ لأن الأصل في هذا النشاط أن يكون الإنسان حراً، ولكن هذا التدخل من أجل إصلاح ما قد يختل في هذا النظام الاقتصادي.

أما المواطن التي رخص الشرع للدولة أن تـتـدخل فيها في المجال فهي:

أ) التدخل في مجال العمل والإنتاج.

ب) التدخل في مجال الملكية.

١-ففي مجال العمل، للدولة حق التدخل ومنع ذلك العمل إذا كان محرماً وغير مشروع كالتعامل بالربا، وصناعة الخمر، وأعمال الفجور والشعوذة والسحر، حيث لولي الأمر الأخذ على يد هؤلاء ومنعهم، نظراً لما يترتب على عملهم من فساد للمجتمع.

٢-للدولة حق التدخل، في تحديد الأجور، وذلك حماية للعامل من استغلال أصحاب العمل، ومنعاً للعمال من التحكم في أصحاب الأعمال بغض النظر عما تعنيه كلمة العمل، سواء أكان عاملاً في مجال الفكر، أم الأعمال اليدوية، فتحدد الدولة الأجر منعاً من استغلال أحد الفريقين للآخر.

٣-أيضاً من حق الدولة إجبار العامل على العمل، وخاصة إذا كان الناس محتاجين إلى مثل هذا العمل، ولم يكن هناك غيره يستطيع القيام به، قال ابن تيمية: "فإذا كان الناس محتاجين إلى فلاحة قوم أو نساجتهم أو بنائهم صار هذا العمل واجباً يجبرهم ولي الأمر عليه، إذا امتنعوا عنه بعوض المثل ولا يمكنهم من مطالبة الناس بزيادة عن عوض المثل،

---

(١) سورة النساء: آية (٥٩).

ولا يمكن الناس من ظلمهم بأن يعطوهم دون حقهم" ، إذن إن هذا التشريع مما سبق به الإسلام النظم الحديثة، فلم تعرف فكرة الإجبار على العمل وإعطاء الدولة هذا الحق، مع ما فيه ظاهراً من تحديد لحرية الفرد، وذلك لمصلحة المجتمع، لم تعرف هذه الفكرة إلا في العصر الحديث ومنذ قريب جداً، ولكن الإسلام حصر هذه الحالة وقصرها على حالة الضرورة أو الحالة لمثل هذا الإجراء، وبهذا الاعتبار يكون العمل في الإسلام حقاً للإنسان وواجباً في آن واحد[1].

ب) أما التدخل في مجال الملكية : فيشمل :

١-منع الطرق غير المشروعة للكسب، كالسرقة، والغصب والقمار والرشوة، وإبطال العقود التي لا تجيزها الشريعة.

٢-منع التصرفات الضارة بالغير أو بالمجتمع، يقول القاضي أبو يعلى "فإن نصب المالك تنوراً في داره فتأذى الجار بدخانه أو نصب في داره رحى أو وضع فيها حدادين أو قصارين فهل يمنع من ذلك؟ فقد روي عن الإمام أحمد ألفاظ تقتضي المنع فقال في رواية عبدالله في رجل بنى في داره حماماً أو حشاً يضر بجاره، فقال النبي صلى الله عليه سلم: "لا ضرر ولا ضرار"[2].

٣-منع الوسطاء؛ وهم الذين يتلقون السلع التي يأتي بها المنتج قبل أن تصل إلى السوق ويبيعونها، مستغلين جهل المنتج لسعر السوق، وجهل المستهلك لسعر السلعة الجديدة، حيث يختل بذلك قانون العرض والطلب، ومن أجل ذلك الضرر الذي يعود على المنتج والمستهلك منع الرسول -صلى الله عليه وسلم- الوساطة ونهى عن تلقي الركبان، وأن

(١) انظر : نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة ص ١٠٨-١١٢

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره: ٧٨٤/٢ برقم (٢٣٤٠) وبرقم (٢٣٤١).

قال الألباني : صحيح، انظر صحيح سنن ابن ماجه : (٣٤٠/٥، برقم (٢٣٤٠).

يبيع حاضر لباد، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تلقوا الركبان، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ولا تناجشوا ولا يبع حاضر لباد" [1]، فيعتبر هذا أساساً واضحاً لتقوم الدولة بمنع كل استغلال للتجار ووكلاء الشركات وأمثالهم والإثراء بأرباح فاحشة على حساب المستهلكين دون أن يكون ثمة تكافؤ بين عملهم وربحهم، اللهم إلا مجرد معرفة المنتج الخارجي، واستغلال جهل المستهلك للثمن الأصلي للبضاعة، وفي مثل هذه الحال نرى أن على الدولة الإسلامية أن تنظم موضوع الوكالات على أسس سليمة غير استغلالية، سواء من حيث نسبة الربح أو من حيث الاستغناء عن تعدد الوسطاء وتتابعهم، فإن ذلك مما يؤدي إلى تراكم الأرباح على ثمن الكلفة، وبالتالي غلاء السلع دون مسوغ، وهذه نقيصة من نقائص المذهب الفردي الرأسمالي.

٤-تحديد الأسعار؛ إن الأصل في الشريعة الإسلامية، حرية البيع وما يتبعه من تحديد السعر إذ لم يرد في كتاب الله ولا في سنة نبيه ما يدل على الأمر بتحديد السعر، حيث امتنع صلى الله عليه وسلم عن التسعير لما غلا السعر في عهده وقال: "إن الله هو القابض الباسط الرزاق المسعّر، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحد بمظلمة إيّاه في دمٍ ولا مال" [2].

إلا أن هناك حالات استنتج الفقهاء من نصوص الشريعة جواز التسعير فيها بل وجوبه، ويقول ابن تيمية في هذا الشأن "فإذا كان الناس يبيعون سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم وقد ارتفع السعر إما لقلة الشيء وإما لكثرة الخلق فهذا إلى الله، فإلزام الخلق أن يبيعوا بقيمة بعينها إكراه بغير حق" ويقول أيضاً: "لولي الأمر أن يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه مثل من عنده طعام لا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل والبقر والغنم وكل محفلة (٤٠٤) برقم (٢١٥٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: (٤٦/٢٠) برقم (١٢١٣١)، قال الألباني في صحيح الجامع برقم (١٨٤٦) صحيح.

يحتاج إليه، والناس في مخمصة فإنه يجبر على بيعه للناس بقيمة المثل، ولهذا قال الفقهاء من اضطر إلى طعام الغير أخذ منه بغير اختياره بقيمة مثله، ولو امتنع من بيعه إلا بأكثر من سعره لم يستحق إلا سعره". فإستناداً إلى آراء الفقهاء فإن ابن تيمية يشترط للتسعير ضرورة الناس وحاجتهم.

٥-الإجبار على البيع والتأجير: ومن ذلك حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي ذكره ابن تيمية: "وفي السنن أن رجلاً كان له شجرة في أرض غيره وكان صاحب الأرض يتضرر بدخول صاحب الشجرة، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم "فأمره أن يقبل منه بدلها أو يتبرع له بها فلم يفعل فأذن لصاحب الأرض في قلعها وقال لصاحب الشجرة: إنما أنت مضار ".

فقال ابن تيمية في ذلك: " فهنا أوجب عليه إذا لم يتبرع بها أن يبيعها فدل على وجوب البيع عند حاجة المشتري، وأين حاجة هذا من حاجة عموم الناس إلى الطعام" .

فجعل التشريع الإسلامي الإكراه على البيع أو إزالة الملكية بمقابل تعويض، حاله استثنائية، فلا يجوز تعميمها عن طريق التوسع في تأويل النصوص، لتوافق بعض الأنظمة الاقتصادية الحديثة، التي تعمم الملكية وتلغي الملكية الفردية [١].

المطلب الخامس : التكافل الاجتماعي :

راعت الشريعة الإسلامية البشر، من خلال التفاوت القائم بينهم، حيث إن الله عز وجل كما خلقهم مختلفين في الأشكال والألوان، جعلهم مختلفين في الأرزاق والمعايش، فمنهم الغني، ومنهم الفقير، قال تعالى:﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ﴾ [٢]، وقد يكون هذا التفاوت ابتلاء واختباراً منه سبحانه وتعالى: وهو الذي

---

(١) انظر: نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة ، ص ١١٣-١٢٠.

(٢) سورة الرعد: آية (٢٦).

جعلكم إلى ليبلوكم فيما آتاكم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[1]، فأولتهم الشريعة أشد العناية والاهتمام من خلال توزيع الحقوق والواجبات، حيث كل صاحب حق يأخذ حقه، ومن خلال التكافل الاجتماعي الذي دعت إليه، وقد انعكس هذا الاهتمام بوضوح في الخطاب الأول الذي ألقاه الرسول صلى الله عليه وسلم في أول عمل سياسي باشره في دولته الجديدة، حيث دعا صلى الله عليه وسلم من خلال خطبته تلك إلى بناء مجتمع متكامل يقوم على الإنفاق والبذل والعطاء[2].

فعند التأمل في نظرة الإسلام إلى التكافل الاجتماعي نجد أن الإسلام، حذر من الفقر وجعله مصيبة يجب التعوذ منها، وسلك في تحرير البشر من هذه الآفة طريقين، طريقاً تشريعياً إلزامياً، وطريقاً داخلياً نفسياً، وإن الفقر الذي يقع على البشر قد يكون بسبب الظلم، أي ظلم ذوي الجاه والسلطان والمال لغيرهم لمن هم أقل منهم أو تحت إمرتهم، فيجب أن ينكر الظلم ويرفع ويغير وإلا أثموا جميعاً، أما إن كان الفقر نتيجة تقصيره وتكاسله في العمل فهو المسؤول عن نفسه، أما إذا كان الفقر نتيجة طبيعية، ومصيبة خارجية لا يد لأحد فيها، فهو يطالب بحقه في بيت المال، لأن الإسلام كلف القادرين بالعاجزين والموسرين بالمعسرين، وذلك تحقيقاً لمبادئ الإسلام التي نرى فيها المجتمع البشري وحدة متكاملة متعاونة، قال صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [3]، كذلك يُلزم الإسلام من لديه زيادة عن حاجته وحاجة عياله أن

---

(١) سورة الأنعام: آية (١٦٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ص١٠٥، دار المعرفة، بيروت، لبنان، حققها مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي بدون ذكر الطبعة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، (٦٦٠) برقم (٢٥٨٦).

يعود بهذه الزيادة، سواء مال أو طعام، إلى من لا مال عنده، ولا يقتصر من نفسه على أداء الزكاة فقط، بل يتعداه إلى بقية المال بالنسبة للأغنياء الذين في أموالهم فضل وسعة [1].

فتلك نظرة الإسلام إلى التكافل الاجتماعي، أما حل هذه المشكلة فقد تعرض لها الإسلام كما بيّن المبارك -رحمه الله- وذلك يتمثل في طريقتين:-

أ) تنظيم تشريعي إلزامي يقوم على أساس العدل والتكافل، ويكفل تنفيذه قوة الدولة، والوازع الداخلي المبني على أن مصدر هذا التشريع هو الله الخالق.

ويتمثل هذا التشريع الإلزامي في :-

١) التكافل في نطاق الأسرة : ويشمل النفقة على الزوجة والأبناء والنفقة الواجبة بسبب القرابة (مثل الأب – والأم وغيرهم).

٢) التكافل في نطاق المجتمع أو الدولة: حيث إن الدولة الإسلامية تتولى كفالة جميع المحتاجين إلى الإعالة من رعاياها على اختلاف أديانهم، ما دامت هذه الكفالة ضرورية لهم؛ ليتمكنوا من الحصول على أسباب العيش الكريم، فهي مسئولة عن جميع أفرادها، فالقادرون المستغنون مكلفون، إلزاماً وإجباراً إن لم يفعلوا ذلك طواعية، بالعاجزين والمحتاجين للمعاونة، والإسلام يلزمهم باقتطاع جزء من أموالهم يكفي لإعالة الآخرين.

ب) تنظيم تطوعي يؤيده وازع الإيمان والتقوى: وهو تنظيم تطوعي اختياري ظاهر يتصف بالإلزام الداخلي النفسي بالنسبة للمؤمنين، فهو يحقق جانباً من التعاون والتكافل الاجتماعي ويشمل هذا التنظيم:

١) صدقة التطوع: قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ

---

(١) انظر: نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة، ص١٢٩- ١٣٥.

ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [1].

٢) صدقة التطوع الدائمة: حيث جاءت الأحاديث النبوية حاثة على هذه الصدقة الدائمة قال صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" [2].

٣) الوقف: فيكون بحبس العين المملوكة أي الالتزام بعدم بيعها ولا هبتها ولا توريثها والتصدق بمنفعتها في جهة خير.

٤) الوصية: وهي هبة وصدقة ويكون تنفيذها بعد الوفاة.

٥) الكفارات: وقد جعلها الإسلام لمحو بعض الذنوب، التي فيها حق شخصي لأحد.

٦) النذور: ويراد بها ما يلزم الإنسان نفسه من أعمال البر من صدقة وتبرع، سواء أعلق ذلك على تحقيق أمر يتمناه أم لم يعلق، فيجب عليه الوفاء بما التزم به لله ونذره [3].

---

(١) سورة البقرة: آية (١٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: (٣/٦٦٠) برقم (٤٦٨٥) قال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣/٣٨٦) برقم (١٣٧٦) صحيح.

(٣) انظر: نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة، ص١٤١-١٥٦.

المبحث الرابع :
جهوده ومشاركاته العلمية في مجال المؤتمرات والندوات والمحاضرات .

إن الحركة الإسلامية اليوم تقف في مواجهة سيل جارف يكاد يكتسح الأمة الإسلامية بأسرها، لذلك كانت هذه الحركة تقف في طريقه بكل ما أوتيت من قوة من خلال الصياغة الحسنة للإسلام وتقويته في نفوس أبنائه وتزرع فيهم روح البذل والتضحية وتعدهم بالتخطيط، وتضعهم بين الحين والآخر أمام مسئوليات ومهام، وتعودهم على الجرأة والإقدام، وتستأصل من نفوسهم عوامل الضعف والخوف والانهزام، وذلك من خلال ما تقوم به هذه الحركة من الدعوة والتبصير بالإسلام وإقامة الندوات والمحاضرات التي تقوي العقيدة، وتستنهض الهمم لدى الشباب، فكان المبارك -رحمه الله- ممن أدركوا أهمية هذه الخطوة في حياة الأمة والشباب خاصة، فقد شارك -رحمه الله- في كثير من المناطق العربية والإسلامية، وكان له جهده الفعّال فيها، ومن ذلك المؤتمرات التي عقدت في كراتشي ولاهور، والجزائر، ومقديشو، والقدس، وطرابلس الغرب، فكان الإسلام هو قضيته الأولى التي يسعى لها وإليها.

لقد دعا -رحمه الله- إلى عالمية الإسلام، وزار كثيراً من البلاد الأوربية وحضر مؤتمرات وندوات غربية؛ وذلك ليكشف لهم خاصية الإسلام، فدعا أهل الغرب إلى فهم الإسلام بوصفه البلسم الشافي لكل أمراضهم وأزمانهم، وخاصة بعد أن تطورت المذاهب الغربية الديمقراطية ، والماركسية، وبدأ أهلها ينقدونها من داخلها، وحاجة الغرب إلى منهج القرآن الكريم، وأن العقل الإنساني يدل على حقائقه، ويصل إلى مناهجه من غير عناء، كما يستطيع إثبات الوحي ونبوة محمد -صلى الله عليه وسلم، وهو يوصي باحثي المسلمين ألا يقبلوا الفكر الغربي وأن ينقدوه وأن يكشفوا انشطاريته وماديته ووثنيته، وأن يقدموا الإسلام الذي هو المفهوم الجامع الشامل للإنسان روحاً ومادة، ودنيا وآخرة، وعقلاً وقلباً [1].

---

(١) انظر: مجلة البنوك الإسلامية، صفر ١٤٢٠هـ، ص١٠.

أما نشاطه في مجال المحاضرات فكانت له حلقات علمية يعالج فيها موضوعات إسلامية علمية، ومشكلات اجتماعية مع طلاب ومدرسين وعمال، كما كان له نشاط متواصل في إلقاء محاضرات عامة على مختلف المستويات، ولم يقتصر نشاطه على المدن بل كثيرا" ما كان يخرج مع فريق من الشباب إلى القرى للدعوة إلى الله [(١)].

أما أبرز المحاضرات التي ألقاها رحمه الله في كثير من البلدان العربية والإسلامية فهي[(٢)]:

عنوان المحاضرة	المكان	التاريخ
١- التحديات المعاصرة للإسلام.	مكة المكرمة	١٣٩١هـ
٢- مراعاة الداعية المسلم لأحوال البيئة والمخاطبين.		
٣- الجانب الفكري ومشكلاته في حركات الدعوة الإسلامية المعاصرة		
٤- مستقبل الحركة الإسلامية المعاصرة في القرن الخامس عشر الهجري.	الجزائر	
٥- أثر وضع الأسرة الحقوقي والأخلاقي في حماية الطفل وانحرافه.		
٦- ذاتية الإسلام (ألقاها في مؤتمر)	لاهور	١٩٥٧هـ
٧- المرأة في القرآن الكريم.	دمشق	١٩٥٧هـ
٨- نظام الأسرة في الإسلام (جزءان) دراسة اجتماعية مقارنة.	الرياض	
٩- مشكلة التعطل والعقائد السائدة.	الخرطوم	١٩٦٩م
١٠- الدوافع العقائدية والأهداف الأخلاقية في التنمية في الإسلام	أمريكا	١٩٧٦م
١١- التنمية الصناعية في إطار الإسلام.	قطر	١٩٧٦م
١٢- الوحدة الإسلامية.	أمريكا	١٩٧٦م
١٣- نظرة الإسلام العامة على الوجود وآثارها في الحضارة.	دمشق	١٩٥٨م
١٤- نظام الإسلام العقائدي.		١٩٧٨م
١٥- مفهوم الأمة بين النظريات الاجتماعية والتصور الإسلامي.		
١٦- اللقاء بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي.	باريس	١٩٧٩م
١٧- القسط في القرآن.	الرباط	١٣٩٥هـ

(١) انظر: كتاب محمد المبارك العالم والمفكر والداعية. حسن أدهم جرار، ص١٤٤-١٤٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٤٥، نقلاً عن رسالة من د. صالح المبارك في ١٦/٣/١٩٩٧م.

عنوان المحاضرة	المكان	التاريخ
١٨- الدراسات الإسلامية في الجامعات.		
١٩- نظرة الإسلامي إلى الحياة.		
٢٠- تدخل الدولة الاقتصادي في الإسلام.	جدة	١٣٩٥هـ.
٢١- النظرة إلى الإنسان والكون والحياة.	الرياض	١٤٠٠هـ
٢٢- تدريس القرآن الكريم في التعليم الابتدائي.		
٢٣- في زوايا التاريخ: من قصور الخلفاء إلى أكواخ الزهاد.	دمشق	١٩٣٥هـ
٢٤- الإسلام واللغة العربية.		١٩٦٨م
٢٥- شيخنا العظيم (بدر الدين الحسني).	دمشق	
٢٦- التعاون الإنساني بين الشعوب في ضوء التطور الاجتماعي وفي نظر الإسلام.	استانبول	١٩٧٦م
٢٧- حقوق الإنسان ومكافحة التمييز العرقي.	مكة المكرمة	
٢٨- آفاق جديدة في موقف الغرب من الإسلام.	أبو ظبي	
٢٩- الفكر الإسلامي بين التبعية والذاتية.	الرياض	١٤٠٠هـ
٣٠- مراحل العمل الإسلامي لتحقيق حضارة إسلامية رائدة معاصرة.	عمان	١٩٧٩م
٣١- نظرات في تراثنا التربوي.		
٣٢- التعليم الجامعي والثقافة الإسلامية ٣٣- خلاصة محاضرات عامة ألقيت في بلاد متعددة.		

الفصل الرابع

أثر جهود الشيخ في المسيرة الفكرية والثقافية في العصر الحاضر .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :

الأثر الفكري .

المبحث الثاني :

الأثر الثقافي .

المبحث الثالث :

الأثر الدعوي .

إن للأمة الإسلامية قادة قيضهم الله لها، للذود عنها منذ أن تأسست تلك الأمة واتخذت ذلك الدين نبراساً لها، فحملة الحق، وحملة الفكر يذودون عنها بأرواحهم، وعلمهم وأقلامهم، ومن بين أولئك القادة الشيخ محمد المبارك الذي خدم الأمة الإسلامية في عصره، وجاهد في سبيلها أيما جهاد، وانبرى لدعاة الكفر والضلال ليخرس أفواههم، بالحق والتبيان.

فقد خلّد التاريخ اسم ذلك الداعية، في صفوف المناضلين والقادة، وذلك لما له من جهود جبارة في المسيرة الفكرية والثقافية حيث خلف ثروة علمية ضخمة تضمنتها تلك المؤلفات التي اختطها في جميع المجالات من فكرية وثقافية ودعوية،وقد ظهرت لنا من خلال هذه المؤلفات أهم الآثار التي قام بها – رحمه الله – في مجال الفكر والثقافة والدعوة، لأن هذه المؤلفات تركت بصمتها الفكرية والثقافية وكان لها أعظم الأثر على من درسها أو قرأها.

وسوف نوضح في الصفحات التالية أهم الآثار الفكرية والثقافية والدعوية التي تركها الشيخ من خلال استعراض مؤلفاته – رحمه الله – .

المبحث الأول : الأثر الفكري :

١-دعوته – رحمه الله – إلى حملة الفكر الإسلامي بأن مهمتهم أن يكشفوا عن ذاتية الإسلام ويحرروا المجتمع الإسلامي من التبعية الفكرية، ومن التلفيق، ويزيلوا من الأذهان تلك الصورة المزورة للإسلام التي يسودها الاستسلام والتواكل والسلبية، وتقدم على أنها هي الإسلام، فيجب أن تصفى مرحلة التلفيق ويعمم وعي المرحلة الذاتية في جماهير الشعوب الإسلامية حتى يجدوا وحدتهم الضائعة، وتنهار أمامهم جميع النظم الغربية [١].

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجه الأفكار الغربية ص١٨-١٩ .

٢-صحح – رحمه الله – بعض المفاهيم التي تدور حول الإسلام والتيارات الفكرية، من ديمقراطية، واشتراكية، فبين أنه ليس لنا أن نقول: إنها من الإسلام لأن الإسلام لا يقبلها ولا يستسيغها ولا يتضمنها على العموم، إذ هما مذهبان مختلفان في أصولهما، وجذورهما، وفلسفتهما، ونتائج تطبيقهما عن الإسلام، فلو نظرنا إلى الديمقراطية من حيث إنها اتجاه يحارب الفردية والاستبداد، والاستئثار، والتمييز، ويسعى في سبيل مصلحة جمهرة الشعب، ويشركه في الحكم، وفي مراقبة الحكام، وسؤالهم عن أعمالهم ومحاسبتهم عليها، فالإسلام ذو نزعة ديمقراطية بهذا المعنى، أو أن للإسلام ديمقراطيته الخاصة به؛ أي نظامه الذي يمنع استبداد الحكام واستئثارهم، ويمكّن الشعب من مراقبتهم ومحاسبتهم.

ولو نظرنا أيضاً إلى الاشتراكية بأنها إشراك جميع أفراد الشعب في المنافع والمصالح وعدم استئثار فئة من الناس بالمنفعة وتدخل الدول في تقييد الفعاليات الاقتصادية كتحديد حقوق الملكية وثمارها تقييداً يؤدي إلى العدالة في توزيع الثروة وإلى تكافؤ الفرص بين الناس بحيث يعيشون على مستوى من الحياة يؤمن لهم الحاجات الإنسانية المادية والمعنوية، والاشتراكية بهذا المعنى لا منافاة بينها وبين الإسلام، بل إن الإسلام على طريقته الخاصة يتجه في هذا الاتجاه المؤدي إلى تعميم النفع وإقامة العدالة وإنصاف الناس بل يجيز تدخل الدولة في فعاليات الأفراد الاقتصادية وغير الاقتصادية إذا اقتضت الضرورة أو المصلحة العامة.

ومع كل ما ذكرنا من وجود نزعة توافق الديمقراطية والاشتراكية في الإسلام فإننا لا نرى أن نجعل هذه الشعارات البارزة في حياتنا وهذه العناوين هي عناوين مجتمعاتنا ودولنا التي نلخص بها نهضتنا ونصف بها حضارتنا؛ لأنها حينئذ تكون عناوين خاطئة، إذ تشير إلى بعض صفات الحضارة الإسلامية وتهمل صفات ومقومات أخرى،

فالاستمرار في هذه الخطة خطر على الإسلام لما في ذلك من إحداث التباس بين مفاهيم الإسلام ومفاهيم مذاهب أخرى تختلف عنه اختلافاً أساسياً [1].

٣-الرد على من ادعى أن وجود حكم أو دولة ليس من الإسلام " كعلي عبد الرازق وأمثاله "، وأن ذلك يعتبر منهم خروجاً عن الإسلام وإغراقاً في الجهل والغباء، وضلوعاً في المؤامرة التي يقوم بها أعداء الإسلام لتحطيمه والحيلولة دون يقظة شعوبه، فبيّن -رحمه الله-:

أ- أن القرآن جاء متضمناً أحكاماً عدة، جنائية تتمثل في الحدود كقتل القاتل، وقطع يد السارق، وأحكاماً مالية تتعلق بالنفقة الواجبة من الأقارب والميراث والزكاة وطرق صرفها، وأحكاماً دولية تتضمن الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ولحماية الدين، ورد الاعتداء على المسلمين وأوطانهم ودولتهم، وأحكاماً دستورية تتضمن توجيهات تتعلق بواجبات الحاكم، فمجموع هذه الأحكام لا يعقل إيرادها والالتزام بها إلزاماً يعتقد المؤمن بالإسلام بوجوبه والإثم بتركه إلا إذا كان القرآن يفرض على المسلمين تنظيم الحكم وإقامة الدولة.

ب- اشتمال القرآن أيضاً على مجموعة من الحقائق الكبرى التي دعا إلى الإيمان بها " العقائد "، فجعل الإنسان والكون المحيط به منوطاً وجودهما بخالق مهيمن عليهما، وجعل الكون مسخراً للإنسان، والإنسان مكلفاً من الله بعمارة الأرض وتسخير الكون لمنفعته، واستخلفه فيه، وجعل له عقلاً يدرك به حقائق المحسوسات وأرسل إليه الرسل وجعل له حياة عمل وحياة مسئولية وجزاء، واقترنت هذه الحقائق بعبادة رسمها له لتعبر عن خضوعه لله، وفي ظل ذلك تنمو الحياة الإنسانية ويتعاون الأفراد فيما بينهم ليقوموا بما حملهم الله من أمانة،

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ص٨٤-٨٩.

وكل ذلك لن يتحقق دون أن تكون الدولة أو التنظيم السياسي جزءاً منها يفسح لها مجال الحياة لتتحقق رسالتها ويحميها مما يعارضها ويعوق سيرها.

ج-إن في أقوال الرسول -صلى الله عليه وسلم- ما يدل دلالة صريحة واضحة على أن الحكم أو الدولة جزء من تعاليم الإسلام التي بلغها الناس، فقد أكد على ضرورة الجماعة بقوله عليه الصلاة والسلام: "لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم" [1]، وكذلك وردت أحاديث تدل على الحاكم منها قوله صلى الله عليه وسلم: "فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته" [2]، بل إنه عليه الصلاة والسلام يوجب صراحة على المسلم أن ينتمي إلى دولة إسلامية ويرتبط بها بعق وبيعة، قال صلى الله عليه وسلم: "من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية" [3]. وغيرها من الأحاديث التي تدور حول ضرورة البيعة والانتماء إلى الدولة الإسلامية.

د- فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- في إقامة دولة إسلامية، وكونه إمام المسلمين في عهده وأميرهم ورئيس دولتهم، ولو كان الإسلام بمعزل عن الحكم لما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم.

هـ- إسراع الصحابة من بعده -صلى الله عليه وسلم- إلى اختيار أميرٍ للمسلمين يخلفه في هذه الصفة وعدم انكسار أحد منهم ضرورة اختيار خليفة، ومعلوم أن إجماع الصحابة على أمر من أمور الدين يعتبر دليلاً وحجة على شرعيته.

---

(١) أخرجه احمد في مسنده: (٢٢٧/١١) برقم (٦٣٦٠)، قال الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة (٥٦/٢) رقم (٥٨٩) ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة (٤٨١) برقم (١٨٢٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (٤٨٨) برقم (١٨٥١).

و- يرى أيضاً أن أئمة المسلمين وعلماءهم، منذ صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، أدخلوا باب الإمامة في كتبهم الفقهية، وأحياناً في كتب العقيدة وعلم الكلام، بسبب ما ثار من الخلاف في طريقة تعيين الإمام مع الاتفاق على الأصل بين الفرق الإسلامية، وهكذا أجمع المسلمون، جيلاً بعد جيل منذ عصر الصحابة، على أن الحكم من الإسلام، وعلى أن الإسلام يستلزم إقامة دولة[1].

٤-بيّن – رحمه الله – أن من أخطر خطوات الغزو الفكري على المجتمعات الإسلامية ما أحدثه الأعداء فيها من أزمة جذرية عنيفة وثورة نفسية فكرية، فكان الشك والجحود لأسس حضارتنا ومعتقداتنا وقيمنا ومفاهيمنا وتاريخنا، وغمرْت هذه الموجة من الشك طبقةً كبيرة من المثقفين والناشئين في الثقافة الغربية، بسبب شدة الصدام والصراع الحادث في نفوسهم بين الصورة المشوهة الضيقة الأفق التي تلقفوها في بيئتهم الثقافية، بعد عصر الانحدار، وعرفوها على أنها هي الإسلام، والصورة الحية الناضرة الواسعة الأفق التي واجهتهم بها الحضارة الغربية، وكأنهم أرادوا، بالتعبير عن ثورة نفوسهم على الثقافة القديمة والحضارة المورثة، أن يرفعوا عن أنفسهم معرة نقص توهموه، ويردوا عن أنفسهم ما يشعرون به من عار الانتماء إلى تلك الثقافة ويظهروا بمظهر من فهم الجديد ووعاه، ووقف موقف الرائد المرشد من قومه وأهله [2].

المبحث الثاني : الأثر الثقافي :

١-اشتراكه – رحمه الله – في قطاع التعليم، وإسهاماته في التخطيط التربوي، وخاصة فيما يتعلق بمواد الدين واللغة العربية، فقد تولى التدريس والتفتيش في مراحل مختلفة وفي عدد كبير من المدارس داخل سورية وخارجها، كما أسهم في التخطيط التربوي في عدد

---

(١) انظر : نظام الإسلام الحكم والدولة، ص١٢-١٨.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، ص١٠١-١٠٢ .

أيضاً من المدارس والكليات والمعاهد، وكان له دوره البارز فيها، حيث اشترك في التخطيط في جامعة أم درمان، وكان رئيساً لقسم الدراسات الإسلامية فيها، كما شارك في التخطيط في جامعة أم القرى في مكة المكرمة فوضع خطتها وبعض مناهجها، كما كان مستشاراً في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، فكان – رحمه الله – نعم القائد والمفكر والمخطط والمعلم .

٢-كما وجه – رحمه الله – إلى أن كثافة المناهج الدراسية في البلاد العربية، أدى إلى عجز التعليم عن تخريج المزودين بالعلم الحق؛ فإن تخريج معلمين ومدرسين ضعفاء في مادتهم بسبب التساهل في إعطاء الدرجات والامتحانات والأسئلة، والاكتفاء بالقدر الذي قرره الأستاذ من أهم الأسباب المؤدية إلى الضعف. فنوعية المدرسين يتوقف عليها حسن التعليم، كما أن للمادة العلمية أيضاً أثرها الواضح في إعداد مثل هؤلاء المعلمين، فينبغي التنبه إلى نوعية المادة التي لا تقتصر على التخصص فقط، إنما على الثقافة العامة التي يجب تحصيلها على الجميع، لما تكسبه من ترويض للعقل والذوق، وحذف ما تقل منه الفائدة أو ما لا فائدة منه، حيث تكدس بعض المواد العلمية ببعض المعلومات التي تشتت ذهن الطالب وتصرفه عن المادة العلمية المطلوبة [1].

٣-أنه – رحمه الله – انبرى لدعاة الضلالة ووقف حجرة عثرة في طريقهم، ومن ذلك (ساطع الحصري) [2]، الذي كان ممثلاً للتيار الغربي الذي يحاول إبعاد الدين عن المناهج التعليمية وجعله في زاوية معزولة عن أجزاء التعليم، بينما كان المبارك – رحمه الله- في ذلك الوقت ممثلاً للفكر الإسلامي الأصيل، فما زال في جهاده حتى نصر الله به الحق، وأخذت مادة الدين مكانها الطبيعي في

---

(١) انظر علماء ومفكرون عرفتهم، ص٢٥٦-٢٥٨ .

(٢) سبق ترجمته ص ٥٩

مقررات الدراسة، وبذلك سجل الفكر الإسلامي انتصاراً على دعاة العلمانية في سورية وغيرها [1].

المبحث الثالث : الأثر الدعوي :

١- دعوة الشيخ – رحمه الله – أبناء الإسلام، ودعاة الأمة بأن يقدموا الإسلام للناس ليعرفوه ويدرسوه، ولينظروا في طريقته في معالجة مشكلة الإنسان الكبرى، وما دونها من مشكلات تتفرع عنها لعلهم يجدون فيه حلاً لأزمتهم، وفي خطته هداية إلى سعادتهم، فأحق الناس أولاً بهذه الدراسة هم المسلمون أنفسهم الذين أصبح الإسلام جزءاً من تاريخهم وحياتهم، ولكنهم يجهلون الكثير عنه، ثم الذين يدينون بغير الإسلام الذين يعيشون مع المسلمين فالأولى أن يعرفوا مواطن الالتقاء بينهم وبين المسلمين. فالمسلمون يدرسون الإسلام ولكنها دراسة مجزأة حيث إن أحكام الأموال في الفقه مثلاً موزعة بين أبواب متباعدة من الفقه، والجوانب المتعددة المتعلقة بالجانب المالي والاقتصادي من بيع – وإجارة – وخراج ... وغيرها مفرقة في كتب الفقه بحيث لا يتمكن الباحث أن يكوّن فكرة شاملة تامة عن هذا لجانب، فتبدو لنا شدة الحاجة إلى صورة عن الإسلام مبرأة من الشوائب شاملة لجميع جوانبه وأجزائه مع ترابطها وحفظ نسبها ومواقعها، فهذه الصورة هي التي تعرف بالإسلام تعريفاً صحيحاً وتميزه عن غيره من المذاهب والنظم [2].

٢- نبّه - رحمه الله – أبناء الأمة الإسلامية ودعاتها على الخطر الذي يحيط بالعبادة في الإسلام، حيث إن الناس قد شُوهت لديهم المفاهيم، وضاع الحق بينهم، فأصبحت العبادة بين مفهومين: فريق أساء فهمها، وشوه جمالها وجعل منها عملاً مستقلاً منفصلاً،

---

(١) انظر: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٢٥٤-٢٥٥ .

(٢) انظر: نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ص١٠-٢٢ .

واعتبر مظاهرها لا روحها وجوهرها، وفريق آخر ألغى العبادة من نظام الحياة بإهمالهم لتنمية الروح وتنمية الفعالية الروحية فغدت الحياة ناقصة بحجة إحلالهم التربية العقلية والوطنية محلها، فينبغي أن يعرف أمثال هؤلاء أن العبادة هي الصلة بين الإنسان وخالقه، وكانت مقـدمة لبعثة النبي -صلى الله عليه وسلم، وتهيئة لنفسه ليستطيع أن يقوم بعبء الرسالة، وكانت اللبنة الأولى في تاريخ الدعوة، وكانت بالنسبة للحضارة التي أضافها المسلمون بمثابة الجذور العميقة التي أنبتت وأثمرت، وقد كانت الغاية الأولى للعبادة هي أن تزج بالإنسان في معارك الحياة، وصراع الخير والشر والحق والباطل، وهو أمضى ما يكون سلاماً وأقوى عزيمة، وأطهر نفساً، وأنبل قصداً، فهي سبيل لتقوية الروح وإعدادها لخوض المعركة، فهي تذكره أن الإنسان يعيش لا ليأكل ويشرب وينام، ولا ليجمع المال، وإن كان ذلك من متطلبات الحياة، ولكنه يعيش ليحمل أمانة وينفذ رسالة [1].

٣- يبين – رحمه الله – أن الأمم تقاس بمقدار ما تحقق في نهضتها من مبادئ إنسانية، وبمقدار اتساع مداها الحيوي في المجال الإنساني، وبمقدار تقدمها نحو الهدف الإنساني، والمسلمون يرون في القرآن المنبع الأصيل والمنهل الصافي ومجمع القوى المختزنة الكامنة التي تفجر في أنفسهم إنسانيتهم، ولذلك كان دوماً هدف الشعوبيين أعداء العرب والمبادئ الإنسانية، منذ العصور القديمة وحتى في عصر الاستعمار الحديث، إقصاء العرب عن القرآن ومفاهيمه وتغطية ذلك بستار العلمانية أو التقدمية أو التحرر [2].

٤- كشف خطر الشعوبية وأهدافها، حيث أنه – رحمه الله – كان من أوائل من نبّهعلى خطرها في بلاد الشام، حيث بيّن أن مظاهرها هي عداء العرب وتتبع مثالبهم والطعن

---

(١) انظر: نحو إنسانية سعيدة ص١٦٨-١٧١ .

(٢) انظر: دراسة أدبية لنصوص من القرآن ص١١٧-١١٨ .

فيهم، وعداء مبادئ الإسلام والتشكيك فيها والتهوين من أمرها، يقول المبارك – رحمه الله– عنها: " الشعوبية تتجلى في كل نزعة تسعى إلى الكيد للعرب وتضمر الحقد عليهم، أو على الأقل تستند إلى شعور المباينة والمغايرة في داخل المجتمع العربي، ويدفعها هذا الشعور إلى إظهار هذه المباينة والعمل على الانفصال، وعلى إزالة أسباب المغايرة لا بالاندماج والانصهار في البيئة العربية، بل لتحويل البيئة العربية عن ذاتيتها وخصائصها أو أرضها وتشويهها أو تشتيتها أو إذابتها"[1]. فأخطر أهدافها منع المسلمون من الوصول إلى وحدتهم المادية بتوحيد الشعب والأرض في كيان واحد، أو إلى وحدتهم المعنوية، وانسجامهم الفكري والخلقي المستمدَّين من عقائدهم وتراثهم المشترك وحضارتهم وروحهم الأصيلة.

ويكون نتيجةَ ذلك قتلُ الشخصية الإسلامية وطمسُ معالمها وفصلُها عن العالم الذي يحتلون فيه مكان القيادة والتوجيه، وينشرون فيه حضارتهم والقيم الإنسانية التي آمنوا بها، ويقفون فيه موقف الإمام المتبوع والمعلم الهادي [2].

---

(١) الأمة العربية في معركة تحقيق الذات، محمد المبارك ص٧٦، منشورات مؤسسة المطبوعات العربية بدمشق، ط: ١، ١٣٧٥هـ.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٧٧.

الخاتمة

الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا، وأتم علينا نعمته ورضي لنا الإسلام ديناً، والشكر له على إتمامه وإحسانه، أحمده على أن من عليّ بالهداية للإيمان به، وأعانني على إتمام هذا البحث، الذي أسأله سبحانه أن يتقبله، ويتجاوز عما فيه من الخطأ والتقصير، وأن ينفع به، إنه جواد كريم.

وفي ختام هذه الدراسة أود أن أشير إلى أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال معايشتي لهذا الموضوع زهاء ثلاث سنوات، ثم أعقبها بأهم التوصيات:

١- أن الشيخ المبارك -رحمه الله- أفنى حياته في خدمة الإسلام واللغة العربية، ومحاربة المذاهب الهدامة، وكتب في ذلك مؤلفات عدة لا يزال بعضها يدرس في بعض الجامعات العربية مثل كتاب (فقه اللغة وخصائص العربية)، و(الثقافة الإسلامية).

٢- عدم تأثر الشيخ المبارك -رحمه الله- بالحضارة الغربية رغم أنه عاش في أجوائها في بلاده، ثم تلقى علومها في بلاد الغرب أنفسهم وعلى يد علمائهم؛ وذلك لشدة الحصانة الدينية والثقافية التي كان يملكها.

٣- من بعد دراسة شخصية المبارك -رحمه الله- نجد أنه يتميز بالاعتدال والتوازن في كل الأمور، ويبتعد عن التحيز والتطرف، وخاصة فيما ينشب من معارك بين السلفيين والصوفيين، وغيرهم، فيقف من ذلك موقف الاعتدال الذي ينبع من روح الإسلام وفلسفة الوسطية والتوازن فيه.

٤- رغم أن المبارك -رحمه الله- كان عالماً متبحراً، وداعية إسلامياً ومربياً ومعلماً واعياً، إلا أن كل هذا لم يثنه عن الولوج في مجال السياسة، حيث سلك هذا الطريق فترة

من الزمن؛ لأنه رأى في ذلك خدمة لأمته، و قطع الطريق أمام العلمانيين الذين تقلدوا هذه المناصب، وأرادوا إبعاد الدين عن السياسة، فكان له دوره في اعتبار الشريعة الإسلامية المصدر الرئيس للتشريع في سورية.

٥- يعتبر الشيخ المبارك -رحمه الله- من المؤسسين لجماعة الإخوان المسلمين في سورية، وكثيراً ما كان يمثلهم في البرلمانات ويقدم لهم الدعم والتوجيه.

٦- كان لنشأته – رحمه الله – في أسرة مشهورة بالتقوى، والصلاح، والعلم أثر كبير في توجهه، وإهتمامه بقضايا أمته ومشكلاتها.

٧- إن للعصر ا لذي عاش المبارك في أجوائه، والمشحون بالحروب، والإضطرابات، حيث ولد رحمه الله في أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد رأى الإعتداء الغاشم على الإسلام، وعلى اللغة العربية، كان ذلك كله له أعظم الأثر في توجهه إلى الذب عن هذه اللغة والوقوف في وجه الطامعين والمتربصين بها.

٨- إن الناظر إلى مؤلفاته – رحمه الله- يجد فيها الأديب المفوه، والسياسي المحنك، والمفكر المتطلع إلى حلول قضايا أمته، وذلك من خلال استشرافه لكثير من مشكلات المستقبل، والتحذير منها، وإسهاماته في علاج كثير منها.

٩- أنه – رحمه الله – دعا من خلال هذه المؤلفات كل من يهمه أمر المسلمين، من الدعاة، وغيرهم، أن يظهروا الإسلام في مظهره الصحيح، الذي يليق به، دون غلو ولا تفريط، ولا يقفوا من الدعوة موقف الذليل الذي همه تبرأة الإسلام أمام خصومه، وكأن الإسلام مجرمًا يحتاج من يثبت براءته، بل يقف موقف القوي، الذي لا يكترث بما ينعق به المنافقون، ومن في قلوبهم مرض، بل يبرز محاسن الإسلام وجوانب قوته.

التوصيات:

١- إعادة طباعة كتب المبارك – رحمه الله – وتجديدها وتصحيح ما فيها من أخطاء مطبعية، حيث أن كثير منها رديئة الطباعة.

٢- تبني الأفكار الثقافية، والفكرية، التي بها إليها المبارك – رحمه الله – قبل أكثر من ثلاثين عاما تقريبا ، وسرعة تنفيذها، وذلك لأن فيها حلولا مناسبة لكثير من القضايا الإسلامية اليوم.

٣- على العلماء والدعاة إلى الله اليوم، السير على خطا من سبقهم من المفكرين أمثال الشيخ المبارك – رحمه الله – حيث انه من اللذين درس أحوال الأمة الإسلامية وواقعها، وعرف مكامن ضعفها فكانت جهوده علاجا لكثير من مشكلات العصر الثقافية والفكرية والسياسية.

٤- كما أوصي الدعاة إلى الله بان يكونوا على علم ومتابعة، وثقافة بأحوال أمتهم، ومشكلات عصرهم حتى تكون جهودهم في الدعوة مرجوة الثمار والنفع.

وأختتم كما بدأت بحمد الله، الذي أعانني على إتمام هذا البحث، الذي بذلت فيه قصارى جهدي وغاية وسعي، وأملي أن أكون قد وفيت الشيخ المبارك بعض ما يستحق من دراسة هو بها جدير، فإن وفقت فذلك من فضل الله فله الحمد والمنة، وإن كان غير ذلك فأسأله الصفح والغفران، فهذا جهد المقل مع تقصير وخلل، واستغفره سبحانه من خطئي وجهلي وزللي، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهارس

فهرس الآيات

الآيـــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الرعد		
٣٤- ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ... ﴾	٨	٤٥
٣٥- ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ... ﴾	٢٦	١٩٨
سورة الحجر		
٣٦- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ... ﴾	٩	١٥٢
٣٧- ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا ... ﴾	١٩	٤٥
٣٨- ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ ... ﴾	٢٩	٤٨
سورة النحل		
٣٩- ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ... ﴾	٥-٧	٤٩
٤٠- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ... ﴾	١٤	٤٩
٤١- ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ... ﴾	١٧	٣٩
٤٢- ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ ... ﴾	٤٠	١٤١
٤٣- ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ... ﴾	٦٦	٤٠
٤٤- ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ ... ﴾	٧٨	٤١ ، ١٦٦
٤٥- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ... ﴾	٨٠- ٨٣	٥٤
سورة الإسراء		
٤٦- ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ... ﴾	١٢	٤٥
٤٧- ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا ... ﴾	٤٩- ٥١	٦٣
سورة الكهف		
٤٨- ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ... ﴾	٤٨- ٤٩	٦١
سورة طـه		

الآيــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
٨٩- ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتًا ... ﴾	١٧	٤٧
سورة الجن		
٩١- ﴿ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾	١٨	٥٣
سورة المدثر		
٩٢- ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴾	٣٨	١٩١
سورة النبأ		
٩٣- ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءً ... ﴾	١٤	٤١
سورة الإنفطار		
٩٤- ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾	٧	١٦٦
سورة العلق		
٩٥- ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾	١	١٦٦
٩٦- ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴾	٦ – ٧	١٩٢
سورة العاديات		
٩٧- ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحًا ﴾	١-١١	١٥٤
سورة المسد		
٩٨- ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾	٢	١٩٠

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

فهرس المصادر والمراجع

١- (أجنحة المكر الثلاثة) لعبدالرحمن حبنكه الميداني، دار القلم، دمشق، ط: ٨، ١٤٢٠.

٢- (أصول التربية الإسلامية) للأستاذ الدكتور محمد شحات الخطيب، دار الخريجي للنشر والتوزيع- الرياض، ط: ٢، ١٤٢١هـ.

٣- (اقتصادنا) محمد باقر الصدر، دار الكتاب اللبناني- بيروت، لبنان، ط جديدة ومنقحة ١٤٠١هـ.

٤- (اقتضاء الصراط المستقيم) لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. ناصر العقل، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ط: ٦، ١٤١٩هـ.

٥- (الإسلام اليوم) لأبو الأعلى المودودي، مطبوعات الجماعة الإسلامية بباكستان، بدون ذكر الطبعة.

٦- (الإسلام والحضارة الغربية) للدكتور محمد محمد حسين، دار الرسالة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: ٩، ١٤١٣هـ.

٧- (الإعلام) لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط: ٥، بدون ذكر تاريخ الطباعة.

٨- (الإعلام المعاصر قضايا وآراء) لفايق فهيم، دار الوطن للنشر والإعلام، الرياض، ط: ١، ١٤٠٦هـ.

٩- (الأمة العربية في معركة تحقيق الذات) لمحمد المبارك، منشورات مؤسسة المطبوعات العربية بدمشق، ط:١، ١٣٧٥هـ.

١٠- (الأمة والعوامل المكونة لها) لمحمد المبارك، دار الفكر بدمشق، بدون ذكر الطبعة.

١١- (التخطيط للتربية والتعليم) محمد علي حافظ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون ذكر الطبعة.

١٢- (التغريب في التعليم في العالم الإسلامي) للدكتور محمد عبدالعليم مرسي، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٩هـ، بدون ذكر الطبعة.

١٣- (التفسير الواضح الميسر) للشيخ محمد علي الصابوني، دار الأفق للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط: ١، ١٤٢٢هـ.

١٤- (الثغرات التي يتسلل منها الغزو الفكري وسبل تلافيها) للدكتور عبدالقادر محمد عطا، دار العلوم والحكم، سوريا، ط: ١، ١٤٢٤هـ.

١٥- (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط:١، ١٤٢٧هـ.

١٦- (السيرة النبوية) لابن هشام، دار المعرفة، بيروت- لبنان، حققها مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، بدون ذكر الطبعة.

١٧- (العقيدة الصحيحة ونواقض الإسلام) للشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز بدون ذكر الطبعة ودار النشر.

١٨- (العقيدة في القرآن الكريم) لمحمد المبارك، دار الفكر، بدون ذكر الطبعة.

١٩- (الغزو الفكري والعسكري الصليبي وخطورته على الأمة العربية والإسلامية) للأستاذ الدكتور علي هود باعبَّاد، مكتبة الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، صنعاء، ط:١، ١٤٢٦هـ.

٢٠- (الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام) للدكتور علي عبدالحليم محمود وآخرون، دار الثقافة والنشر بالجامعة الإسلامية بالرياض، ط: ٢.

٢١- (الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية) لمحمد المبارك، دار الفكر، بيروت، ط:٢، ٣، ١٣٨٩هـ، ١٣٩٣هـ.

٢٢- (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) للدكتور محمد البهيّ، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ط: ٦، مزيدة ومنقحة ١٩٧٣م.

٢٣- (القاموس المحيط) لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، ط:٢، ١٤٠٧هـ.

٢٤- (المجتمع الإسلامي المعاصر) لمحمد المبارك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط: ٢، ١٣٩٢هـ.

٢٥- (المحدث الأكبر وإمام العصر العلامة الزاهد السيد الشريف الشيخ محمد بدر الدين الحسني) للأستاذ الشيخ محمد صالح الفرفور، دار الفرفور، دمشق، ط:١، ١٤٢١هـ.

٢٦- (المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي واقعها وعلاجها) لمحمد المبارك، دار الفكر، بيروت، بدون ذكر الطبعة.

٢٧- (المعجم الوسيط) تخريج إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية، تركيا، ط:٢ ، ١٣٩٢هـ.

٢٨- (الموسوعة العربية الميسرة) بدون ذكر دار النشر والطبعة وتاريخها.

٢٩- (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة) للدكتور مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط:٥، ١٤٢٤هـ.

٣٠- (النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه) للدكتور أحمد محمد العسال والدكتور فتحي عبدالكريم، مكتبة وهبة، شارع الجمهورية، ط: ٣، ١٤٠٠هـ.

٣١- (الوحدة الإسلامية) لمحمد أبو زهرة، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان، بدون ذكر الطبعة.

٣٢- (بين الثقافتين الغربية والإسلامية) لمحمد المبارك، دار الفكر، بيروت، بدون ذكر الطبعة، ١٤٠٠هـ.

٣٣- (تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر) للدكتور إسماعيل أحمد ياغي، والشيخ محمود شاكر، مكتبة العبيكان، الرياض، ط: ٢، ١٤١٩هـ.

٣٤- (تفسير القرآن العظيم) للإمام ابن كثير، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:١، ١٤٢٢هـ.

٣٥- (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ٩، جديدة منقحة ومصححة ١٤١٨هـ.

٣٦- (حاضر العالم الإسلامي الواقع والتحديات) للأستاذ الدكتور عفاف سيد صبره والدكتور مصطفى محمد الحناوي، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، ط:١، ١٤٢٤هـ.

٣٧- (حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة) للدكتور جميل عبدالله محمد المصري، الناشر مكتبة العبيكان، الرياض، ط:١، ٧، ١٤٠٥هـ، ١٤٢٣هـ.

٣٨- (دراسة أدبية لنصوص من القرآن الكريم) لمحمد المبارك، دار الفكر، ط: ٤، منقحة ومزيدة، ١٣٩٢هـ.

٣٩- (ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد) لمحمد المبارك، دار الفكر، ط: ٢، ١٣٩٤هـ.

٤٠- (سلسلة الأحاديث الصحيحة) للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: ٣، ١٤٠٣هـ.

٤١- (سنن ابن ماجه) للإمام أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمود نصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤١٩هـ.

٤٢- (سنن النسائي) بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، تحقيق مكتبة التراث الإسلامي، دار المعرفة، بيروت، ط: ٣، ١٤١٤هـ.

٤٣- (شخصية المرأة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة) للدكتور محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط: ٧، ١٤٢٦هـ.

٤٤- (صحيح البخاري) للإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، بيت الأفكار الدولية للنشر، بدون ذكر الطبعة.

٤٥- (صحيح مسلم) للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، مكتبة الرشد، الرياض، بدون ذكر الطبعة، ١٤٢٢هـ.

٤٦- (عبقرية اللغة العربية) لمحمد المبارك، دار الفكر، بدون ذكر الطبعة.

٤٧- (عقيدة المؤمن) لأبو بكر الجزائري، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ط:٥، ١٤٠٧هـ.

٤٨- (علماء ومفكرون عرفتهم) لمحمد المجذوب، دار الاعتصام، ط: ٣، بدون ذكر تاريخ الطبعة.

٤٩- (علم اللغة مقدمة للقارئ العربي) للدكتور محمود السعران، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، بدون ذكر الطبعة.

٥٠- (فتح القدير) للإمام الشوكاني، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط: ١، ١٤٢١هـ.

٥١- (فصول في اجتماعيات التربية) للأستاذ الدكتور مصطفى عبدالقادر زيادة وآخرون، مكتبة الرشد، الرياض، ط:٥، ١٤٢٧هـ.

٥٢- (فقه اللغة وخصائص العربية) لمحمد المبارك، دار الفكر، بيروت، ط: ٥، ١٣٩٢هـ.

٥٣- (فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ) لمحمد المبارك، دار الفكر، ط: ٣، ١٣٩٤هـ.

٥٤- (في اجتماعيات التربية) للدكتور منير المرسي سرحان، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، ط: ٤، ٢٠٠٣م.

٥٥- (قضايا إعلامية) للدكتور أحمد عبدالملك، دار المجد الأولي للنشر، عمان، ط:١، ١٤٢٠هـ.

٥٦- (لسان العرب) لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: ٣.

٥٧- (مذاهب فكرية معاصرة) للدكتور غالب العواجي، المكتبة العصرية الذهبية، جدة للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ١، ١٤٢٧هـ.

٥٨- (مسند أحمد بن حنبل) لأحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: ١، ١٤١٣هـ.

٥٩- (معالم الثقافة الإسلامية) للدكتور عبدالكريم عثمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون ذكر الطبعة، ١٤٠٢هـ.

٦٠- (معجم المؤلفين) لعمر رضا كحاله، مكتبة المثنى لبنان، ودار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، بدون ذكر الطبعة.

٦١- (معجم المؤلفين المعاصرين) لمحمد خير رمضان يوسف، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٥هـ، بدون ذكر الطبعة.

٦٢- (موسوعة المستشرقين) للدكتور عبدالرحمن بدوي، دار العلم للملايين، ط: ٣، ١٩٩٣م.

٦٣- (نحو إنسانية سعيدة) لمحمد المبارك، دار الفكر، دمشق- بيروت، ط: ١، ٢، ١٣٨١هـ، ١٣٨٩هـ.

٦٤- (نحو ثقافة إسلامية أصيلة) للأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر، ط: ١٢.

٦٥- (نحو وعي إسلامي جديد)، لمحمد المبارك، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط:٢، ٣ ١٣٨٩هـ، ١٣٩٣هـ.

٦٦- (نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة) لمحمد المبارك، دار الفكر، بيروت، ط: ١، ٢، ١٣٩٢هـ، ١٣٩٤هـ.

٦٧- (نظام الإسلام الحكم والدولة) لمحمد المبارك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط: ٢، ١٣٩٥هـ.

٦٨- (نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث) لمحمد المبارك، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، ١٤٠٩هـ، بدون ذكر الطبعة.

٦٩- (نظام الإسلام العقيدة والعبادة) لمحمد المبارك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط: ٤، ١٣٩٥هـ.

٧٠- (نهاية المرأة الغربية بداية المرأة العربية) لعبدالله بن زيد آل محمود، دار الشروق، ط: ٢، ١٤٠٢هـ.

الدوريات:

١- مجلة حضارة الإسلام، مجلة فكرية شهرية جامعة تصدر في دمشق.

٢- مجلة البنوك الإسلامية، تصدر عن الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية.

٣- مجلة الفيصل، مجلة ثقافية شهرية، تصدر عن دار الفيصل الثقافي، الرياض.

٤- جريدة المدينة المنورة.

فهـرس الموضوعات